الأعوام الحاسمة

للفيلسوف :

أوزفالد شبنجلر

قدم له وترجمه عن الألمانية

علي حسن الهاشم

obeikandl.com

الى الأصالة حيثما كانت . . .

الى الشرق الناهض . . .

الى مصر الطامحة

ص	س	الخطـــأ	الصـــواب
٤	١٥	Scgichesal	Schicksal
١٦	٨	Kontropnnkt	Kontrapunkt
١٧	٨	Des Kapital	Das Kapital
٢١	١	مد هائلة ليس إلا	مدن هائلة ليس فيها إلا
٢١	٩	هذه الأدوار	هذه هى الأدوار
٤٩	٢١	الشرط كى . نسجل	الشرط ، كى نسجل
٦٤	٢١	يتغلل	يتغلغل
٦٥	١٢	ارتبكت	ارتكبت
٧٣	٣	عصر السياسة	عصر الحساسية
٧٣	١٨	التشكك	الشكاك
٨٦	٢	ككتلة عضوية	ككتلة غير عضوية
١٠١	٤	ثانية من شىء	ثانية شىء
١١٢	٨	وللحضارية	وللمضاربة
١١٣	٨	Kontinenfalspeve	Kontinentalsperre
١٢٢	٤	أما هجمات	أمام هجمات
١٢٥	٢	لأشد خطر	لأشد خطرا
١٢٧	٨	برولتاريذية	برولتيارية
١٢٨	١٣	Lwa	Iowa
١٢٩	١٦	لم يكن يعنى	لم تكن تعنى
١٣٠	٥	وواء	وراء
١٤٧	١٣	الملوثة	الملوثة

obeikandi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

أو النظرة المصرية

* * *

لقد ابتذلت فى هذه الأيام معان سامية منها الفلسفة التى أصبحت إما نقلا أجوف لشتى المذاهب ، وفى مختلف الثقافات قديمها وحديثها ، وهو نقل يقصى ما بينها وبين الإدراك السليم ، ويجعل منها عبارات غامضة لايتذوقها إلا طائفة محدودة تستأثر بها وبغوامضها ، وإما لهوا ولعبا ينضم إلى سائر ضروب الشعوذة الأدبية التى ترمى إلى صرف النشاط الثقافى عن جوهر الأمور .

وليس « أوزوالد شبنجلر » من هؤلاء المتفلسفين ، فلا هو بالناقل ، ولا هو باللاهى ، وإنما هو مفكر أصيل جرىء خشن ، فأفكاره عصارة دمه قبل أن تكون وليدة فكره ، ولذلك يعرضها عارية من كل ملطف ، وهو يقذف بها فى وجه العالم أجمع فى شجاعة أليق بالفعالين منها بالمفكرين .

وإنه ليسعدنى أن أقدم لقراء الشرق بعامة والعربية بخاصة آخر ماأنتجه شبنجلر ، وكان ذلك قبل وفاته ، فلقد كتب هذا الكتاب عام ١٩٣٣ بعد تولى هتلر ببضعة أشهر ثم مات عام ١٩٣٦ أى قبل شبوب الحرب الماضية بثلاثة أعوم ، وإنه لكتاب يتناول قضية العالم الحالية ، قضية العالم الكبرى التى تنتظم كل المشكلات كفروع ، وقد صورها وسطرها قلم جبار يضع

ص	س	الخطأ	الصواب
١٤٧	٢٠	بنفخة	بنفخة
١٤٨	٩	يضخ	يضع
١٥٧	١٤	تبدو	تُبدر
١٦٠	١٣	تصيح	تصبح
١٦٣	١٢	بها يلحقها	بما يلحقها
١٦٥	٢٠	إذا كانوا	إذ كانوا
١٧٤	١١	السجون الذى	السجون التى
١٨٧	١٦	Homo Sopiens	Homo Sapiens
١٨٩	١٦	فكل المثلين	فكل من المثلين
١٩٥	١٧	جميع الحشرات	جموع الحشرات
٢٠٨	١١	لا برضى لنفسه	لا يرضى لنفسه
٢٢٣	٢١	عل ما لكيها	على مالكيها
٢٣١	٥	لوحدة	بوحدة
٢٣٢	١٣	الكم قبل ، والقطيع قبل اليسد	الكم بدل ، والقطيع بدل السيد
٢٣٣	٢١	المثيرة	المثيرة
٢٣٦	٤	لم أفهم	لم أفهم
٢٥٩	١١	فى جاوه	فى جاوة بأثنتى عشر ماركا
٢٦١	١٥	مربيا	مربيا
٢٦٥	١٧	بقوة	بقوة
٢٦٦	٤	حوله	حول
٢٦٨	٨	البن ولتيارية	البرولتيارية

obeikandl.com

المشكلات فى بوتقة واحدة فتتفتح الأعين فى سحرية رائعة على وضع جلى واضح يفسر كل غامض ويجلو كل مبهم .

وهو قد كتبه كمفكر ألمانى ذى نزعة بروسية ووجه الخطاب إلى أوربا وإلى الحضارة الغربية وخص ألمانيا قبل كل شىء .

ومع أنى لاأسلم بكل ما رآه إلا أن صراحته الألمانية الخشنة تفتح لنا فرجة إلى خفايا كلها فائدة وخير لنا ، إذ كشف لنا عن أعماق أسرارهم الدفينة أعماق نهضتهم وعوامل انحلالهم بلسان صريح وقول جلى .

وسوف يرى القارىء كيف بلغ هذا العبقرى الإعجاز فى تصوير الحاضر وتقدير المستقبل قياسا على الماضى وبناء على نظريته التى ابتدعها بشأن الحضارات ودوراتها المحتومة ، بل كيف أن تقديراته للمستقبل بلغت روعة فذة إذ أنه قدر الحرب الأخيرة الماضية ، ونتائجها إلى حد كبير ، وذلك قبل اندلاعها . وقد اندلعت فعلا بعد وفاته وبعد نشر كتابه ، كما قدر الساحة السياسية والحربية تقديرا عبقريا ، حتى إنك لتقرؤه اليوم وقد مضى على كتابته أكثر من خمسة عشر عاما وكأنك تقرأ تصويرا للحاضر يستحيل على غير المعاصر أداؤه . وكل ذلك لا عن طريق التنجيم ولا عن طريق التعليل ، بل على طريقته الخاصة التى ابتدعها وكانت ثورة حقة فى فن التاريخ والفلسفة التى أرى أن ندعوها « الفلسفة الواقعية » .

وليس من السهل أن تقرأ لشبنجلر ، فالصعوبة لاتقف معه عند العمق والأصالة ولاعند توفيقه إلى فكرة شاملة تتحكم فى كل مايعرض ، بل تتجاوز ذلك كله إلى أنه قد صاغ عبارات وألفاظا جديدة ليؤدى بها فى قوة أخاذة آراءه المبتكرة ، وقد يسر له ذلك أن اللغات الأوربية والألمانية على

الأخص قد ألفت هذه الأبحاث ، وألفت الإبتكار فى الألفاظ حتى أصبح الجديد منها يتساقط عفوا ومن غير تعمل على أقلام الكتاب كل حين أضف إلى ذلك المرونة الطبيعية التى أبقت على حيوية المادة اللغوية عندهم فجعلتها تلين فى طواعية إلى التجديد ولا تجهد الكاتب فى الصياغة ولا غرو فإن اللغات الأجنبية بحكم طبيعة تطورها فى أحضان الثقافة الغربية ملابسة لها كل الملابسة وميسرة للمستزيد منها كل التيسير .

فنظرة شبنجلر إنما هى فكرة شاملة جامعة تنتظم كل مظاهر الحضارة وتختزلها فى حيز واضح طلى ، لذلك وجب أن يلم القارىء بمذهب الرجل ، وأن يدركه إلى الحد الذى يسمح له بتذوق مايقرأ ، وإدراكه على الوجه الذى يقصده شبنجلر . وهذا مادفعنى الى تقديم كتابه بهذه المقدمة التى حاولت فيها ما وسعنى أن أنقل مذهبه فى أوجز عبارة ممكنة وأبسطها .

ومذهب شبنجلر مدون فى كتابه الأصيل (Untergang des Abendlandes) « أفول الغرب » وقد مضى على نشره قرابة الثلاثين عاما ، (وأرجو أن أصدر تعريبه فى زمن قريب) . وقد أحدث يوم نشره فى عالم الفكر الغربى دويا قل أن يحدثه مؤلف آخر إذ كتب عنه عام نشره مايقرب من أربعمائة كتاب ورسالة بأقلام أئمة الفكر ، ولم يكن ذلك غريبا على رأى صدم كل مألوف وصدع معاقل كانت لبداهتها فى مأمن حريز من كل نقد ، بَلْهَ تناولها أو معالجتها .

نعم لقد قام شبنجلر بثورة قلبت كثيرا من أوضاع الفكر المقررة ومن أسس الفنون وسائر الاتجاهات العلمية والأدبية ، فكم من هيكل فكرى أوحكم راسخ حمته القداسة مئات أو آلافا من السنين قد انهار تحت معوله القاسى .

وكفاك أنه أحكم القضاء على المنطق المألوف منطق العلية فنزع سلطانه وأخذ بمنطقه الخاص الذى أسماه منطق الحياة أو المنطق العضوى . إنه يرى أن كل ألوان القياس والقضايا تستند فى النهاية إلى بدهيات هى فى ذاتها قضايا ، ولكنها قضايا مسلم بها لاتتسع لأن تبنى على قضايا أخرى . وهنا يتساءل : أليس كل التفكير أذن مرتكزا على الاعتقاد ؟ وأليس كل ما تعارفنا عليه من نظريات وأسس علمية مهما تبلغ من الدقة مبنيا على مسلمات (Postulate) هى فى ذاتها عقائد ؟ . فإن كان الفكر فى أعمق صورة مبنيا على المسلمات والعقائد فما الفارق إذن بين التفكير والاعتقاد ؟ أليس هو فى الدرجة فحسب ؟ أى فى أن الفكر المألوف أبعد عن العقيدة الأساسية منه عن العقيدة المألوفة التى تطالعك مباشرة ، وبدون ادنى وسيط او تسلسل ؟ وبهذا حول العلوم فى أسسها إلى عقائد وقال : إن ما يأخذه العلماء على الدين إنما هو (بومرانج) أو سهم مردود الى راميه .

وهكذا هدم العلية المألوفة وحصرها فى حيز ضيق واهتدى إلى أن وراء الحوادث مايعلو على الأسباب السطحية ، وراءها منطق الحياة والزمن ، وراءها القضاء أو المصير بالمعنى الألمانى Schichesal القضاء الذى يملى على الفرد وعلى النوع وعلى الحياة الوان النمو والتطور مما لايمت بأى وشيجة إلى السببية فهو يعتنق جبرية من لون جديد تتصل بالجبرية الإسلامية وتختلف عنها : تتصل بها من حيث الحتمية ، وخلوها من التدبير . ولكنها تختلف عنها من حيث ردها إلى القدر بصورته الفلسفية الألمانية ، ذلك القدر الذى تلعب فيه الإرادة البشرية الفردية دورها . ومن العسير على غير من تذوق الثقافة الألمانية أن يتصور كيف تتسق صورة القدر مع فكرة إرادة ذاتية خارجة

ومهما يكن لون هذه الجبرية التي أتى بها شبنجلر فانها مع غيرها من أركان مذهبه كانت معولا جبارا أصاب المادية الحديثة في أرسخ جذورها، وأفسح الطريق لضرب جديد من الروحانية ينظر إلي المرحلة الحضارية الحالية فى الغرب نظرة فيها لنا نحن الشرقيين رضا وتأس وبسط للامل فى المستقبل . فهو روحانى أصيل . قد نفذ ببصره الثاقب إلي ماوراء المادة ، واهتدى إلي أن الروح هى جوهر الأمور لا المظاهر المادية التي تلعب بالأحاسيس فتخدعها وتصرفها عن الحقيقة الكامنة .

وليس من السهل أن تعين الناحية الثقافية التي ينتمى إليها شبنجلر : أ إلي الفلسفه أم إلي العلم أم إلي الفن ، والواقع أنه قد جمع بين كل ذلك وقد تجلت عبقريته إبان الطلب إذ نال أعلى الدرجات الجامعية في كل من الناحيتين العلمية والأدبية ، وهو جمع قل أن يتوفر لذهن واحد . ثم تتجلي هذه العظمة في بحثه الأصيل إذ تراه يجول ويصول ذا مقدرة إعجازية في تيه الأعماق العلمية والفنية والفلسفية والرياضية والدينية ، ويتسع لتلك الكتل الهائلة من المعلومات التي تناولها ضما وتنسيقا في خفة وحذق ، ثم اقتنصت عبقريته من بينها علاقات بلغت الاعجاز في جدتها وأصالتها ، وهذه العلاقات هى أساس مذهبه الطلي الأصيل ولا شك فى أنه اهتدي إلي مذهبه عن طريق استقراء علمى رائع فى هدى لقانة عبقريه شأن العالم المبتكر الأصيل .

ولا شأن لنا هنا بكثير مما جال فيه فما يعنينا أن نعرض إلا ما من شأنه أن ييسر للقارىء إدراك عباراته ومراميه ، وعلى من شاء الاستزادة والامعان في دراسته أن يقرأ له في لغته الأصلية أو في أية لغة غربيه ، فقد ترجم إلي معظمها كتابه الأصيل « أفول الغرب » ولكن جوهر بحثه على أية حال هو نظرة جديدة إلي التاريخ أضفت على دراسته ضوءا جديدا ينصرف به عن العلية

التي بلغ بها مومزن ورانكه الذروة والتي من شأنها أن تتقصى للحوادث مسبباتها ، نظرة خرجت به إلى الفكرة العضوية التي مهد لها مواطنه جوته منذ قرن ونصف من الزمان .

فهو يرى أن حياة الانسان الاجتماعية تسير في لونين :

حياة كلها رتوب لا تنوع فيها ولا جدة ولا ابتكار ، حياة لا تحس الزمن ولا تشعر بالتاريخ ولا بالحضارة وإن تخللتها بعض مظاهرها وهي مايدعوها بالحضارة الفطرية أو البدائية (Urkultur)

وحياة أخرى تتجلى فيها ضروب معينة من الحضارة تحدد للمجتمع ذاتيته وهي حياة الانسانية في صور شتى من الأمم واللغات والديانات والفلسفات والفنون وما يستتبعه ذلك من أنظمة وأحداث سياسية واقتصادية وبالاجمال في كل ما تعارفنا على تسميته بمظاهر الحضارة .

أما هذا النوع الأخير من المجتمع الانساني فهو تلك الجزائر المحدودة المعالم في بحر الانسانية الزاخر . هو المجتمع كصورة عضوية ، وهو الذي تناوله التاريخ وانتقل في معالجته من محض التسجيل إلى التحليل والتعليل مختلفا في ذلك باختلاف موقف المؤرخ : فمن المؤرخين من يجعل الأمة وحدة التاريخ ، ومن يجعلها الدين والملة ، وآخرون يعدونها العنصر أو الدولة وغيرهم اللغة ، وطائفة غير أولئك وهؤلاء تعدها خليطا من هذا وذاك .

ومهما تختلف نظرة هؤلاء المؤرخين فانهم تأثروا فوق كل شيء بمكانهم وزمانهم فكان إقليمهم الذي نشئوا فيه وتأثروا به ، وعصرهم الذي غمرهم في لجته ينالان من عنايتهم شأنا لا يتناسب مع قدرها الطبيعي . وآخر شاهد على ذلك محدثو المؤرخين في الغرب الذين درجوا على تقسيم التاريخ العام إلى قديم ومتوسط وحديث وأفرغوا للقديم الذي دام آلاف الأعوام وشمل عشرات من الأمم حيزا لايكاد يوازي مايشغله جيل أو جيلان من التاريخ الحديث ولم

ينج من ذلك مؤرخو الصين والعرب إذ جعل كل منهم حاضر بلاده أصل التاريخ وحط من قدر الحوادث كلما ترامت في البعد مكانا أو زمانا .

وأخيرا أتى « شبنجلر » بثورته فى معالجتـــه التاريخ فأسماها الطريقـة « الكوبرنيكية » قياسا على ما أحدثه كوبرنيكس فى الفلك لبضعة قرون مضت يوم زحزح الأرض عن مركز الكون ، وقد كان العلماء قبله متأثرين به كل التأثر . فلقد قام شبنجلر بمعجزة تجريد نفسه من جاذبية الحاضر والبيئـة واخترق الأحقاب والأصقاع وإذا به لا يرى تاريخا للانسانية مطرد التقدم وإنمـا رأى فى التاريخ مجموعة من وحدات عضوية تعارف القوم على وضعها فى المرتبة الثانية لا على جعلها أساس كل شيء . رأى أنه لا الأمة ولا الدين ولا الدولة هى الوحدة التاريخية ، وإنما هنـاك ما هـو أعم وأشمـل ، هنـاك « الحضـارة » .

فالحضارة فى نظره كائن حى بمعنى الكلمة شأنها شأنه دائما من حيث إن أمورها ليست عللا ومعلولات وإنمـا هى دورة عضوية تبدأ بالحمل والميلاد وتنتهى بالموت ، وتتميز بخصائص الكائن الحى ، بمعنى أنهـا تسير فى دورات محتومة ، لا تنجو منها حضارة ما . وعلى رغم هـــذا التشابه فى الكثير من مظاهر النمو والصورة اتسمت كل حضارة بسماتها الخاصة التى تميزها عن غيرها كما يتميز الفرد عن الآخر ، وتسمها بطابعها المعروف . وهذه الدورة التى تخضع لها كل الحضارات ، ثم المميزات التى تتميز بها كـل حضارة عن الأخرى ، لاتخضع لإرادة بشرية . وإنمـا تسير سيرتهـا العضوية . فليست الحضارة فى نظره على هذا الأساس هى هذه المظاهر المتنوعة التى تقرع الحس والفكر من لغة وفن وعقيدة وعلم وفلسفة ونظـام سياسى واجتماعى واقتصادى وإنما هى

روح تتخذ من هذه النواحى سبلا للتعبير ، روح شحنها القدر بما تشحن به كل روح فردية . وهو فى ذلك يتفق إلى حد ما مع المذهب الروحانى الذى يرى وراء مراحل النمو الأحيائية دورة مرسومة ، أى إملاء من القضاء لا تجاوبا مع البيئة . فالضرورة هنا إنما هى ضرورة لا يفسرها سبب ولا علة ، هى الضرورة الأحيائية التى تجعل من الحبة الصغيرة نباتا باسقا متفرعا ، ومن الحيوان المثوى الضئيل إنسانا يافعا معقد التركيب . فكل ما أتاه الإنسان فى هذه الحياة الحضارية الخصيبة المتنوعة إنما هو تعبير عن هذه الروح الكامنة ، وليس الأمر أمر أسباب للتقدم أو للتأخر أو للثورات أو لغيرها مما تمتلىء به بطون التاريخ على غير أساس .

وبما أن الحضارة فى مظاهرها المألوفة ليست إلا وسيلة للتعبير عن الروح الكامنة وراءها ، والتى لا سبيل إلى تجاوزها عتبة الوجود العميق الى ساحة الوعى والحياة الظاهرة إلا عن طريق هذه الوسائل المألوفة ، فقد أصبحت أهمية المظاهر الحضارية فى روحها لا فى مظهرها ، روحها التى تدب وتنبض فى كل فن وعقيدة وأصول علمية وسياسية . وهكذا أتى شبنجلر بأحد كشوفه الرائعة وهو أن لكل حضارة رمزها الذى يصل مابين الروح والحس ، رمزها الممثل للون عمقها ، رمزها المتحكم فى عقيدتها وأسسها ، فى موسيقاها وصورها وسائر إنتاجها الفنى . وان هذا الرمز لينبثق فى قوة ، وعلى حين بغتة فى ربيع الحضارة فيشيع بقوة ويغمر النفوس طوفانه ، ولا يفسره منطق ولا علية ، وعلى ذلك فهما تتصل حضارة بأخرى وتستعر من غيرها قبسا من أدبها أو فلسفتها أو نظامها أو أسسها العلمية يكن ذلك وهما لا يتصل بالجوهر ، ولا فرق بينه وبين ذلك الذى يتزيا بلباس آخر متخيلا أنه بذلك الدثار قد أصبح

يشعر شعور صاحبه الأصيل ، وبمعنى آخر أن لكل حضارة عقيدتها وفلسفتها وأسس علومها وأنظمتها السياسية وسائر ألوان فنونها ولها قوانينها ، وإن فيلسوفا أو فنانا يونانيا لايتذوقه حق التذوق إلا يونانى أصيل فى هذه الحضارة، وأن نقل الفلسفة والفن من حضارة الى حضارة انما هو اقتباس وتفاعل لا نقل، فالنقل مستحيل لأن الروح الكامنة لا تنقل . وان مايقرؤه الحضارى العربى ويفهمه عن فيلسوف أو فنان يونانى يستحيل الى روحه العربية مهما يتباين الدثار . وبفضل هذا الكشف الرائع سهل تفسير تلك المناقضات بين فلاسفة العرب وفلاسفة الغرب فيما نقلوه عن أرسطو وأفلاطون وغيرهما ، فلم يجمعا على شيء منه الى اليوم اذ أن كل ما تمتلىء به فلسفات العرب والغرب عنهما وعن غيرهما ليس الا نظرات عربية او غربية تسودها روحهما الخاصة لا الروح اليونانية .

فليس هناك فلسفة ولا فن ولا علم ولا نظام قانونى مطلق فى التاريخ .

ليس هناك تاريخ قديم أو متوسط أو حديث ، وإنما هناك حضارات منعزل بعضها عن بعض كل الانعزال ، لكل منها فلسفتها وعقيدتها وفنها وعلمها وقانونها . هناك فلسفات وهناك علوم وهناك فنون مستقلة لكل حضارة يستحيل أن تنقل من حضارة لأخرى ، وهكذا قضى شبنجلر على وهم متمكن من كل عالم وفنان : هو أن هناك فلسفة عامة وعلما عاما وتاريخا عاما وفنا عاما إذ قضى أن ذلك كله وهم وضلال . كما فسر بهذا الكشف معظم المغالطات التى لجأ إليها مؤرخو العلوم والفنون والأنظمة . فقد تأخذك روعة تحفة أو فكرة أنتجتها حضارة أخرى . ولكنك فى تأثرك تتأثر كفرد من أفراد حضارتك . لا كفرد من أفراد الحضارة الأولى ، وفى ضوء مصباحك

الخاص بلونه المميز ، أى بإلهام روحك الخاصة .

وهكذا فاجأ المؤرخين بضربة قاسية . وهى أن جل التعليلات التى أدلوا بها لروائع الحوادث ليست إلا وهما زيفه سلطان المنطق المألوف وقد أبان فيما أبان أن الثورة الفرنسية لم تأت عن طريق الأسباب التى تمتلىء بها بطون الأبحاث التاريخية ، والتى منها الضنك والظلم ، إذ تبين أن الزارع الفرنسى فى ذلك الأوان كان من أسعد الزراع فى أوربا كما أنها لم تتجاوز « باريز » والمدن الكبرى كشأن جل الثورات السياسية ، وبعبارة أخرى أبان أن تلك الثورة وأمثالها إنما هى مراحل انقلابية لابد من وقوعها فى ذلك الوقت بالذات وكل ما هنالك أن لون الانقلاب هو الذى يختلف باختلاف الظروف ، كذلك لم تسقط غزوات الجرمان روما ، وإنما أسقطتها شيخوختها ، وكل مافى الأمر أن الغزو والشيخوخة ظهرا معا على مسرح التاريخ . وهو يأتى الك بما يوازى ذلك وغيره فى كل حضارة أخرى فى دقة رائعة .

وعلى ذلك فإن الأحداث مهما تبلغ من قوة ، لاتستطيع أن تنال من تطور المراحل والمعالم العضوية لحضارة ما ، إذ أن نصيبها لا يتعدى نصيب المهذب من الفرد .

وكما عجز العلم عن إحداث أى تعديل فى تركيب الأجهزة وآجالها المقررة كذلك لاتستطيع العلوم والعبقريات والعوامل الاقتصادية التأثير فى المعالم الأساسية لسير الحضارة التى يتحكم فيها القدر الأحيائى نفسه ، ذلك الذى يسير بالكائن الحى من البويضة إلى الموت فى مراحل مرسومة دقيقة . وكل ما يستطاع هو ما يوازى نصيب التربية فى الإنسان والحيوان والنبات ، أى حسن التوجيه فى احترام السنن العضوية المتحكمة فى ذلك النمو .

لذلك كانت مهمة القيادة والزعامة عند شبنجلر التهذيب لا الإبداع ، التهذيب المبنى على احترام سنن تطور الحضارة ، تلك السنن التى تشمل فيما تشمل الإبداع نفسه الذى يبزغ فى وقته المعين فى النمو الحضارى . لافرق بينهم وبين المربى الماهر والزارع الحصيف اللذين يحترمان سنن الحياة ولا يسمحان لجهودهما أن تتصل بالمستحيل : فالزارع الحصيف لا يحاول أن ينتج القطن فى أسبوع بدل الأشهر الستة أو السبعة ، وإنما يحسن القيام على زرعه حتى يأتى بأكبر محصول وأحسنه ، ويرى شبنجلر فى هذه المناسبة أن الأمة إنما هى القادة فحسب لأن الشعب لا يسير إلا بإيحاء قادته .

وهكذا تبدت إمكانية جديدة لم يحظ بها التاريخ قبل تطبيق هذه النظرة الشبنجلرية: تلك هى أن المؤرخ على طريقته الجامعة بين التوسم والقياس يستطيع قراءة المستقبل إلى حد كبير على ضوء نمو الحضارات السابقة . بل يستطيع أن يملأ كثيرا من صفحات التاريخ الماضى التى أصابها الفناء بنفس الطريقة التى يصل بها عالم الحفريات الى بناء هيكل لحيوان ضخم بائد من أحد عظام الجمجمة التى يعثر عليها . وبهذه الطريقة كشف شبنجلر عن سر غامض من أسرار تاريخ مصر القديم وهو عصر الهكسوس لا من حيث الإمعان فى تفصيل وقائعه ولكن من حيث وضعه وحوادثه اجمالا . أى ما نال مصر فيه من تغييرات تعمد المؤرخون المصريون ابادتها من سجلاتهم الحجرية والبردية الخالدة . وما كان ذلك من عاداتهم . وما أبادوها الا خجلا من مظاهر الانحطاط التى تسجلها تلك الحقبة ، كما جلا الغموض عن كثير من مراحل معينة فى تاريخ الهند والصين والحضارة العربية والأمريكية القديمة وعلومها وفنونها وفلسفتها ودياناتها وأنظمتها .

وتولد الحضارة إذا ما ألقى القـــدر بذرتهـا فى تربة مجتمعات رتوبيـة ، تسودها تلك المظاهر الحضارية البدائيـة ثم تأخـذ في النمو والتشكل العضوى والازدهار في بقعة محدودة معينة على سطح الكرة الأرضية حتي إذا ما حققت جميع إمكانياتها من شعوب وعقيدة وفنون ودول وعلوم نالها عامل الموت المحتوم.

فالحضارة وهى ذلك الكائن الحى الروحانى الكامن وراء مختلف المظاهر لها ميلادها ولهـا موتها . وهى في حياتها تحقق في سجل التاريخ سائر إمكانياتها . وإن الحضارة في أول أمرها يوم ينبثق فيها الرمز المميز لها ويسود مظـاهرها البادئة في التشكل ، هى المرحلة التى يسود فيها الالهـام والعقيدة ، وتظهر فيهـا ظهورا قويا الأصول الأولي لـكل عقيدة وكل فلسفـــة وكل فن وكل نظام . ثم تأخذ الحضارة في التطور والتشكل حتي تبلغ مرحلة الكهولة وإذ ذاك تتحول إلي مدنية (Civilisation) بعـد أن تأخـذ روحها فى الاجـداب . وكلما أخذت إمكانياتها في النفاد لجأ العقل إلي تحويل تلك الامكانيات إلى مظاهرها المادية ، إلي تلك القشور المتجسمة في حـوادث التاريخ والتي تزخر بها انقـلاباته . فتأخذ هذه الفيوض الروحانيـــة التي غمرت سياق الحضارة تلك المظاهر المادية وغير المادية التي تتمتع بالبقاء والتي يظل بعضها قائما لا فى مرحلة المدنيـة أى المرحلة الحضارية الأخيرة فحسب ، بل بعد موت الحضارة نهائيا ، في تلك المجتمعات الرتوبية اللاحقـــة بالحضارة حيث تعيش مجردة من نبضها الأصيل . فـــلا يجمع ألوان الحياة رمز ولا طراز لا أى عامـل موحـــد يكسبها طـابعا خاصا مميزا .

فكل حضارة لها مرحـــلة الشباب . مرحلة الحضارة الأصيلة التي تغمرها الروحانية وهى التي يطلقها شبنجلر على المرحلة الكاملة أى حضارة (Kultur) ولها كهولتها وشيخوختها وهى التي يطلق عليها المدنية (Civilisation) وفي الأولي أي الحضارة بمعناها النقى المحدود تقوى كل المظاهر الالهامية والوجدانية

حيث يبلغ الإنتاج الروحى أوجه بعكس ، مرحلة المدنيةعندما تطغى المادة على الروح . وينخدع البحاث والمؤرخون فيرون فى التقدم العمرانى المادى وبخاصة فى كمه ، تقدما ورقيا ، وما هو فى الواقع إلا الجدب الروحى ، وهم فى ذلك متأثرون بالحس وبقاء آثاره مدة من الزمن قد تطول إلى حد بعيد .

وما مرحلة الحضارة الغربية الحالية إلا غمرة المدنية المضللة ببهرجها الذى يستر فقرها الروحى وقد نفد من أمد . فهىسائرة الآنبخطا واسعة إلى الفناء المحتوم الذى أصاب الحضارات السابقة ، وسيصيبها ويصيب كل حضارة تولد، لامفر من ذلك مهما يلجأ العقل المغرور إلى التنظيم والتدبير . تلك سنة الوجود ولاراد لأمرالله . وتلك المرحلة الراهنة فى الحضارة الغربية هىنفس مرحلة المدنية التى أصابت اليونانية فى عصرها الرومانى ، وأصابت المصرية القديمة فى عصرها الإمبراطورى . وهكذا يفسر هذا الكشف الرائع ذلك الجمال الذى يغمر الإنتاجات الفنية للعصور الأولى مهما تكن بسيطة . كما يفسر ذلك الجدب الذى يصيب تلك التحف التى تظهر فى عصر المدنية بكثرة وضخامة وإمعان فى التعقيد والزخرف ولكنها سخيفة سخفالغنىّ المحدث فى هذا العصر الراهن من مرحلة الحضارة الغربية .

نعود إلى ميلاد الحضارة فنقول ، إنه إذا ما ألقيت هذة البذرة الإلهية فى تربة البشرية غمرت النفوس فى هذة البقعة المعينة نزعات خاصة هى دبيب الحياة الحضارية فتندفع هذه المجتمعات على اختلاف أقوامها ولغاتها وسائر ألوان حياتها إلى الشعور بذاتها فى وسط الكون الأعظم ، وتأخذ الروح الحضارية فى التعبير عن هذا الشعور فى العقيدة وألوان الفن والأنظمة الاجتماعية والسياسية والعلوم وغير ذلك . بضروب من التعبير يتحكم فيها

جميعا بقوة خارقة « رمز » الحضارة الذى يظهر فجأة فى قوة رائعة ، فنجد الأسطورة الأساسية التى تبنى عليها عقيدة الحضارة للتعبير عن الشعور الكونى كما تأخذ الفنون فى إعلان الروح الجديدة أولا فى خوف وحذر ثم تنطلق فجأة فى جرأة سحرية .

وتميل كل حضارة إلى تفضيل ناحية معينة فى مبدأ نشاطها الحضارى ولكن لا يلبث هذا التعبير أن يأخذ فى الانتشار وشمول سائر النواحى .

وعند ما يبدأ الرمز فى الظهور يكون شأن الحضارة كالطفل الذى يقابل الحياة فى خوف وانزعاج فيلتجىء إلى صدر أم حنون . كذلك قد تلجأ الحضارة إلى صورة حضارة أخرى أصابها البلى والفناء ولم يبق فيها غير هياكلها العقيمة فتقتبس منها ما تتدثر به على سبيل الاقتراض ، وهو مايسميه شبنجلر « التشكل الكاذب » (Pseudomorphose)

فإذا ماصلب عودها ـ وقد يبكر ذلك وقد يتأخر ـ اندفعت فى قوة إلى خلع ذلك الدثار الكاذب ورمته جانبا واذ ذاك تتجلى الحضارة فى أروع صورها على مسرح التاريخ .

ويتميز ربيع الحضارة بعدة مميزات ، فمن الناحية الروحية تبدأ النظرة العالمية الأسطورية والميثافيزيكية فى التشكل ويبزغ ويشيع رمزها فى مختلف الميادين عن طريق إلهام روحى قوى فجائى يغمر النظرة الكونية ويسود الفنون وبخاصة فن العمارة .

ويبتدىء تشكل الأقوام على صورة أمم أى وحدات عضوية سياسية ويتزعم الجميع إذ ذاك الطبقتان الأصيلتان : النبلاء ورجال الدين . ويحيا حياة ريفية تأخذ فى التمخض عن تلك الوحدات الاجتماعية التى تبدأ فى التكون

حول قصور النبلاء والأمراء وكبار رجال الدين ، وهو ما يميز عهد الفروسية والإقطاع .

ويتلو هذه الوثبة الربيعية رد فعل أول ، تعارف المؤرخون خطأ على نعته بالنهضة (Renaissance) وما هو فى الواقع الا محاولة خائنة لروحها ، بالارتداد الى صورة لحضارة بائدة يخيل اليها أنها تحياها من جديد ، وليست فى الواقع الا تكلفا لايصل الى السياق الأصيل للحضارة الفتية ، فعصر النهضة فى الحضارة الغربية الذى كان مركزه جنوب أوربا لم يكن فى الحقيقة احياء للحضارة اليونانية القديمة كما يغالط به التاريخ وانما كان الرد الفعلى الذى ليس فيه من القديم الا وهم وخداع .

فإذا ما حل صيف الحضارة - أى أوجها - اكتمل شعورها الذاتى وبدأت تنزع نزعة روحية اصلاحية قوامها من الناحية الدينية ثورة شعبية تصل بين روح الحضارة الحقة والعقيدة ويأخذ الفكر فى النمو وتسديد سهامه الى الأصول التى سلمت بها الحضارة فى ربيعها وبخاصة الدين . كما تبدأ الآراء الفلسفية المحضة فى الظهور ، وتظهر الخصومات بين الأنظمة المثالية من جهة والواقعية من جهة أخرى .

وهو يرى أن المجتمع فى شباب الحضارة يأخذ فى التشكل العضوى : فكما يتميز الكائن الحى بكمال تشكل أجهزته وأعضائه فى فجر شبابه يكتمل تشكل المجتمع فى ربيعه ، وما الطبقات الاجتماعية التى تميز عهد الاقطاع والتى تفرق بين النبيل وغير النبيل الا تلك العضوية التى ينوه بها شبنجلر ، وهو يسمى المجتمع اذ ذاك بأنه على « صورة » (In Form)

تلك الصورة التى من شأنها أن يندفع الإنسان أو الحيوان فى عمله لا نتيجة

للتمعن والتدبير بل للسليقة والتقاليد ، تلك السليقة التي تنحدر خلال أجيال من دماء الفصيلة أو الجدود إلى الفرد ، فيكون لعمله إذ ذاك روعة مهيبة تأخذ بلب المشاهد ، روعة لايعرفها العمل المنظم المدبر. فالكوكبة من الخيل التي تسير منضمة في ميدان السباق ، في توافق تام ، والتي تترك قوائمها هذا التوافق إذا ماتركت السهل إلي أرض وعرة ، والتي لا تلبث أن تعود إلي توافقها الجميل إذا ما استأنفت العدو في الأرض السهلة إنما هي «على صورة» . كذلك حين يقوم الجندي والمصارع والمبارز بأخطر الحركات من غير تدبير يكون كل منهم إذ ذاك على « صورة » كذلك عند ما صدر ال (Kontropunkt) عن باخ كان هذا الصدر إذ ذاك « على صورة » كما كان « على صورة » جيش نابليون في أوسترليتز ومولتكه في سيدان .

وبالجملة فان كل ما أنتجه التاريخ من عظائم الأمور في الحرب وفي متابعة الحرب بوسائل فكرية ندعوها « السياسة » ، وفي تنافس الدول والطبقات الاجتماعية أو الأحزاب ، كل ذلك كان من فعل تلك الوحدات التي وجدت نفسها « على صورة » إذ ذاك .

ويرى شبنجلر أن المجتمع يبلغ أكمل صورة في الحضارة حين يتمثل في صورة الدولة ، وهي وحدة بين مثيلاتها . ثم إنه لايرى في قوتها الداخلية مهما تبلغ أية أهمية بجانب قوتها الخارجية بل إنه لايرى في هذا الكمال الداخلي إلا تأهبا واكتمالا للصورة لتكون على استعداد في الحرب .

والحرب عند شبنجلر كما هي عند كثير ممن سبقه من مفكري الألمان ـ الأساس في الوجود ، وهو لايري في السلم إلا فترات غير طبيعية في التطور الاجتماعي للحضارة ، وسيتبين القارىء في هذا الكتاب الذي أقدم له : كيف أنه لايري في الفترة السلمية التي دامت من ١٨٧٠ إلي ١٩١٤ والتي لم تسجل غير حروب محليه ضئيلة ـ إلا فترة نادرة وشاذة في تاريخ الانسانيه جمعاء ، ضلت المؤرخين

المعاصرين عن تلك الحقيقة البارزة . وَدَعَم ذلك بأن أبان بالإحصاء أن أيام السلم أقل بكثير من أيام الحروب .

فالحرب هى خالقة كل شيء عظيم ، وكل ماله معنى فى تيار الحياة إنما ينشأ عن النصر والهزيمة .

وتساهم هذه النظرة فيما رآه شبنجلر من أن الفلسفة الأخلاقية النفعية التى رفع لواءها فلاسفة الإنجليز ، والاقتصاديون منهم بخاصة كآدم سميث وبنتام قد وضعت مُثُلا منحطة للمجتمع ، تتجمع كلها حول السعادة التى اكتملت كهدف عند ماركس فى « الرأسمال » (des Kapital) الذى نظم للمجتمع مثاليته الشيوعية على هذا الأساس ، فهو يعيب على البشرية أن تنحط إلى هذا الدرك إذ أن التاريخ لا يعرف السعادة . فالحياة مأساة ، ويجب ألا تغيب مرارة الصورة عن الأذهان . يجب ألا ينشد الانسان الهناء والرفاهية وإنما عليه نِشْدانُ الواجب والتضحية . بل استطابة التضحية لذاتها فى سبيل كل واجب .

ثم تبدأ الحضارة فى الاتجاه من الروح إلى الفكر ومن الريف إلى المدينة وتأخذ الطبقة الوسطى فى التمكن ، ويشرع المجتمع يأخذ سبيله إلى صبغته الدولية ، ويبلغ النظام السياسى إذ ذاك أكمل صورة فى الحكومة المطلقة القوية التى لا يراد لكلمة رئيسها وتكتمل صورة الدولة فى لون حكم بالغ آيته فى أنظمته وعرفه وتقاليده سواء فى علاقاته الدولية أو إجراءاته المحلية ، وتكون صورة الحضارة اذ ذاك قد شرعت تفرغ حيويتها متجهة الى ذلك التحجر المدنى فى إطار الشُّطُرز (Stile) .

ثم يحل الخريف الحضارى وهو ما نسميه بالمدنية ، وفيه تبلغ القوة

الفكرية أوجها على حساب الروحانية الخالدة فيعظم شأن المدينة الكبيرة التى تشيع فيها حركة التنوير المنادية بالسلطان المطلق للفكر وعبادة الطبيعة ، كما تتكون نهائيا المذاهب العظمى فى الفلسفة والنظريات العلميـــة الرائعة . وبانطفاء الشعلة الروحية تحتكر الفلسفة الأخلاقية العمليـة الميدان ، وتسود المادية والنفعية جميع الأنظمـة ، ولفقر الروح والصور الداخليـــة تأخـذ الطُرز فى التحكم فى ميدان الفن فتبدأ « المودة » فى السيطرة متبدلة كل حين وتنحدر الفنون إلى حـــرف ، والابتكار إلى تقليد وتلفيق ، ثم تحاول هـذه الفنون يوما وفى نشاط احتضارى ـ الأخذ بأسباب التقليـد ، والتزين بموتيفات (Motive) عصر الشباب لهذه الحضارة نفسها أو لحضارات أخرى وهو تقليد أو تزين خال من كل معنى ، وهو ما يعبر عنه عادة «بالكلاسيكية» وفى الناحية السياسية تنهار صورة الدولة وتحل تلك المرحـلة الرهيبة التى هى « الثورة » وما هى الا الانتقال النهـائى من مرحلة الحضارة وشبابهـا الى كهولة المدنية بصفة قطعية وبفكرها المحض . وهى ما يسميها شبنجـــلر بالنابليونية وفيها تنتصر المدينة نهـائيا على الريف ، أى الشعب على الطبقات الممتازة أو الفكر على التقاليد ، والمادية على الروحانية ، وأخيرا وفى نهـاية الخريف يشتد انحلال المجتمع فيتخلى عن الصور العضوية شيئا فشيئا متجهـا الى صورة جموع عالمية عملية حضرية ، وتزداد حـدة الفواصل بين المدينـة الكبيرة والريف ، كما يقوى سلطان المـال فى ميـدان الحياة ويأخذ الاقتصاد فى السيطرة على السياسة وعلى سائر الاعتبارات الاجتماعية الأصلية ، ويقفر الإلهام المبدع فى الفنون ويتمكن التلفيق فيصبح المؤلف الموسيقى ملفقا فحسب ، وكذلك المصور والفنى فى العمارة . وهو ما نشهده اليوم . كما تظهر فى المجتمع

طبقة جديدة لم يعرفها شباب الحضارة ، وهى مانسميها بالطبقة الرابعة وما هى الا الدهماء الحضرية التى لاتعرف من الريف الا اسمه والا أن يكون عبدا للمدينة وسخرية لها ، تلك الحضرية التى يقول فيها شبنجلر : انها بتركها الريف قد قطعت الصلة بالتربة بصفة قطعية لا راد لها . هـــذه هى المدينة فى أتم صورها وهى جماعـــة من الغوغاء « فاقدة الصورة » يوجهها المال أولا عن طريق الصناعة ثم عن طريق « الخبز واللهو » ويسير المجتمع الغربى والمجتمعات التى تحوم حوله فى سرعة نحو هذة الصورة المعبرة عن الانحلال بأتم معناه وقد بين التاريخ كيف أن المدن الكبيرة فى دور المدنية المتأخر كانت هائلة فى اتساعها كما كانت منازلها تحاكى ناطحات السحاب الأمريكية من حيث الاستعاضة بالارتفاع عن اتساع الرقعـــة بسبب الازدحام فكانت (سر من رأى) (سمارا) ذات طابع أمريكى تمتد ثلاثة وثلاثين كيلو مترا على شاطىء دجلة كما كانت مساجدها فى حجم هائل حتى كانت رقعة أحدها ٢٦٠ فى ١٨٠ مترا وقد بلغ طول ضلع القصر الذى بناه المتوكل لأحد أبنائه ١٢٥٠ مترا . وكان فى مدينة « أخناتون » من الشوارع ماعرضه خمسة وأربعون مترا . هذه هى الامبراطورية بأجلى معناها لا تنسع الا لكل غث وتجعل المدن العالمية الكبيرة صورة واحدة . فلافارق بين نيويورك ولندن وكالكوتا وشنهغاى والقاهرة (اذا ما استثنينا الأحياء القديمة وقد أصبحت قليلة جدا نسبيا) لأن الروح قد أمحت والطابع المميز قد زال ولم يعد هناك غير أفراد لاينتظمهم الا المال وسلطانه بقانونه ونظامه وماديته وقسوته الباردة .

ثم يحل الشتاء فتقفر الروح نهائيا ويقضى على التقاليد : فلا تجد الفنون من يتذوقها ولا التقاليد من يحترمها وتسيطر المادية سيطرة مطلقة .

فى هذا الأوان تموت الأنغام بموت كل متذوق لها ، ويفني الجمال بشيوع الرتوب والمادية ، ويصبح كل خير خبرا من الأخبار ، ويعفى على كل مظاهر الترف والعظمة سياج المساواة والكم كما يتحجر العرف والعادات نهائيا في قوانين جامدة .

حتي إذا بلغت هذه المادية أوجها يتجه المجتمع إلي القيصرية التى لاتسيطر على قوميات محدودة المعالم بل تنتهى إلي السيطرة على جموع فاقدة الصورة أو استغلال أمم أجنبية استغلالا ماديا محضا .

وقبل انطفاء قبس الجذوة الروحية تومض للمرة الأخيرة في شكل تدين جديد كما ظهر في التدين الثانى فى عصر أوغسطس فى الحضارة الرومانية وشهونجتي في الصين، والتي أثرت في نفس هيرودوت خلال زيارته لمصر ، وهى تبدأ عند إفلاس العقلية إفلاسا نهائيا . وربما كانت الحضارة الغربية الآن على وشك الدخول فيها . ويقول فيها شبنجلر : إن النفس البشرية تصحو يوما كما ينقشع الضباب عن مدينة قديمة فتأخذ معالمها المرئية في سبيل وضوح أخاذ ولكن الروح الأصيلة التي كانت تنبض فيها يكون قد عفى عليها الزمان . هذه هى الومضة الأخيرة التي تظهر في الحضارة كآخر نسمة في وجودها الحق .

ثم تنتهى الحضارة نهائيا بعودة المجتمع إلي حياة رتوبية ذات لون خاص يسميها شبنجلر « بالفلاحية » نسبة إلي فلاحى مصر في العهد الرومانى . وقد تطول هذه المرحلة التي ليس فيها شيء من صميم الحضارة وإن كانت قد أبقت على بعض مظاهرها قرونا بل آلافا من السنين تظل فيها تلك النواحى المتحجرة محافظة على معظم الصور محافظة شكلية بحكم العادة وتتمثل هذه الحياة الرتوبية ذات اللون الخاص فى الصين والهند وغيرها ، من الأمم التى طالعتها الحضارة الغربيه الحاليه في غزوتها اليوم .

هذا عصر الامبراطوريات الذي يبدأ بالقيصرية وهى الدولة التى لم يعد فيها

من العضوية أثر ما ، فتصبح هناك فيها مدن هائلة ليس إلا سادة وجموع لا يربط أحدهما بالآخر أى رباط اجتماعى ولا أى أثر للتقاليد . وتعيش هذه الجموع الزاخرة على مايلقى إليها من فتات وما تستمتع به من لهو ومشاهدة للألعاب . هذا هو عصر تلك المبانى الرومانية التى ترى آثارها وأطلالها فى ايطاليا وجنوب فرنسا وغيرها من « استادات » العاب وما اليها .

والخلاصة أن الدورة الحضارية تبدأ بالحضارة وهى ازدهار الناحية الروحية وتنتهى بالمدنية حيث ينمو سلطان المادة والفكر العملى . فالحضارة تتفتح من الداخل والمدنية تنبثق الى الخارج .

هذه الأدوار الحتمية التى لابد أن يمر بها ذلك الكائن الحى المسمى بالحضارة . وهذه هى الدورة التى اقتنص أسرارها شبنجلر من بين سطور التاريخ وخفاياه وطبقها على جميع الحضارات حتى إنه أطلق لفظ «المعاصرة» على معنى جديد يتخطى الأحقاب والعصور وينصب على حادثتين أو شخصيتين تاريخيتين لا تعيشان فى وقت واحد كما تفهمه اللغة المألوفة ، ولكن قام كل منهما فى نفس الموقع من نفس المرحلة فى الحضارة التى يتبعها وبذلك تتمتعان بخصائص متطابقة فى كل ناحية كمعاصرة نابليون للاسكندر والبوذية الهندية والكنفوشية الصينية للرواقية فى اليونانية والاشتراكية فى الغربية الحالية . ومن طريف ما اهتدى اليه فى التاريخ الصينى محاولة الامبراطور «هيانج سوى» عام ٥٣٥ إنشاء عصبة سلام بين الدول الصينية المتطاحنة مدفوعا « بالتاويين» وفلسفتهم السلبية ، وقد غلبت هذه الحركة على أمرها أمام قسوة الواقع وقوة غرائز الإنسانية فاكتسحتها الحروب كما اكتسحت معاصرتها فى الحضارة الغربية وصنوها أعنى جمعية الأمم بجنيف كما أنه لافرق بين «هوانج» فى الصين

وأما زيس فى مصر وألب أرسلان فيما بين النهرين مهما يتنكروا فى أزياء متباينة فكلهم قياصرة .

وقد كشف شبنجلر عن عدة حضارات تختزل التاريخ البشرى وفيها لعبت الدورة السالفة دورها ، كما سجل لإحداها وهى الأمريكية القديمة ظاهرة أخرى وهى كيف يُقضَى على حضارة قبل أن تستوفى دورتها . وذلك أن الكاشفين الأسبان ومن معهم افترسوا الحضارة القائمة يومئذ فى المكسيك وما يجاورها . وكان فيها مدن تباهى مدن الغرب الحالية باتساعها وعظمتها مطبوعة بطابعها الخاص . وكيف أن تلك الحضارة التى بلغت فى الرقى الثقافى شأوا لا يخطر على الخيال قد أبيدت بضربة واحدة ، فقد كان لها رياضة عالية وفلك وقانون وفنون فى مستوى رائع .

أما تلك الحضارات التى يثبتها التاريخ فهى المصرية القديمة وزميلتها البابلية بين النهرين، ثم الصينية والهندية ونكادان تكونان متعاصرتين ، ثم اليونانية القديمة (أو الأتيكية) أو الكلاسيكية أو الأبولونية «نسبة إلى الإله أبولو الذى تجسمت فى صفاته روح هذه الحضارة » ، وهى الحضارة التى يتجسم شبابها فى اليونانية القديمة وخريفها وشتاؤها فى الرومانية بمعنى أن روما هى كهولة اليونان . ثم العربية وهى تبدأ بميلاد المسيح ثم الأمريكية القديمة وهى متأخرة قرنين عن العربية أو متقدمة سبعة قرون عن الحضارة التى نشهد قرب ختامها وهى الغربية أو الأوربية أوالفاوستية (نسبة إلى فاوست غوتا) التى بدأت قرابة العام الألف الميلادى . ثم يقدر شبنجلر أن هناك حضارة جديدة فى دور الولادة هى الروسية .

وقد خرج شبنجلر بشجاعة فائقة على ماتعارفت عليه الثقافة الغربية بلْه

العربية القديمة من تمجيد للحضارة القديمة « اليونانية » فلم ير فيها إلا حضارة وضيعة تجهل الزمن ولا تعرف معنى الخلود . بل رأى فيها جنوحا الى المادية كما كانت حضارة حس لا تعرف غير الأجسام المنعزلة وقد انطبعت تلك الخصائص فى دينها الذى لا يعرف غير تعدد الآلهة وأمعن فى ذلك حتى رأى فى الوحدانية إلحادا ، كما تجلى فى نظامها السياسى إذ كانت مدن اليونان دولا تامة ومستقلة الواحدة عن الأخرى تمام الاستقلال مع صغرها ولم يكن سبب ذلك كما تخيلته العلية التاريخية ـ الطبيعة الجغرافية للاقليم ، فكم من بلاد توحدت ثقافتها برغم هذه الخصائص الجغرافية . ويستشهد بفلسفة ديموقريطس الذرية الذى لم يعرف غير ذرات المادة أساسا للوجود ، وكان يقول بأن الرؤية إنما هى تطاير لهذه الجزيئات الصغرى الى عين الرائى . كما بين كيف كانت صورة الكون لدى أرسطو إمام فلسفة اليونان اثنتين وخمسين كرة طباقا وكيف ان مُثُل أفلاطون وقد زعموا أنه رب الروحانية كانت صورا مادية بمعنى الكلمة ويكفى عنده للتهوين من أمرها انها حضارة لم تعرف للفراغ ولا للارادة لفظين فى لغتها على الاطلاق ، ثم إنها لفقرها الروحى كانت تنشد الفناء وتجهل معنى الخلود ومن ثم فلم تر فى الانتحار للفرار من تبعات الحياة عارا ، بل كان بين مذاهبها ما يمجده وهو يعنى مذهب الكلبيين . فما أبعد البون بينه وبين الانتحار « الهراكيرى » الذى يرمى الى غرض سام هو التضحية فى سبيل الامبراطور او اى مقصد نبيل يتصل بالحياة القائمة لا الى الهرب منها كما كان ذلك شأن الانتحار الكلاسيكى .

وقد ترتب على نشدانها الفناء وجهلها معنى الخلود ألا تعرف فكرة اقامة المتاحف ، وألا تحرص على اسماء ملوكها السابقين ، وكان من جراء ذلك

أن فقدتها ، وأن تحرق الجثث مكتفية بالرماد شأن الهنـدية ، ولذا كان من أدواتها المألوفة وعاء رماد الجثث .

هذا إلي أنها كانت عارية من الروح التاريخيـة ، ويستشهد بمـؤرخها الأشهر (Thycidides) وبقيصر ، فحوادث الحـرب الفارسية اليونانيـة في نظر الأول ، وحروب قرطاجة في نظر الثاني لم تكن لهـا أهميـه ما . بل لم تذكر أسماء ملوكها الدوريين في عصر حضارتها ، ثم إن هـذه الحضارة لم تبق على آثارها الأولى بل تركتها أكواما بعد غزوة الفرس .

كذلك كانت فلسفتها وفنونها وأنظمتها وقوانينها . فقـد انحصر تمجيـد فنها في الجسم العاري ، وكذلك كان أجل ما في فنون هذه الحضارة فن التجسيم للجسم البشري اذا اتفق ذلك مع روحـه الميالة للصغر والتحديد . ولذلك كانت بطابعها الحسي أقرب الي الادراك وأدنى إلى القلوب من الحضارات الأخري فنالت من التقدير ما لا يتناسب مع قدر روحها . وما تلك الروحانية التي اغتصبها أفلاطون وغيره في التقدير من فلاسفة العرب والغـرب الا لون مصنوع في الحضارتين العربيـة والغربية .

ولم تستمتع هذه الحضارة بمجدها المألوف إلا لأن العرب لم يكن أمامهم غيرها في شباب حضارتهم للتعبير عن إلهاماتها العربية المنبثقة ، وأمعن التشكيل الكاذب فجعل ذلك الدثار الذهني يدفـع الى الظن بأن ماتقلوه حضارة يونانيـه ثم نقل الغرب عن العـرب في الأندلس وجنوب إيطاليا وسائر الرقعـة المتاخمة تمجيد هذه الحضارة . ثم لما نضجت ظاهرة النهضة في الحضارة الغربية التي هي رد فعل لنزعتها الأصيلة وتلمست حضارة لتقتبس منها لم يكن أمامها إلا هـذا التراث ، وخيـل إليها أنها يعثت الفنون اليونانية والرومانيـة من جديد ثم تمكنت بعض مظاهرها وبخاصة لغتها اليونانية القديمه واللاتينية وبعض آثارها الفكرية من التربة الغربية . ولكن ذلك كله لم يكن مطلقا الشيء القديم نفسه

بل كان محوّرا بما يناسب الروح الجديدة الشابة . وفى الواقع أن كثيرا مما ظهر فى عصر النهضة واعتبر بعثا للفن القديم كان عربيا محورا لا يونانيا أو رومانيا ، فمجموعة العقد والعقاد التى تزين إيوانات مبانى النهضة لم تكن يونانية الأصل بل عربيته . وبعبارة أخرى أن الروح الغربية فى عصر النهضة لم تتخير الا القليل مما أتت به الحضارة القديمة ، وهو ما رأت فيه ملاءمة لنزعتها .

أما المصرية القديمة فتمتاز بالروعة والجد والعظمة والوقار . لقد سيطرت على روحها نزعة الخلود : فى فن عمارتها الرائع وفى عقيدتها الرامية إلى أزل فذ . وفى اتخاذها الطريق المرسوم المثابر رمزا لكل مظاهرها الحضارية . ويبدأ شبابها بالعصر القديم ، عصر الأهرام وهياكله ، ثم تبلغ أوجها بالعصر المتوسط الذى ولد الهيكل النموذجى (البيلون) واللابرينثة ، ثم تنتهى الحضارة ويبدأ عصر الاضطراب وهو ما يعرف بعصر الهكسوس الذى يرى شبنجلر أن حضارة جزيرة كريت القديمة تبقى على آثاره . ثم يأتى العصر الإمبراطورى المصرى ممثلا فى الأسرة الثامنة عشرة ومبانيها الشاهقة فى الأقصر والكرنك وأبيدوس (العرابة المدفونة) وإن ما بقى من تاريخ مصر القديمة بعد ذلك ليس إلا ذلك الرتوب الذى المعت إليه والذى قد يطول إلى آلاف السنين دون أن ينال اللوحة الحضارية أى تغير .

لقد كانت حضارة خالدة بمعنى الكلمة ، وما تلك الهياكل الباقية على مدى الحقب ، وما فن التحنيط ، وما تلك السجلات الخالدة فى النقوش الهيروغليفية وأوراق البردى إلا إعلان عن هذه النزعة الخلودية ، وما تلك السحنة الوقور البعيدة عن الهزل التى تتجلى فى تماثيلها وصورها إلا تعبير

عن عظمتها ووقارها .

أما الحضارة العربية او الماجية أو السحرية فهى من كشوف شبنجلر الرائعة ومقرها الرقعة الممتدة من آسيا الوسطى إلى جنوب بلاد العرب والحبشة بما فى ذلك فارس وسائر بلاد الشرق الأدنى ومصر وما حولها .

وقد ضلل التاريخ وقوع معظم الرقعة الغربية لتلك الحضارة فى الجزء الشرقى من رقعة المدنية اليونانية فأصيبت بداء التشكل الكاذب ، وخدع العلماء والمؤرخون والفلاسفة الى الآن إذ أن ما يسجله التاريخ عن حضارة البطالمة وبيزنطة الأولى (دولة الرومان الشرقية) ، بل عن الدولة السلوقية التى كانت عاصمتها أنطاكية ، وسائر مظاهر الثقافة اليونانية فى عرب آسيا الوسطى والإسكندرية لم تكن فى روحها إلا تلك الحضارة الفتية البازغة المتدثرة بدثار المدنية اليونانية الكاذب . ولم تكن فارس الساسانية كذلك على اختلاف لغتها ومجوسيتها ومزدكيتها ولا بين النهرين بمذاهبها النسطورية والفدائية والصابئة وغيرها إلا الجزء الشرقى لهذه الحضارة . كذلك لم تكن فى الرقعة السورية والفلسطينية التى كانت لغتها الآرامية إلا هذه الحضارة نفسها فلقد كان ما أنتجته قرائح هذه القرون الأولى المسيحية فى تلك الرقعة الفسيحة جديدا على الحضارة اليونانية وغير متصل بها بأية وشيجة . فتعدد الآلهة فى العقيدة القديمة استحال الى وحدانية اليهودية والمسيحية والاسلام ، ولم تكن الأديان والمذاهب التى برزت فى عده ألوان من ثنائية المجوسية : أهورامازدا (إله الخير) وأهريمان (اله الشر) والمانوية وما تطورت اليه على حين غرة العبادات الوثنية نفسها فى تلك الأصقاع . الا تعبيرا عن هذه الروح الجديدة التى ولدت فى الشرق الأدنى والتى لم تكتمل الا بعد

ستة قرون فى أروع صورة هى « الإسلام » .

كذلك فى ميدان الفنون انبثق الرمز الخاص بهـذه الحضارة وهو الكهف أو القبة فانتشر على سطح تلك البقعة انتشارا غريبا فى كل ما أنشأه فن العمارة . وما هو فى الواقع إلا التعبير عن الروح الكامنة السحرية فى هذه الحضارة التى تتميز بظهور معنى التنزيل أى أن كل مافى الوجود آت من عند الله ، من الخفاء ، من عل ، من تلك القبة السماوية التى ترتفع فوق الهامة البشرية ، كما أن علومها ولدت الجبر والكيمياء القديمة السحرية التى كان هدفها العثور على الذهب . وهو ذلك البريق السحرى الذى لايعنى اللون الأصفر وإنما يعنى التعبير عن الخفاء ، والذى قد رسمت به صورة القديسين وهالاتهم فى المعابد المسيحية الأولى وفى تلك الحضارة بخاصة ، ولذلك كان حذاق فن العمارة الذين قاموا بتشييد المبانى العامة للأباطرة فى روما وبيزانطة صناعا من الشرق الأدنى من سوريا وغيرها . فبنى أبولودوروس الدمشقى فى عصر تراجان قبة هيكل « الزهرة وروما » . كما قام ببناء كنيسة أيا صوفيا بالقسطنطينية والغرف ذات القباب فى حمامات كراكالا (وكان سوريا) . وكانت سيدة هذه المنشئات البانتيون الذى أعيد بناؤه فى أيام هادريان ويعتبر أقدم المساجد من حيث الطراز . ولذلك لم يكن هناك نُبُوٌّ بين تلك المبانى ككنائس فى المسيحية وكمساجد فى الاسلام وعلى رأسهما المسجد الأقصى فى بيت المقدس ومسجد أيا صوفيا بالقسطنطينية . ويقول شبنجلر إن الاسلام بتحويلهما الى مسجدين لم يحدث أى تغيير .

وبذلك فسر شبنجلر سرعة الغزوة العربية الاسلامية الناجحة التى اكتسحت العالم المعروف فى مائة عام على حين أن مثلها فى الحضارات

الأخرى مكانا وزمنا وأهمية وخطرا لم يتم إلا فى عدة قرون ، وأدّى ذلك الى احتباس روحها طويلا تحت ضغط قشرة المدنية اليونانية القديمة الكاذبة فما كادت تنطلق بعد تفتح أعينها على حقيقتها حتى ذاب ذلك الغشاء ، ولقد توفى النبي (صلعم) عام ٦٣٢ ولم تمر تسعة أعوام حتى كانت كل رقعة المسيحية واليهودية والمجوسية فى حوزة الإسلام .

وهكذا يتجلى تاريخ تلك القرون فى لون جديد لم يعهد من قبل وفيه يطمئن الفكر الى تلك الصورة الجديدة .

فعصر الحروب الداخلية فى روما الذى بدأ بماريوس وسلا ثم بومبى وقيصر ثم أنطونيوس و أكتافيوس والذى انتهى بانتصار أكتافيوس على أنطونيوس فى أكتيوم (٣١ ق.م) بعد أن انتصر قيصر على بومبى لم يكن فى الواقع نضالا داخليا يخص روما وانما كان عراكا بين تلك المدنية الهرمة وبين الحضارة المتفتحة « بين الحضارة الكلاسيكية فى احتضارها وبين العربية أو السحرية الجديدة التى كان يرفع لواءها أخيرا أنطونيوس الذى اندمج فى الشرق ، فى فلسفة مصر كليوباترا (قلوفطرات فى التاريخ العربى)

وشاء القدر أن يخذل المولود . ولو انتصر أنطونيوس فى موقعة أكتيوم لانقلب تاريخ العالم ولانبعثت الحضارة العربيه فى شبابها وازدهرت وظهرت فى روعه لا يعرف مداها الا العليم القدير . ولم يكن شارل مارتل فى الحضارة الغربيه أمام الجيوش العربيه فى الأندلس الا انطونيوسا منتصرا ! والى ذلك الحدث الطبيعى بالسبة للحضارة الغربية يرجع فضل نموها نموا طبيعيا باهرا ،

وهكذا لم تكن الإسكندرية فى اواخر عهد البطالمة ثم فى أوائل العصر الرومانى على الرغم من لغتها اليونانية موطن ثقافة يونانية بل موطن حضارة عربية

ففيلون الفيلسوف الرومانى اليهودى وأفلوطين (الشيخ اليونانى فى الفلسفة العربية) والفيثاغورية الجديدة والأفلاطونية الجديدة بل سائر المذاهب والأديان فى الشرق الأدنى لم تكن إلا ألوانا وتطورات لهذه الحضارة فى أول عهدها والتى زادت فجأة وبقوة خارقة فى الحضارة الاسلامية ، وهكذا زال بجرة قلم ذلك الغموض والاضطراب الذى شقيت فيه تلك المرحلة من التاريخ فى فلسفتها وأنظمتها وعقيدتها ، وكشف السر فيما هُدِى إليه مومزن المؤرخ الألمانى وحار فى تفسيره عندما أثبت أن الوحدات الحربية الرومانية (Legione) انحلت فى الغرب إلى « جموع لارابطة بينها » على حين تحولت فى الشرق « بيزنطة والشرق الأدنى » الى جيوش إقطاعية تتبع النبلاء وما السر الا أن الحضارة البازغة فى شرق الرقعة بدأت عهدها الاقطاعى فكان الجيش جيش طبقة ذات روح ، أما فى الغرب حيث انحلت الصورة بموت الحضارة القديمة ، فى روما الامبراطورية فقد كان جيشا لاعضوية ولا حياة فيه ، يسير وراء من يشتريه من الأباطرة .

كما أن إغلاق جستنيان لجامعة أثينا ٥٢٩ وأنطاكية والاسكندرية لم يكن الا القضاء النهائى على الغشاء الكاذب كما أن التلمود الاسرائيلى أكمل عام ٥٠٠ ميلادية .

وترجع قصة اليهودى السموءل بن عادياء ودروعه ووفائه فى سبيل المحافظة عليها حين بغاها لنفسه بالقوة أحد أمراء الحيرة الى أنه كان أحد الأمراء الاقطاعيين فى قصره الأبلق ، وهى صورة يفيض بمثيلاتها تاريخ الغرب فى عهده الاقطاعى . وكان الأمراء الاقطاعيون يملئون جنوب بلاد العرب والحبشة وفارس . فكانوا فى الحبشة يسمون (كبير) وفى فارس (دهاقنة)

وذلك فى عصر الدولة الساسانيـة بل ان اختيار (دقلديانوس) « نيكموريا » عاصمة له كان بسبب هذه النزعة . ويقول شبنجلر : ان دقلديانوس لم يكن إلا خليفة بالمعنى المألوف فى التاريخ الاسلامى لا أميرا بالمعنى الرومانى ، أى كان ممثلا للوحدانية المتجسمة فى كل العقائد العربية ، ولم يكن أحـد الأمراء الكثيرين الذين يملئون الصورة السياسيـة فى اللوحـــة الرومانيـة التى تتفق مع معنى التعدد .

وما أعمى التاريخ عن كشف هذه الحضارة خلال هذه المـدة الطويلة وعلى هذه الصورة الا تأثره تأثرا متطرفا ومضللا بالحضارة اليونانية وثقافتها من جهة وبتعدد اللغات فى الأمم وآثار الثقافات فى رقعـة الحضارة العربيـة الجديدة من جهة أخرى فكان التاريخ يلحق كلا منهـا بما يتصور أنه ارتبـاط طبيعى، فظل يتصور الأفلاطونية الحديثة وغيرها تدهورا فى الفلسفة اليونانية مع أن الصلة منقطعة بينهما ، وحار فى تفسير روحانية أفلوطين وتلاميذه التى كانت انبثاقا روحانيا أصيلا ولكنه عربى لا يونانى .

كذلك رفع الستار عن حقيقة شوهها التاريخ ـ وبخاصة تاريخ القوانين ـ كل تشويه . ذلك أن القانون الرومانى الأخير لا فى بيزانطـة فحسب بل فى روما ذاتها وفى كل البلدان التابعة لهـا ، لم يكن رومانيا فى روحه وإنما كان عربيـا أصيلا على رغم تدثره ببعض مظـاهر الكلاسيكية فبرزت فجأة « الشخصيـة المعنوية » التى لم يعرفهـا القانون الرومانى الأصيل ، إذ حصرت الحضارة الكلاسيكية كل استيعابها فى الحس والمادة كما بينت .

كذلك الاجماع الذى لا يعترف بالتعدد ويستمسك بوحدة المذهب الذى يشمل جميع المؤمنين ، ولم تكن تلك المجامـع الدينية الشرقية التى زخرت بهـا

قرون المسيحية الأولى إلا الإجماع الذى اكتمل وتجلى بأروع صورة فى الاسلام . فالإجماع هو إشعاع إلهى فى نفوس الأئمة والمجتهدين فتنطق بما توحى به هذه الروح الإلهية . وهى وليدة الحضارة العربية البازغة . وما القوانين التى جمعها وأصدرها جستنيان إلا قوانين عربية محضة . وذلك فى رأيه هو السر فى تقارب القانون الرومانى فى آخر مظهره من الشريعة العربية ، وقد كشفت فيه نصوص تفيد إجازة قطع يد السارق فى القانون الرومانى ، ومن الثابت أن كثيرا ممن اشتركوا فى جمع قوانين جستنيان كانوا آراميين .

وقد كشف أن روح القانون الرومانى الأصيل لم تكن تشتمل على معنى الثبات إذ لم يكن قانونا دائما فى روحه وإن كان كذلك فى تطبيقه ، ولذلك كان ال Practor الرومانى غير إخصائى فى القانون وإنما كان رجلا له حرفته التى يعيش منها ، اذ لم يكن هناك طبقة قانونية كالتى قامت مع الحضارة العربية ببيروت ، فلم يكن عمل البراتور إلا خدمة اجتماعية . ولم يكن عمله الا اعلان القوانين التى يحكم بها للسنة التى يعين فيها فحسب . وذلك مجاراة لروح الحضارة التى لاتعرف الا الحاضر وبعبارة أخرى أن الثبات الظاهرى الذى كان يتمتع به ذلك القانون لم يكن ناشئا عن أخذه بالثبات بل لأن المواقف التى يحكمها القانون لم تتغير .

كذلك فسر ذلك الفقر فى عدد السكان الذى أصاب الرقعة الغربية التى لم تدخلها الحضارة العربية الفتية بأن المرأة كانت بعيدة عن كل أمومة ، وهمها الاستمتاع الجنسى فحسب والهرب من كل تبعات الزوجية لا انتاج الذرية على حين كان الشرق الأدنى يزخر بالسكان كشأن كل حضارة فى فتوتها .

فتاريخ بيزانطة لم يكن الا تاريخا عربيا صميما ولكن بلغة غير عربية ، فمسيحيتها الأصيلة بعد ذلك وأخذها بالإجماع فى كل مايخص الكنيسة كما حصل فى الإسلام ، وفنونها العربية بفسيفسفائها وقبابها وتطور نظامها السياسى من اقطاع الى خلافة ، انما كان كل ذلك عربيا محضا . كما أن سقوط الأمويين لم يكن الا انتهاء مرحلة الحضارة الموازية لسقوط الملكية الفرنسية . فالأمويون كانوا فى الواقع الدولة العربية الأصيلة لصفاتها الاقرب الى صفات الجاهلية بمرحها وبهجتها وهى التى توازى فى الحضارة الغربية عصر الملكية الناضج فى القرن الثامن عشر . ويرى شبنجلر فى الدولة العباسية حركة « موالٍ » غريبة عن الأمة العربية وأنها كانت فى الواقع حركة اشتراكية فى الصميم - وهو مالم يدونه التاريخ الى يومنا هذا - فهى ثورة الطبقة الوسطى على النبلاء ، والمدينة الكبرى على الريف ، والعقل الحضرى على الروح الأصيلة . فقد كان كل هؤلاء الموالى من قبل مزدكيين ولكنهم اعتنقوا الاسلام بحرارة واخلاص لم يتجليا فى العرب أنفسهم . ولقد تطورت هذه الاشتراكية الى لون من الشيوعية على يد الخُرَّمية الذين يرتدون الى مزدك ، ووفق العباسيون الى الاستيلاء على ميراث هذه الثورة ، كما وفق نابليون فى الحضارة الغربية الى مثل هذا الموقف نفسه . وهكذا يضرب شبنجلر فى التاريخ العربى ضربة فاصلة كشف بها عن الابهام الذى يغطى حركة البرامكة وتمثيل الرشيد بهم .

ولم تكن المرحلة من ٨٠٠ - ١٠٥٠ الا مسترحا لانتقال الحضارة العربية من النابليونية الى القيصرية ، من الخلافة الى السلطنة . كما حدث فى القسطنطينية فى الوقت نفسه سواء بسواء .

وكانت الخُرَّمية هذه منتشرة من دجلة الى مرو ، وقد سقط زعيمها بابك

بعد نضال عشرين عاما ٨١٧ - ٨٣٧ ، ويتوازى معه فى غرب الرقعة حركة القرامطة ٨٩٠ - ٩٠٤ .

وقام بجنوب بغداد على بن محمد الذى ادعى أنه من سلالة على بن أبى طالب بحركة لاتبعد كثيرا عن الشيوعية ولكن لها لونها الخاص ، وأسس فى ٨٦٩ دولة زنجية حقة وبنى عاصمته « المختارة » بعد أن استولى على البصرة ، وكانت أعظم الثغور العربية شأنا ، ونهبها وذبح أهلها . ولم تخمد حركته إلا عام ٨٨٣ ، ولذا سماه شبنجلر بسبارتكوس الاسلام (١)

ثم حل عصر الإمبراطورية المتسم بسمة (السلطنة) وهو النظام الإمبراطورى العربى الذى كان سائدا فى بيزانطة فى ذلك الوقت نفسه ، وما السلطنة التى تميزت بها الحضارة العربية إلا السلطة الزمنية بعد فصلها عن الخلافة التى لم يعد لها سلطان ما . فالخلافة لاتلغى إذ أن الخليفة ذو شخصية مقدسة يستفيدها من الإجماع ، ولكن الخليفة عُرّى من السلطنة الزمنية التى تحولت إلى السلطان .

ويقول شبنجلر : أنه كان فى القسطنطينية بجانب « الخليفة » ميخائيل الثالث السلطانُ بارداس ٨٤٢ - ٨٦٧ ، وبجانب « الخليفة » قسطنطين السابع السابع السلطانُ رومانوس ٩١٢ - ٩٥٩ ، وقد أصبح الأخير إمبراطورا فعليا ثم خلفه الأرمن الذين حكموا إلى أواخر القرن الحادى عشر فكان شأنهم شأن الأتراك لما منح الواثق فى عام ٨٤٢ أحد زعمائهم لقب السلطان . ولم تبدأ الإمبراطورية العربية الحقة إلا بالسلاجقة الذين أرغموا الخليفة على جعل سلطتهم وراثية وكان ألب أرسلان رمزا لذلك النوع من السلاطين .

---

(١) زعيم العبيد الثائرين فى تاريخ روما وأخضعته الجيوش الرومانية عام ٧٦ ق.م

ولم يكن عصر الهكسوس فى الحضارة المصرية القديمة إلا نفس المرحلة الانحلالية وهى قرنان من الزمان من الأسرة ١٢ إلى الأسرة ١٨ وفيه انهار نظام الدولة ، والمجتمع القديم ، وانتهى بعصر الامبراطورية ، وتكشف أوراق ليدن (Leyden) التى تمثل ذلك العصر عن كيفية اندثار التقاليد ، وظهور النكرات ، وانتشار الخراب ، وتدمير المبانى العامة ، وتسلط حثالة الدهماء ، وانتشار الفوضى . لذلك تعمد التاريخ المصرى تجاهل هذه الحقبة ولم يرض بتسجيل نكراته الذين لم يكن كثير منهم ليعيش أياما كشأن الأباطرة الرومان والسلاطين الاسلاميين فى مختلف البلدان . ويستشهد شبنجلر كظاهرة للانحلال - بأحدهم (Chyem) الذى لم يسم نفسه فرعونا ولكن (محتضن البلدان) Umarmer des landes (وأمير الشباب) وهى ألقاب تنطق بروح الثورية كما كان الشأن فى العصر القيصرى الرومانى .

فإذا ماتناولنا الحضارة الغربية أو الافرنكية الحالية أو الفاوستية كما ينعتها شبنجلر (نسبة إلى بطل المأساة الألمانية لجوتيه والذى يرى فيه شبنجلر رمزا لكل الحضارة) وهى التى تقوم الآن فى آخر أدوارها ، فهى الحضارة التى ولدت فى أول العصور الوسطى الأوربية . وما كان عهد الاقطاع إلا شبابها الغض بفروسيته وإلهاماته الفنية والدينية التى انبعثت على أتمها فى طراز فن العمارة القوطى ، ثم فى التصوير الزيتى الذى جلا لأول مرة المنظور والظل والبعد . هى حضارة رمزها كل ما يتصل بالبعد فى المكان والزمن واللانهائى . فالكاتدرائية المرتفعة المحلقة ، والمنافذ الواسعة التى تستوعب أكثر ما يمكن من الضوء والصوت ، والتى تختلف كل الاختلاف عن الصورة اليونانية القديمة فى أنها لاتحدد ولكنها تبين الحواشى والظلام والظلال فى قوة ، ثم رياضياتها

المتصلة بالوظيفة العددية لا العدد فى ذاته وما تطورت عنه فى إبان عزها وازدهارها إلى حساب التفاضل والتكامل ، والامعان فى التوغل صغرا وكبرا إلى مالا يتصوره الذهن . ثم نزعتها التى ترمى إلى ذرع الفضاء ، وتحليق آدابها وفلسفتها فى أجواء لم يألفها الذهن البشرى والتى كشفت التلسكوب والميكروسكوب والذرة والكهيرب الخ ، ثم نظام دولها السياسى الذى لم يقنع بالتهام الكرة الأرضية بل أخذ يفكر فى غزو النجوم والأفلاك ، كل ذلك دليل على نزعتها اللانهائية فى الزمان والمكان . فهى تحس الماضى والمستقبل فى روعة بالغة . وإلى هذه النزعة يعود هذا الاستعمار المتسع الذى تميزت به هذه الحضارة وذلك الانتاج الغزير المنظم الذى يسود الصناعة الأمريكية والأوربية ثم إنها حضارة تاريخية بمعنى الكلمة ، فهى كالمصرية تتطلع إلى المستقبل ، إلى الخلود . إذ تلجأ الى الحجارة لتقوم بمشيداتها ، على حين أن اليونانية كانت عمارتها فى الشباب من خشب . وهنا يبين شبنجلر أن الصينيين كشفوا الطباعة والبارود والمغناطيس ولكنهم لم يقوموا بما قامت به الحضارة الغربية التى استخدمت هذه الكشوف . فكانت فى يد الحضارة الغربية غيرها فى يدها فالروح الغربية التى تنزع إلى البعد الساحق واللانهائية عرفت كيف تستخدم هذه الظواهر فى غزارة الانتاج وفى الأسلحة وفى آليتها استخداما لم يكن ليخطر على بال الحضارة الصينية ، وما ذلك الا لاختلاف الروح ، كذلك الفالهلا موطن الآلهة التيوتينية لم تكن من إنتاج الخيال التيوتونى المبكر قبل بزوغ الحضارة إذ خلت منها الأساطير القوطية والجرمانية وإنما ولدتها الروح الجديدة التى ظهرت فى تربتها وأينعت .

ثم إنها حضارة تتجلى فيها الإرادة بأجلى معناها ، وكفاها أن لهذا اللفظ

فى لغاتها المختلفة معنى لاتؤديه لغة فى حضارة أخرى . فاليونانية كانت تجهل اللفظ جهلا تاما .

ويقول شبنجلر : إن فن هذه الحضارة الأصيل إنما هو الموسيقى لاتصالها بكل ماهو لانهائى . ولتأثر هذه الحضارة بمخلفات الحضارة اليونانية والعربية اقتبست فى شبابها وسائل التعبير من هاتين الحضارتين أى فن العمارة والتصوير ، ولذلك كانت صورها فى القرنين السادس عشر والسابع عشر موسيقى محتبسة لم تتمكن من الانطلاق إلا فى القرن الثامن عشر عند مابلغت الاعجاز فى تصوير المشاعر والطبيعة، ذلك الإعجاز الذى لم يتجل فى عصرها الروحانى الأول وإنما ظهر حينما أخذ العقل يلعب دوره وينجلى ذلك فى أوراتوريات باخ ثم تمثيليات موتزارت وأخيرا فى سيمفونيات بيتهوفن . ويعتبر الأخير خاتمة الموسيقيين العباقرة وأميرهم غير منازع . فهو إنتاج الحضارة الغربية الخالد. وكفى تأييدا لما كشفه شبنجلر من أن الحضارة هى الروح ـ أن بتهوفن ألف خاتمة سيمفونياته وأروع ما أنتجته الموسيقى فى سائر العصور ـ وهى السيمفونية التاسعة ـ وهو فى أتم الصمم . وكل ما أتى به الفن الموسيقى بعد ذلك إنما هو تلفيق لمختلف الأنغام مع خلوه من كل ابتكار والهام حق ، ثم انه يرى معنى عميقا فى صمم بيتهوفن ، عند ما ألف قطعه الأخيرة ـ هو أن الصمم أطلق روحه من آخر عقال لها ، إذ أن السمع والبصر ليسا فى الأكثر إلا معابر للروح .

كذلك كانت فلسفتها وآدابها . فقد نقلت فلسفة اليونان عن طريق العرب ثم عن طريق مباشر ، وهى فى كلا النقلين تقلبها رأسا على عقب طبقا لروحها الخاصة من جهة وطبقا لنزعة الناقل الفردية من جهة أخرى حتى أصبح فى الفلسفة ثلاث صور لأرسطو : اليونانية والعربية والغربية ، وكل صورة منها

جد متباينة عن الأخرى . كذلك كان لأفلاطون وكذلك يكون لكل ما ينقل من حضارة لأخرى .

وتمثل الثورة الفرنسية ختام دور الحضارة وبدء المدنية فيها ، ختام العضوية الاجتماعية والتقاليد والسياسة ، وبدء عصر سلطان المال والانحراف إلى المادية على حساب الروحانية ، ثم يرى بناكيف أن الروح قد استنفدت كل إمكانياتها ولم يعد فيها إلا فلسفة الشكاك ، وشبنجلر نفسه رافع علمها ، وهذه هي المرحلة نفسها التي قام بها في الحضارة العربية الغزالي حجة الاسلام . ويقول شبنجلر إنه لم يعد هناك مجال للفلسفة ، وإن كل جهد يبذل فيها إنما هو جهد مراق إذ أنه يتطلب جذوة نار في الماء ، ولقد خبت نار الحضارة الغربية وهي الآن تبدأ أفولها المحتوم . ويقول عن الفلسفة الحالية إنها الفلسفة اللافلسفية أو فلسفة أساتذة الفلسفة . فالأبحاث الميتافيزيكية (ماوراء الطبيعة) قد ختمت بكانت (Kant) وتلاها عصر الفلسفة الأخلاقية النفعية التي حمل لواءها الإنكليز . ولم يبق إلا عصر الشكاكية التي هي اللافلسفة في الواقع . ولذلك يطعن شبنجلر في كل ألوان الفلسفة النظامية الحالية ويعتبرها زيفا وخداعا . فالفيلسوف الذي يكتب فيها خادع لغيره ، والدارس لها يتظاهر بأنه يتذوق ما يقرأ وهو بذلك يخدع نفسه وغيره . فالقرون الباقية لا تحتمل إلا القوة المادية فحسب ، ولذلك يحث قومه على الاضطلاع بالآليات وما إليها ولكنه طبقا لطبائع تطور الحضارة يترقب توهجا عابرا في صورة « التدين الثاني » الذي سبق بيانه كما حصل في سائر الحضارات ، وهي ظاهرة لا تدوم طويلا وليست إلا محاكاة عابرة للتدين الأول العريق .

ويثبت شبنجلر أن روح هذه الحضارة على وشك النفاد وأنها في دور

الاحتضار إذ تنحدر بسرعة إلى جوالقيصرية المؤدى إلى رتوب الإمبراطورية حيث تمحى الصورة من المجتمع تمام الامحاء .

والخلاصة أنه يرى أن الحضارة الغربية تجوز الآن مرحلة موازية لمرحلة العصر الهيليني فى الحضارة الكلاسيكية ، وهـــو الواقـع فى القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد ، وأنه لا يزال لها حتى نهاية المدنية وقبل حلول رتوب الإمبراطورية من العمر مالا يعدو قرنين ، تستطيع أن تنتج فيهما أمورا جبارة ، ويرى أن الجنس الألمانى لايزال فيه قبس من روح الحضارة بعكس الفرنسيين الذين يكادون يجدبون منها . أى أن الجنس الجرمانى امل هذه الحضارة الباقى .

فهو ينادى قومه فى هذا الكتاب الذى أقدّم له بالتهيؤ للقيام بهذه الرسالة قبل ان يخيم الموت المحتوم على مصير هذه الحضارة العظيمة ، ينادى قومه بأن يحسنوا استغلال الفترة الباقية من حياة حضارتهم بما يتفق مع طبيعتها أى فى الماديات لافى الروحانيات التى اصبحت تكافا . ثم يناديهم بالتيقظ للشعوب الملونة ، ويأخذ على الحضارة الغربية تفريطها فى أسلحتها المادية والمعنوية ، فى أسرار علومها وصناعاتها وبخاصة ما يتصل منها بالحرب والصناعة ، وهو فى موقفه هذا غربى أصيل وصريح لازيف فى عباراته ولاموارية . إنه يعيب على قومه ان رضوا بنهضة اليابان وسائر العناصر الملونة ويخشى ان تنهار الحضارة الغربية بأسرع مما قدر لها بسبب رضا الشعوب الشرقية بمستواها وسلامتها من الأمراض الاجتماعية التى نخرت بها عظامُ المجتمعات الغربية فالأمم الملونة خصم منتصر على طول الخط .

ويؤمن شبنجلر بأن وراء الستار فى الشرق روحانية مستقلة ـ إيمانا قويا يقدر

معه أنه إذا ما طرحت شعوب الشرق والشعوب الملونة الحضارة الغربية أرضا فسوف تخلع كل الأدثرة الغربية وصناعاتها وكل مظاهر مدنيتها وتعود أدراجها إلى حياتها البسيطة الطبعية لأن هذه المظاهر لم تدخل فى صميم الروح الشرقية ، ولم تأخذ بها الأمم الشرقية إلا كسلاح لا كتطبع .

ثم يرى شبنجلر أن هناك حضارة فى دور الولادة هى الروسية وهى حضارة لاتزال فى دور الطفولة أو الدور السابق للشباب ، ولم تكيف بعد . وما القرون الماضية من تاريخ الروسيا والصقالبة إلا العهد السابق للحضارة الذى فيه قبس من الروح المنتظرة .

فبطرس الأكبر وحركة التطهير التى قام بها والمدن التى بناها وعلى رأسها بطرسبرج « لينجراد » إنما هى حركة مصدرها الحضارة الغربية ولا صلة لها بالروسيا التى لا صلة لروحها بالحضارة الغربية . إنها حركة « تشكل كاذب » ولذلك ظلت كل تلك المظاهر التى دامت طوال القرنين الثامن والتاسع عشر ، وتلك الصور المدنية التى اقترضتها من الحضارة الغربية ـ ظلت كلها أجنبية فى الصميم عن روح الشعب الروسى الذى لايزال بعيدا عن المدن الكبرى والحياة المتقدمة فى الحضارة ، ولذلك كانت موسكو وغيرها (قبل التجديد) روسية أكثر من لينجراد ، وما الحركة البلشفية التى شبت عام ١٩١٧ إلا حركة ذات حدين ، فهى شيوعية وروسية . أما الشيوعية فوليدة الماركسية الغربية التى نمت بين متحضرى المدن الروسية وبخاصة لينجراد ذات الصبغة الغربية والتى لاصلة لها بالروح الروسية الأصيلة فى القرى . وأما الروسية الصميمة فوطنها القديم السهل الروسى غير المحدود المتناهى فى اتساعه حيث تهيم الروح الروسية البدائية فى غير استقرار وتنظر إلى المدن نظرة

المؤمن المسيحى فى عصر المسيح إلى المدن الكلاسيكية أمامه فى تقزز ونفور.

فالبولشفكية بدأت فى المدن كشيوعية ، وفى القرية كحركة روسية صميمة وأخيرا انتصرت الحركة الروسية ولكنها أبقت على الصورة الشيوعية لتجعلها سلاحا خارجيا يَبْتَخِرُ به جسمُ ما بقى من الحضارة الغربية عن طريق الدعاية .

هذا هو رأى شبنجلر فى الحضارة الروسية باختصار . كما أنه يرى فيها روحا دينية عميقة بعيدة عن الفكر كل البعد شأن الحضارة فى طفولتها ويبين فى إعجاز أخاذ كيف أن إلحادها هو نفسه إعلان عن هذه الروح الدينية القوية . والخلاصة أن شبنجلر خرج فى كتابه هذا من ميدان الأبحاث النظرية ومجرد العقل الفلسفى والعلمى إلى السياسة العملية الواقعية وتناولها تناول المفكر العميق ، وقد جمع إلى سعة العلم والإلهام أصالة الرأى وخشونة الصراحة والنزاهة فى الحكم ، فشق فى ذلك سبيلا جديدا كل الجدة . وهو إن كان قد كتب ما كتب فى عام ١٩٣٣ أى قبل الحرب الأخيرة إلا أن الصور والأحكام التى يقدمها لاتزال حية ومطابقة إلى أكبر حد للصور والأحكام الراهنة فضلا عن أن نظريته وتقديراته بلغت من الدقة والروعة ما لايسمح بالمزيد .

ولقد تأثر به رهط كبير من محدثى المتفلسفين وتلاعبوا بكشوفه وأحكامه . ولكن واحدا منهم لم يوفق إلى المساس بأسس مذهبه قط كالطود الراسخ . لقد تحذلق الكثير منهم ولكنهم لم ينتجوا جديدا . ولقد اطلعت أخيرا على كتاب لأحدهم وهو شوبارت (Walter Schubart) واسمه « أوربا وروح الشرق » (Europa und die Seele des Ostens) ولم أجدفيه برغم حلاوة بيانه إلا سخفا فى الجوهر إذ يحاول أن يلجم الروح الشرقية بالغربية

ويرى فى ذلك الأمل الأوحد لإنقاذ الحضاره الغربية الآفلة .

والآن وقد فرغت من هذه التقدمة ومن عرض هذا التلخيص لمذهب الرجل من جهة نظرة الألمانية البروسية ، لا أقف عند ذلك بل ينادينى واجب الأمانة أن أعرض الموقف بالنسبة لمصر من وجهة نظر قومية محضة مستضيئا بالأسس العامة لمذهب شبنجلر مع بعض الخلافات التى لامناص منها :ـ

النظرة المصرية :ـ

يفيض تيه مشكلاتنا فى سلسلة طويلة من الارتجالات والترقيعات فى البحوث والحلول التى كان من شأنها ازدياد تعقدها لاتكاثرها فحسب وما ذلك إلا لأن النظرة الشاملة وبخاصة فيما يتصل بالروح لم تتأت لنا بعد . فالتوجه يسير سيرا مضطربا يدفع التافه الغث إلى التمتع بأهمية فوق ماينبغى له بكثير ، فاحتكر لوحة المشكلات والنشاط الإصلاحى أمورٌ ثانوية على حساب النواحى الهامة التى لم تظفر بما يجب لها من عناية كما أن نواحى الأدب والفن تتملق الجماهير بدل أن تقودها ، وترفع مستواها .

على حين أن الايمان وهو أهم عنصر فى كل إنتاج فكرى قبل أن يعمر بحثا أو عملا . وقد زخرت السوق بأحمال من الانتاجات الفكرية والفنية والتنظيمات الادارية تاه بين أكداسها كل قيم ولم توجد بعد القيادة الفكرية التى تحسن التوجيه والارشاد .

لذلك وجب أمام ما أحدثته هذه الارتجالات وأمام التنظيمات التى انحصرت فى ترقيعات سارت فى غير هدى روحى قرنا ونصف قرن من الزمان بل أمام ضرورة فهم الموقف على حقيقته ورد كل مشكلة إلى أصولها ـ وجب

أن نتخطى فى البحث هذه الحقبة المشحونة بما نسميه تجديدا وأن نعود أدراجنا إلى يوم حلت الحملة الفرنسية فى مصر وهى ماتعارفنا على اعتباره طليعة التجديد .

ولا أقر ما وصل إليه شبنجلر من أنه بعد الدورة الحضارية يخلو المجتمع من كل روح فإن السليقة والواقع لا يستطيعان أن يزدردا هذه الدعوى . فالصين والهند ومصر وسائر بلاد الشرق الأدنى وبلاد المغرب والرقعة العربية مهما يحل بها من النوازل ومهما تكن الحياة فيها خامدة فى كثير من أركانها - لاتزال تضم روحها القديمة التى تتوهج كوميض النار تحت الرماد ، مافى ذلك من شك .

فما حدث فى مصر منذ الحملة الفرنسية وفى ضوء مذهب شبنجلر - أن المدنية الغربية وهى آخذة فى الجدب الروحى برغم جبروتها المادى قد غزت رقعتنا التى كنت فيها بقايا مدنية هرمة ، لقد كانت الحياة المصرية تسير هادئة خاملة فصدمتها هذه الحضارة الغربية وهى فى مرحلتها المادية القاسية .

لذلك لم تكن نزعة المحافظة والرجعية التى شوهدت فى بعض البلدان الشرقية أمام هذا الغزو - على مافيها من ضعف مادى - إلا مقاومة بريئة من روح كامنة أمام غزوة جديدة ذات روح غريبة . ولقد ضللت البحث التاريخى قوةُ المادية الغربية وطغيانها وأعمته عن غرابة الروح الغازية التى ظلت بعيدة عن روحنا . وتفسر هذه الظاهرة تلك الحركات التى بدأت بحركة إمبابه بين المماليك والفرنسيين ثم بالثورة القاهرية فى أثناء الحملة الفرنسية واستمرت تهب بين حين وآخر ، ومنها حركة عباس الأول فى مواقف يسجلها التاريخ كحركات رجعية ولم تظفر بدراسة حقة وإنها لجديرة بكل عناية فقد

كانت في صميمها حركة روحية .

فمصر بنقلها نظام الدولة الفرنسية نقلا آليا وانتهالها الثقافة الفرنسية في غير توجيه قد صدمت في روحها الشرقيه ، ولذلك لم يتغلغل إلى الآن في قرارة النفس المصرية هذا التجديد الدخيل . فالعرف لايزال متحكما في القرية ، العرف بعاداته القديمة وتقاليده القديمة التي تتجاهل القانون الدخيل والنظام الدخيل والروح الدخيلة . فموقف شيخ البلد أمام الموظف الذي يحمل في جعبته شتى الأوامر والتعليمات إنما تمليه روح وليدة لمئات وآلاف من السنين فليس هينا عليه أن يزدرد هذه التنظيمات المتنافرة مع روحه . فهو ومن معه من عامة القرية في حيلهم السليقية التي يوفقون فيها بين الاتباع الشكلي لما تصدره الحكومة من تعليمات وبين الواقع المتفق مع العرف إنما يقومون بحركة مقاومة ماهرة لكل جديد .

وليس من المبالغة ولا من التشويه للحقيقة إن قلت إن سر عدم التوفيق في تطبيق القوانين واللوائح هو في هذه الحقيقة بالذات ، حقيقة اصطدامها بمجتمع غريب عنها في أصله . نعم إن الواقع أن الدستور والقوانين وسائر الأنظمة الوضعية في مصر لاتطبق إلا شكلا وأن جل الجهود التي يبذلها الأفراد من جهة والحكومة من جهة أخرى ما هي إلا حرب طاحنة بين السعي في التنفيذ من جهة وفي تحامي التنفيذ لهذه القوانين والتنظيمات من جهة أخري .

لقد أقحمت الأنظمة الجديدة دون أن تبني على أساس القديم والتاريخ ويجب أن تولد الأنظمة لا أن تفرض فرضا فان شر ألوان التجديد النقل الأعمى في الأنظمة التي ولدها تاريخ بلاد أخري أي حوادثها وظروفها الخاصة بها لا في أجيال بل في قرون وكل ذلك بروح متباينة في الصميم عن روحنا .

يضاف إلي هذا أن هذه الحضارة الدخيلة في مرحلتها المدنية الأخيرة ـ قد أصابها وهن الهرم الروحي وأفرغت كل سام فيها وأصبحت مشحونة بمشكلاتها

الحادة فى ذاتها ، فكان إعنات الصدمة لروحنا مزدوجا ، مكثفا معقدا إذ لم يقتصر الأمر على صدام روحين مختلفتين ، بل إن الغزوة فى ذاتها مفعمة بجراثيم فتاكة لاعهد للمصدوم بها .

نعم إن الثقافة الغربية قد أصبحت مريضة حقا لأنها تتكلف وتتصنع ولا تصدق التعبير . فالمثل السخيفة التى تزخر بها لم تجد فيها مرتعا خصبا إلا لأن المجتمع الغربى قد أقفر من العطف الذى يكمن فى الروح الشرقية السليمة . إن الزكاة الإسلامية ستظل صخرة تتحطم عليها كل هذه المثاليات مهما تحاول الإفلات إلى مجتمعنا .

إن المذاهب المتطرفة التى طغت على المجتمع الغربى ، وسوف تقوض بنيانه تنذرنا بسوء المصير إن لم نستمسك بروحنا وعاداتنا وتقاليدنا الصميمة .

إن خاصتنا الذين جرفتهم المادة فأخذوا يبيعون أنفسهم لمقاعد حقيرة على منضدة المال المتجسم فى مختلف المؤسسات المالية إنما يجرمون فى بيع أنفسهم للشيطان الغربى . إنهم يعبون من الثروة ، والأمة تشهد نهمهم غير غافلة فتملكها الحسرة على انزلاق صفوتها إلى هذه الهوة وكان الأجمل بهم أن يضربوا المثل فى نكران الذات وخدمة المجتمع بوحى الضمير لا صرامة القانون الذى يتحيل أكثرهم للهرب من أوامره بحيل شتى .

إن مظهر القومية الحقة هو التضحية ، والانسان حيوان قبل كل شىء . وإن التاريخ كما يقول شبنجلر لا يعرف العاطفة ولا يقوم إلا حول الحرب وحدها .

نعم قد غزتنا هذه الحضارة وهى فى كهولتها بعد أن أجدبت من فلسفتها وفنونها وعقيدتها واستعاضت من ذلك الفقر الروحى قوة فى ماديتها ، فى سلطانها

واستعمارها ، فى جحافلها وأساطيلها وسائر أسلحتها الفتاكة ، وفى قوتها الاقتصادية التى عبأت فى سبيلها كل ماليها من علم . وأصبحت فلسفتها طبقا لذلك اقتصادية نفعية يبرأ منها السمو وينبو عنها الجلال . ولفقرها الروحى زخرت بالمشكلات السياسية والاجتماعية بعد أن سيطرت عليها الصناعة والمال ، فتمخض ذلك عن مذاهب ثورية عاصفة تنزع إلى التطرف وتجعل الحياة فى الغرب معركة مستمرة لايفترق سلمها عن حربها إلا فى لون الحرب لا فى جوهرها .

صدمت هذه الحضارة العارية من كل عطف ووجدان بقوانينها المادية ونظامها المادى وسلطانها المادى ـ روحنا المباينة لها كل التباين فكان ذلك أساس كل مشكلاتنا .

وأخيرا ـ وهنا الطامة ـ أخذت هذه الغزوة تتصل بالروح الشرقية المصرية وذلك عن طريق التعليم الأجنبى والدعاية الأجنبية ، وافترست قبل كل شىء شطرا كبيرا من الخاصة المصرية وعلى رأسها المرأة أو الأم ، وهذه الخاصة هى الشطر الموجه لمصاير الدولة والأمة . فكان لهذه الغزوة الخطر كل الخطر ، إذ كانت وطأتها أشد من الاستعمار والاستغلال المادى ، فلقد صرعت الروح لا المادة .

هى غزوة فى اللهو والجد ، غزوة قانون لا صلة له بعرفنا وعاداتنا ، غزوة أدب وفن وفلسفة تمر على قلوبنا باردة ، كل آثارها تشويه سليقتنا وتفكيرنا .

وهكذا لم يقم على حراسة التجديد حارس أمين مؤمن بشرقيته ومصريته . فالتربية فى المدرسة وغير المدرسة تشقى من هذا الاضطراب ، والمجتمع

مصاب بوباء المُثُل والمذاهب الاجتماعية الجديدة التى تمخض عنها المجتمع الغربى المريض ، واقتحمت طائفة من الأمراض الاجتماعية بلادنا ، جاعلة من العامل سلعة من السلع ترتفع قيمتها وتنخفض كسائر العروض ، ومن الأب والابن شخصين لايربطها أمام القانون إلا مايربط فردين عاديين كما زال عطف الرئيس على المرءوس، والغنى على الفقير وانفصمت عرا الأسرة فانحل المجتمع المصرى .

وتعطينا القرية والمدينة أمثلة من ذلك إذ أخذت المعالم الأصيلة الشرقية المصرية فى الزوال لافى التُطرز والماديات بل تجاوزتهما إلى المعنويات فاختفى من الصورة سيد القرية العريق الذى لم يكن يربطه بقريته وأجرائه عقد ولا مال ، وإنما دم وأرض ، فكان من أهله وذويه الإمام العطوف والأب الشفيق يقاسمهم أفراحهم وأتراحهم ، وظهر فى اللوحة المالك العصرى الذى لايربطه بما يملك إلا محض الاستغلال الذى يدعمه القانون الدخيل ، هذا القانون الذى يتجاهل أن فى الأرض حياة بشرية واجتماعية ـ لا مجرد حقوق تقدر بالمال ، لقد أصبح هم المالك أن تنزف القرية وأن تجوع وتعرى ليرتع بعيدا عنها فيما اغتصبته منها قسوته وجموده ، كما اختفى سيد المدينة الذى كان يؤدى الزكاة بقلبه ويده ويتعامل فى تجارته باللسان لابالصكوك ، والذى كان منزله عامرا بألوان الكرم الشرقى السليم والفن العربى والمصرى الصميم ، كما اختفى الصانع من حانوته الصغير الذى كان يُخرج التحفة فكأنما هو فى صنعها وصقلها يذيب نفسه ووجدانه ، فتذوب لها من الناحية التقديرية نفوس الخاصة لا مالهم فحسب .

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل إن كثيرا من التقاليد ـ والتقاليد مُمسكة

المجتمع ـ قد اختفت وذهبت روعـــة الأعياد وحلاوتها كما فقدت الحشمة الطاهرة التى كانت تصون السيدة الشرقية فى جمالها وفتنتها وأنوثتها الكاملة وتبدل الفن إلى تبذل وتلفيق فانحطت الأغانى إلى تخنث والصور إلى خلاعة وعرى دنس ، والأفلام ، إلى مثيرات للشهوات

وهكذا كان من شأن هذه الصدمة أن جمعت حياتنا ضعف الشرق والغرب وتعرت من عظمة الشرق والغرب ، فزال من حياتنا عنصر الجمال الروحى وحل محله الكم وعبادة المال الذى استحال من وسيلة فى الحياة إلى غاية .

نعم لقد طغت عبادة المادة على كل ذى قيمة حتى أصبح المال والمتاع والرفاهية غاية الغايات . وبانهيار الفوارق والحدود الطبيعية تملك النفوس الجامحة نحو المادة نهم بالغ إلى الاستزادة منها فضربت صفحا عن كل اعتبار فى سبيل الاستزادة من هذه المادة . وتجد هذه الظاهرة مستحوذة على المالى والعامل وهى ظاهرة شقى بها ذوو النفوس العظيمة وجعلت حياتهم جحيما فحُرم المجتمع أصالتهم وعبقريتهم لينعم بخيره أولئك الذين طفوا على سطحه لخفة وزنهم .

ضاعت قيم المعنويات فأصبح الواجب هزءا وسخرية ، على حين أضحى الاستغلال والخسة والدناءة مُثُلا عليا يتفاهم عليها الناس دون أن يصرحوا بها

ولكن المادة الغازية لاتستطيع أن تنال من الروح فكل منهما فى واد ويجب ألا نحترم فى هذه المدنية سوى قوتها المادية بعد أن تتحصن فى داخل روحنا بمناعة مصرية مستندة إلى تاريخنا وقوميتنا ولاشك أن روح مصر والشرق ستظهر حتما ذات روعة على مسرح التاريخ ولكن فى ثوب جديد إذ قد أخذ الغرب يحس فقره الروحى فمضى يتجه اتجاهات جديدة ليس مذهب

شبنجلر وتلاميذه إلا أحدها بل إن كل خير إنسانى في المرحلة الحالية للحضارة الغربية إنما مصدره تعاليم الدين المسيحى الذي اعتنقته بعد أن نبت فى الشرق .

فكما تولد ضعفنا من جميع نواحى الضعف فى الحضارتين يتعين لنهضتنا أن نجعل غايتنا جمع عناصر القوة فى كلمتين : الروح المصرية الشرقية من جهة والعلم والصناعة الغربية من جهة أخرى.

فالمدنية الغربية الآن قوية فى مادتها ، فى آليتها وماليتها ، فى نظامها وأسلحتها وإذا تركنا جانبا ميدان المادة فانها تستمتع بخصال نفسية متصلة بروحها الحضارية القديمة ومرحلتها الماديه الحالية ذلك أنها تستمتع بقوة الارادة والمثابرة في بلوغ الهدف والاذعان فى التنظيم التعاونى الذى يدفع بالانتاج إلي الكمال كما أن الروح المصرية لها طابعها الخاص فى عاداتها وتقاليدها ، في جمالها ولغتها وأدبها فلنأخذ عن الأولي كلما استطعنا من وسائل القوة المادية ولنقتبس منها تلك الفاعلية الجبارة والنفعية الاجتماعية ، لنأخذ عنها كيف يزيد التضامن في قوة الفرد وكيف نسيطر على الزمان والمكان وكيف نستفيد من هذه المرحلة التى تعبرها المدنية الغربية الغازية فننتزع منها سر نجاحها ولن يتأتى ذلك إلا عن طريق تربية خلقية للروح لا للفكر أي عن طريق التهذيب الصحيح الذى ميدانه الحياة بأجمعها لا المدرسة فحسب

إن شر ألوان التجديد كما سبق أن بينت ـ النقل الأعمى عن البلاد الأخرى فدستورنا البلجيكى وقانوننا الفرنسى ونظامنا التعليمى وما تولد عن ذلك كله فى نهضتنا ، فى حاجة ملحة إلي النظر فيه فى ضوء هذا المذهب الجديد ، علينا أن نحترم الزمن والتقاليد والروح وليس معنى ذلك الاتئاد والتمهل في عصر السرعة وإنما البناء الرصين على أساس سليم وما أسهل ذلك إذا خلصت النية وكان رائدنا وطنية حقة فعالة ، فلابد من أن يؤمن الصفوة والقادة بأن الروح فوق

المادة وأن المادة والثروة والرخاء بل الهناء فى ذاته لايجب أن تكون أهدافا فذلك مايلوث نقاء الروح الإنسانية ، ويجب أن يعطى هؤلاء الصفوة خير المثل لمن حولهم ، وعلى رأس الفضائل التى تعوزنا وتعوز خاصتنا قبل كل شىء ـ الفناء فى الواجب ، وفى الواجب فحسب . فمن أعراض الفساد الشائعة أن يقصر الفرد جهوده على حقوقه ناسيا أن هناك واجبات ، وأن هناك مبادلة اجتماعية بين الحقوق والواجبات .

اللهم إن كان فى هذا المذهب الأخلاقى الألمانى سوء فإن مما يكفيه خيرا أنه يحث على جعل الواجب غاية من الحياة ، وألا يرهب الإنسان التضحية بل يرحب بها كل الترحيب مادامت فى سبيل الواجب لذاته ، ويقول شبنجلر : إن الحياة هى المأساة وهى الحرب فى صورة الموت ينتظر المحارب كل ثانية . أما السعادة فهى شر مايهدف اليه الانسان ، إنها الانحطاط ولكن كم من الناس يدركون ذلك ؟ .

يجب أن تسود الجندية المثالية وروح الجهاد الصادق كل نواحى المجتمع وبخاصة الحكم . فعلى كل موظف وعلى الكبير منهم قبل الصغير أن يضرب الأمثلة فى فعله لا فى قوله ، فى تصرفه لا فى تعليماته ـ على تضحية بارزة بكل عزيز فى سبيل ماوكل إليه من مهمة .

إن الاشتعال الذى سرت ناره أخيرا فى حاجة إلى حراسة حقة وإن الحماسة والغيرة اللتين غمرتا الشرق بعامة ومصر بخاصة لتتطلبان توجيها عامرا بالإيمان فى هدى نظرة شاملة عميقة .

إنا نسمع كل يوم بإنشاء محاكم جديدة ومستشفيات جديدة وازدياد فى عدد رجال الشرطة . نسجل كل حين إدارات جديدة ووظائف جديدة

هذا حسن . ولكنه دليل على ظاهرة غير سارة ، إن دور القضاء لاتكثر إلا حيث يزداد الإجرام والمشاحنات . والمستشفيات مع مافيها من خير مقطوع به عنوان الأمراض . وكثرة رجال الأمن وهيئاته دليل على ضعف النظام العام ، فهذه المرافق على أهميتها يجب أن تقبع وتنكمش فى المجتمعات السليمة فى أضيق حدودها كما فى بلاد سكانديناوة حيث لاتظفر بعض المحاكم بقضية واحدة فى العام !

نعم هناك مرافق أصيلة إيجابية ، ومرافق أدعوها بالترقيعية . وما المرافق التى ذكرت إلا من النوع الترقيعى . أما المرافق الأصيلة الإنشائية فعلى رأسها التعليم والتربية الحقة واخص منها التربية الخلقية بالمعنى الحديث التى تهدف إلى تخريج مصرى متين فى شخصيته ووطنيته ، يؤمن بالواجب القومى قبل النفع الذاتى ، ويرحب بالتضحية قبل الكسب . فالتربية إذا حظيت بتقدير ها الحق وجب ان تسيطر على كل مهام الدولة وان يجعل لها اوفر نصيب فى مواردها ولكن فى توجيه قومى سليم مدروس فى عناية . ولو كانت التربية الخلقية متوفرة منذ بعيد ما لعبت الشهوات برءوس الخاصة وهم صفوة الأمة .

نعم إن التربية الحقة إذا عمت وسادت خفت بها حدة الأمراض الجسمانية وارتفع المستوى الصحى والخلقى وقبعت مرافق القضاء والعلاج والمحافظة على الأمن والبروقراطية الحكومية فى اضيق حيز .

يجب ان يكون قوام الحكومة عنصرين لا يعلوهما فى الأهمية شىء آخر : المربى الصحيح والجندى السليم ، المربى الذى ينشىء المصرى المضحى . المصرى المجاهد ، الجندى ، فالتربية يجب ان تتزعم ، ويجب ان يقوم بها رجال مؤمنون

بأن فى أعناقهم مصير البلاد لا إعداد الملايين للشهادة والوظيفة ولا الغنى والرفاهية فحسب . يجب أن يكون هدف التربية الأوحد عشق الواجب ، الواجب لذاته ، الواجب بمرارته قبل حلاوته ، الواجب فى سبيل الله والوطن والملك .

لقد أهاب شبنجلر بقومه قائلا : إن عصر الكلام قد دالت دولته . وإن عصر الفعال قد حل واستيقظ من غفوته . إن البهيمية الإنسانية تسترد مكانتها فى قوة فلا تزال الحروب لغة التاريخ الوحيدة ، وعلينا ألا تخدعنا حلاوة التصريحات فنثق ببهرج النصوص فى المعاهدات والاتفاقات . إن هذه القوة لاتفلها إلا القوة . فعلينا أن نفيد من آراء شبنجلر وصراحته ، وأن نأخذ بسبيل الفعال لا الأقوال . أن نأخذ فى تنشئة الفعالين قبل القوالين . إن هذا العصر لايتسع للمتفلسف والمتحذلق . إنه عصر الأفعال الجبارة ، عصر الانتاج والقوة ، فعلينا أن ندرك ذلك وأن نقيم مصيرنا على هذا الأساس .

إن الغرب ليهوى وإن الشرق ليرتفع من جديد . لقد آن أوان الزعامة الحقة ، الزعامة الروحية التى تضرب المثل فى التضحية لا النفعية . لقد أخذت المدنية الغربية تحفر قبرها بيدها ، وبدأت المدنية الشرقية تتحرر من كابوس نيرها لا على أصوات المدافع وصليل السيوف بل على قيثارة هادئة تناجيها من أعماق الماضى الشرقى البعيد بأنغام قديمة كلها حنان ورفق . فرأينا منذ عقدين من السنين العظمة الغربية فى عواصم اوربة وامريكا تكلل بالغار جبين تاغور شاعر الهند وفيلسوفها فى جلبابه الفياض ووقاره ، وتكرم فيه عظمتها الروحية ، اى تمجده فى عقر دارها ، وسمعنا بالموانى وهى تزخر ، والطرق وهى تفيض بجيوش حافلة اوربية لتحظى بنظرة من غاندى العارى الذى غزا اوربة بعظمة

نفسه المطمئنة الوادعة وإيمانه الراسخ المتين .

وإنى لأتساءل ـ ونحن نستشرف لنهضة الشرق المرموقة ـ أمن الممكن أن يكتسب المعدل الزمنى للتطور فى المراحل الحضارية السالفة فى هذه المرحلة الحالية من الحضارة الغربية التى تجلت فيها ظاهرة السرعة الآلية ـ حظا من هذه السرعة يؤثر فى المدى الذى حدده شبنجلر ، فتتخذ التغيرات التى تصيب الحضارة فى هذا العهد وما يليه من عهود مدى أقصر مما اتخذته الحضارات السالفة ، إنى لأتساءل : أمن الممكن أن يكون ذلك ، أم أن معدل السرعة فى ذاته أمر مادى لا شأن له بالتطور الروحى ، وأن هذه السرعة الذرية لن تنال من الظواهر الروحية أى منال ؟

هذه مسألة ليس من السهل أن نصل فيها إلى إجابة شافية . فندعها إلى ماكنا فيه من الحديث عن تباشير نهضة الشرق ليستعيد أمجاده فى مستقبل زاهر . ويحضرنى الآن ماذكره لى صديقى العزيز الدكتور على بك رشدى ببنى سويف من أن مجلسا فى مونيخ ضمه وجمعا من الشرقيين أكثرهم مصريون وهم يومئذ مابين طالب ، ومضطهد سياسى ، وحدث أن دخل مجلسهم شبنجلر فنظر إلى زميله وأشار إلى ذلك الجمع الشرقى قائلا : هنا المستقبل .

وأخيرا أقول حذار أن تخدعنا المظاهر ويحرفنا التقليد ، يجب أن نديم الحراسة على شعلتنا الروحية القومية ، وألا نسلم فى قبس منها . إن ثروتنا الآن تكمن فى هذه الذخيرة الروحية ، وعلينا أن نبنى لها الهيكل الملائم من قوة ومادة .

فإذا ماأدرك كل زعيم وكل كبير ان الغاية هى الجهاد والتضحية فى سبيل الواجب لغيره وبلاده ومليكه فإن عصرا سعيدا سيبزغ حتما وستنال البلاد

كل خير بإذن الله .

إن الحوادث ينطلق شررها فى اتصال لايكاد ينقطع ، وفى كثرة وقوة وتوهج ومفاجأة ، وقد آن أن نتخذ من الأهبة ما توجبه هذه المباغتات السحرية القوية .

وإنى لأتفاءل بهذه الهبّة التى غشيت مصر والشرق العربى والإسلامى وتغلغلت فيهما أخيرا ، إذ أرى فيها انقلابا أساسيا يمليه القدر ، أرجو أن يثمر وأن يينع ، ففى مصر والشرق ذخيرة روحية حرام أن نهدرها فى التافه من الأمور ، ولزام علينا أن نحسن توجيهها واستثمارها . وعلى الله قصد السبيل ؟

على حسن الراكع

المنصورة فى نوفمبر سنة ١٩٤٨

obeikandl.com

مقدمة المؤلف

لقد كنت أكثر الناس تلهفا على الانقلاب الذى تم هذا العام (١٩٣٣) بتولى النازية الحكم فى ألمانيا ، فإنى مقت الثورة القذرة فى سنة ١٩١٨ لأول يوم من أيامها ، إذ لم تكن إلا خيانة أحد شطرى الشعب للشطر الآخر ، خيانة الشطر الضعيف للشطر القوى السليم ، الذى نهض عام ١٩١٤ لبناء المستقبل الذى يريده ، وكل ما كتبته فى السياسة منذ ذلك الوقت كان موجها ضد القوى التى كانت قد تعاونت مع أعدائنا على إقامة صرح شقائنا وبؤسنا بغية القضاء على كل أمل لنا فى المستقبل ، ولذلك كان كل سطر مما خطته يدى يرمى إلى إسقاط تلك القوى ، وأرجو أن يكون ذلك قد تم ، فلا بد من حصول أمر ما - وعلى صورة من الصور لتحرير الغرائز الكامنة فى دمائنا من وطأة ما ترزح تحته ، حتى نستطيع أن نساهم فى حوادث الأحداث المقبلة فى العالم . وحتى لا نكون محض فريسة ، فالمسرحية الكبرى للسياسة العالمية لم تتم فصولها بعد ، بل إن وقائعها الكبرى على وشك أن يرفع عنها الستار ، وليس أمام أى شعب من الشعوب القائمة إلا أحد أمرين لا ثالث لهما : العظمة أو الفناء ، وحوادث هذا العام تبعث فينا الأمل بأن هذه القضية لم يفصل فيها بعد بالنسبة لنا . ويوحى بأننا سنعود يوما إلى مركز « الفاعلية »

فى التاريخ كما كانت الحال فى عهد بسمارك - ولن نبقى موضوعا فيه فقط .

إن هذه الفترة التى نعيش فيها فترة من الزمن جبارة رهيبة لا رغد فيها ولا هناء ، فالعظمة والسعادة شيئان متباينان ، وليس لنا أن نختار بينهما ، فليس الهناء من نصيب أى إنسان يعيش فى عصرنا الراهن ، ولكن كثيرا من الناس يستطيعون أن يتجهوا بمحض إرادتهم إحدى وجهتين : إما إلى القمة ، وإما إلى الحضيض . أما من ينشد الرغد فحسب فإنه لا يستحق أن يكون من أبناء هذا العصر .

والغالب على كل من مارس عملا ألا تمتد نظرته بعيدا لأنه يساق مدفوعا إليه من دون معرفة الهدف الحقيقى ، وربما يكون من المحتمل أن يقاوم لو اطلع عليه ، فمنطق القدر لا يأبه لرغبات البشر ، والذى يحدث غالبا هو أنه يضل السبيل لأنه بنى حول نفسه وفى داخلها صورة زائفة للأمور . ولذلك كانت المهمة العظمى للمؤرخ المحقق ، أن يتفهم الوقائع والأحداث فى عصره ثم يستلهمها ويفسر ويصور المستقبل الذى لا بد أن يقع اردناه او لم نرده ، وإن عصرا كهذا العصر لا يمكن ان يتهيأ له الوعى الكامل من دون النقد المستشف المُنْذِر الموجه .

لن انحى باللائمة على احد ، ولن اداهن ، بل إنى لأمتنع عن الحكم على ماهية حقيقة الأمور الوشيكة الوقوع ، فالحق انه لا يستطاع تقدير اى حادث إلا بعد ان ينحدر إلى الماضى البعيد ، وبعد ان تتحول الوان النجاح وضروب الفشل إلى وقائع . فلم يكن من المستطاع ان يفهم « نابليون » خير الفهم قبل اواخر القرن الماضى ، وإلى الآن لا نستطيع ان ندلى بحكم قاطع على « بسمارك » فالوقائع الفعلية هى التى تثبت ، اما الأحكام فهى قابلة للتبدل والتغير .

وأخيرا أقول : إن المعاصرين للحوادث الهامة لايجوز لهم أن يتعرضوا لتقدير الحكم عليها ، إذ أن ذلك سيكون من شأن التاريخ ، بعد أن يكون كل من ساهم فيها قد قضى نحبه .

ومع ذلك فيجب أن أصرح اليوم أن الانقلاب القومى فى عام ١٩٣٣ كان أمرا جبارا ، وسيظل كذلك فى نظر المستقبل ، وذلك بفضل الطريقة التى تم بها من حيث القوة التى جمعت بين البساطة والإعجاز ، ومن حيث النظام الروحى الذى تم به ، فقد كان ذلك الانقلاب بروسيا صميما كثورة عام ١٩١٤ التى بدلت النفوس فى لمحة ، فلقد نهض الحالمون من الألمان فى هدوء وبداهة أخاذة ، وشقوا طريقهم إلى المستقبل ، وهذا الاعتبار نفسه يقتضى أن يدرك المساهمون فى هذا الانقلاب بوضوح أنه لم يكن انتصارا إذ لم تكن ثمة خصومة ، فقد اختفى فى الحال أمام قوة الثورة كل ما كان قائما إذ ذاك أو لايزال يلعب دوره ، وكل ما كان فى هذا الانقلاب إنما هو الأمل فى انتصارات مقبلة يجب انتزاعها فى معارك حامية الوطيس ، وإعداد الساحة لخوض غمارها . وقد حمل الزعماء التبعة كاملة على كواهلهم . وعليهم أن يعلموا أو يتعلموا معنى هذه التبعة ، فهى مهمة مليئة بأخطار جسيمة لاتقوم فى داخل المانيا ، وإنما تقوم فى خارجها ، فى عالم الحروب والكوارث ، حيث تكون السياسة العليا صاحبة القول الفصل ، فإن ألمانيا من حيث مصايرها أكثر تشابكا مع سائر البلدان من أى بلد آخر ، فهى أقل البلدان قبولا للحياة فى عزلة ، وفضلا عن ذلك فإن ألمانيا لم تكن موطنا لأول ثورة قومية ـ فقد سبق بمثلها « كروميل » ، « ومرابو » ـ ولكنها الثورة الأولى التى تقع فى بلد خائر القوى وفى وضع فى منتهى الخطورة مما يزيد

وطأة الأعباء إلا حد لانهاية له ، هذه الأعباء التى ظهرت وأدركت وقاربت أن تفهم ، ولكنها لم تحل بعد . وإذاً فليس الوقت وقت النشوة وزهوة النصر ، والويل لأولئك الذين يخلطون بين التعبئة والنصر .

نعم ، إن هناك حركة قد بدأت ، ولكنها لم تبلغ هدفا ما ، فهى لم تؤثر فى المسائل والأحوال القائمة ، وهى المسائل التى لاتخص ألمانيا وحدها وإنما تعم العالم أجمع ، كما أنها لاتخص هذه السنين فحسب ، وإنما تشمل قرنا من الزمان .

إن خطر المتحمسين قائم فى نظرتهم إلى الموقف فى كثير من البساطة وإن الحماس لايستقيم مع الأغراض التى تمتد إلى أجيال مقبلة ، والتى من دونها لاتبدأ المواقف الحاسمة فى التاريخ .

لقد تم هذا الانقلاب فى عاصفة جمعت بين القوة والضعف ، وإنى لألاحظ فى قلق دوام التصفيق لهذا الانقلاب ، وكان الأجدر أن يدخر هذا التصفيق لأيام نجاح حاسم حق ، أى فى السياسة الخارجية دون سواها ، فإذا ما فزنا يوما بهذه الانتصارات يكون الزمان قد عفّى على رجال اليوم الذين خطوا الخطوة الأولى وجر عليهم ذيول النسيان ، حتى يأتى جيل جديد يذكرهم ويعرف قدرهم ، فإن التاريخ لايعرف العاطفة ، وويل لمن يتأثر بها ، وإنه ليكمن فى كل تطور له مثل هذه البداية كثير من الممكنات التى قبل أن يشعر بها مقارفوها تمام الشعور ، فلقد تتحجر هذه التطورات فى مبادىء ونظريات ، أو تنحدر إلى فوضى سياسية اجتماعية اقتصادية ، أو ترتد عقيمة إلى بدايتها ، كما أحس الناس بوضوح فى باريس عام ١٧٩٣ عند ما كان القوم يتمنون أى تغيير ، فنشوة الأيام الأولى التى كثيرا ماتقضى على الاحتمالات التالية يتلوها عادة اليقظة وعدم الاطمئنان إلى الخطوة التالية ، إذ تبلغ السلطة عناصر ترى

فى الاستمتاع بها غاية ونتيجة ، متمنية ومحاولة أن يدوم هذا الوضع إلى الأبد مع أنه لايحتمل غير لحظات . ثم إن الأفكار الحقة قد تؤدى بالمتعصبين لها إلى الغلو حتى تصل إلى نكران الذات ، فما يبدأ منبئا بالعظمة قد ينتهى إلى المأساة أو المهزلة ، ولذلك ينبغى مجابهة الأخطار قبل فوات الأوان فى رضا وقناعة حتى نكون أحصف من كثير من الأجيال السابقة .

فإذا كان لابد من بناء أساس ثابت لمستقبل عظيم تبنى عليه الأجيال المقبلة فلن يتأتى ذلك من دون مثابرة على فعل ماتقضى به التقاليد القديمة ، وما من شىء يطمئن على استقرار المستقبل غير مايجرى فى عروقنا من دماء آبائنا ، وهى أفكار من غير ألفاظ ، وما يهم هو ما نحتشه من سنين « بالبروسية » وقد أمكنه الثبات فعلا ، على النقيض من أى لون من ألوان الاشتراكية .

نحن فى حاجة إلى تهذيب لبلوغ تلك الروح البروسية التى كانت فى عامى ١٨٧٠ ـ ١٩١٤ وهى الروح الراقدة فى أعماق نفوسنا كحقيقة ثابتة . ولن يتأتى ذلك إلا بالقدوة الحية ، وبطبقة مسيطرة ضابطة لنفسها بحكم العادة لابكثرة الألفاظ ولا بقوة الإرغام . فعلى المرء ان يحكم نفسه ليتمكن من تلبية الفكرة وان يكون متأهبا للتضحية العميقة عن اقتناع ، أما من يخلط بين هذا والضغط الفكرى للبرنامج فهو لايدرى من الأمر شيئا .

لذا أعود إلى كتابى الذى كتبته عام ١٩١٩ « البروسية والاشتراكية » والذى بدات فيه بالإشارة الى هذه الضرورة الأدبية التى من دونها لايستطاع الوصول إلى أى لون من الوان الثبات ، واذا كانت الشعوب الأخرى قد احتفظت بطابع مميز يفضل ماضيها وخلونا نحن من الماضى المهذب ، فحق علينا أن نوقظ ونهذب الطابع الذى يكمن فى دمائنا كمون البذرة .

وعلى هذه الغاية أقصر كتابي هذا ، الذى أقدم جزأه الأول ،وإنى أفعل مالم أنفك عن فعله : ذلك أنى لا أصور مثالية للمستقبل ولا أرسم برنامجا لتحقيقه كالبدعة السارية بين الألمان ، وإنما أعطى صورة واضحة للوقائع كما هى وكما ستكون ، فانى أرى أبعد مما يراه غيري ، وما أراه لايقف عند حد إمكانيات عظيمة ، وإنما يمتد إلي أخطار جسيمة ، وهى أخطار أرى منشأها والطريق المحتمل لتحاميها ، فاذا لم يكن هناك من تبلغ به الجرأة أن يري وأن يجهر بما يري فسأكون ذلك الرجل الجرىء ، إن لي حق النقد لأنى ما انقطعت يوما عن تبيان ما لا بد من حصوله ، لأنه سيقع . لقد بدأت حوادث فاصلة وليس في الامكان استعادة أية واقعة بعد حصولها . فنحن جميعا مجبرون على السير في هذا الاتجاه أردناه أو لم نرده . وإن كلمة «لا» لن تكون إلا قصر نظر وجبنا ـ فان ما لايريده الفرد سيقوم بتنفيذه التاريخ حتما .

ولكن كلمة « نعم » تفترض الفهم ، ولهذا الغرض أعددت كتابي هذا . فهو تحذير من أخطار . والأخطار قائمة على الدوام . فكل مشترك فى الحوادث القائمة فى خطر ، والخطر هو الحياة نفسها . وعلى كل من يربط مصير الدول والأمم بمصيره الشخصى أن يجابه الأخطار وهو محدق فيها . فربما كان في هذا التحديق نفسه ما يتطلب قسطا عظيما من الشجاعة .

لقد نشأ هذا الكتاب عن محاضرة ألقيتها فى هامبورج عام ١٩٢٩ عنوانها « ألمانيا في خطر » ولم تحظ بفهم الكثيرين . وفي نوفمبر سنة ١٩٣٢ أقدمت على تناول الحالة فى ألمانيا ، وفى ٣٠ يناير سنة ١٩٣٣ كان الطبع قد بلغ الصفحة السادسة بعد المائة . فلم أغير فيه كلمة لأنى لاأكتب لأشهر ولا لسنين قليلة مقبلة . وإنما أكتب للمستقبل . ولن تذهب الحوادث بما هو حق . ولم أغير في الكتاب سوى اسمه درءا لسوء الفهم . وليس الخطر فى هذا الاستيلاء القومى على الحكم وإنما الأخطار كانت قائمة بعضها منذ عام ١٩١٨ وبعضها قبل

ذلك بكثير وهى لاتزال قائمة إذ لن تقضى عليها حادثة واحدة تتطلب عدة سنين من التطور السليم المثابر كى تحدث فى هذه الأخطار الأثر المطلوب .

إن المانيا فى خطر ، وإن قلق عليها لم يهن ، وإن نصر مارس كان من السهولة بحيث لايسمح بتفتح الأعين لاتساع الخطر ومنشئه ومدته .

ليس ثمة من يستطيع أن يعرف أى صور وأوضاع وشخصيات سينتهى بها هذا الانقلاب ، ولا أى رد فعل من الخارج سوف يتأتى عنه ، فكل ثورة لابد أن تسىء إلى الحال الخارجية للبلاد ، ولذلك يحتاج الأمر فى مواجهة هذه الحال إلى ساسة من لون « بسمارك » ولا يبعد أن نكون على أبواب الحرب العالمية الثانية التى ستتخذ فيها وسائل وأغراض حربية واقتصادية وثورية غير مقدورة ، فليس لدينا من الوقت مايتسع للاقتصار على الأمور الداخلية وعلينا أن نكون متهيئين لأية حادثة يمكن حصولها ، فألمانيا ليست بجزيرة منعزلة ، وإن لم ندرك أن علاقاتنا بالعالم هى أهم مشكلة لنا بالذات فسيمر بنا المصير غير آبه ولا رحيم .

إن ألمانيا أكثر بلاد العالم حسما فى أموره ، لابسبب موقعها على حدود آسيا التى هى اليوم أهم قارة من الوجهة السياسية العالمية فقط ، بل لأن الألمان لايزال فى روحهم ذخيرة من الشباب الحضارى ، يستطيعون بها أن يحيوا فى أنفسهم حوادث العالم التاريخية ، وأن يهيئوها ويفصلوا فيها على حين أن شعوبا أخرى بلغت بها الشيخوخة والتحجر حدا لا يتيح لها أكثر من القيام بالدفاع ، ولكن الهجوم فى ذاته يشتمل على أكبر أمل فى النصر أمام المشكلات العظمى ـ هذا ما سطرت . فهل يأتى بالأثر المرجو ؟؟

مونيخ فى يوليه سنة ١٩٣٣ أوزفالد شبنجلر

obeikandl.com

الافق السياسى

- ١ -

هل رمى رجل من الأجناس البيضاء اليوم ببصره إلى ما يدور حوله فى أنحاء الأرض ؟ وهل عرف مبلغ الخطر الجاثم فوق هذه الكتلة من الأقوام التى تحلق فوقها النذر ؟ ولا أعنى بقولى هذا طائفة سكان المدن المتعلمين منهم والجهلاء ، قارئى الصحف وبهائم المصوتين فى أيام الانتخابات ، التى تسوى بين الناخب ومن ينتخبه على اختلاف مراتبهم ، ولكنى أعنى أولئك القادة فى الأمم البيضاء الذين لم تمتد إليهم بعد يد الفناء ، أولئك الزعماء الحقيقيين فى ميدان السياسة والاقتصاد والجيش والفكر ، هل تطلع أحدهم ببصره إلى ماوراء هذه السنين ، أو وراء قارته وبلاده ، أو على الأقل وراء محيط عمله ودائرة نشاطه ؟

نحن نعيش فى عصر زاخر بالأحداث التى تقرر فيها المصاير ، فلقد بدأ أعظم عصور التاريخ لا فى الحضارة « الفاوستية » لغرب أوربا بحركتها فحسب ، بل من أجل ذلك فى سائر عصور التاريخ . إنه لأشد هولا ، وأكثر رهبة من أزمنة قيصر ونابليون ، ولكن ما أشد عمى الناس الذين يمر بهم المصير وهو يرغى ويزبد ، ويقصف ويعصف ، ويرفع ويبيد !! فمن من الناس يرى ويدرك ما يجرى حوله ؟ ربما فعل ذلك عجوز صينى أو هندى قلّب بصره

من حوله فى صمت ، وبتأثير ألف سنة كامنة فى فكره . وما أسخف وأضأل مايبديه غرب أوربا وأمريكا من أحكام ووسائل !! فمن من سكان الغرب الأوسط فى الولايات المتحدة يفهم حق الفهم مايجرى وراء « نيويورك وسان فرنسسكو » من حوادث ؟ وماذا يستشفه رجل انجليزى من الطبقة الوسطى من الأحداث التى تتهيأ فى القارة الأوربية ، بغض النظر عن الريف الفرنسى؟ ماذا يعلم كل هؤلاء عن اتجاه مصيرهم ؟ هناك تنشأ عبارات براقة أخاذة من أمثال « التغلب على الأزمة الاقتصادية » و « التفاهم بين الشعوب » و « السلامة القومية » و « والأوتاركية » (١) للتغلب على كوارث أجيال بما يسمونه « الرخاء » و « نزع السلاح »

ولكنى أتحدث هنا عن ألمانيا التى تقف فى مهب العواصف ، عواصف الأمور الواقعة ، التى تهددها بأشد مما تهدد به اية دولة اخرى ، والتى اصبح وجودها فى كف القدر ، وانا اعنى اشد معانى هذه الكلمة إثارة للرعب والفزع ، الا ما اشد قصر النظر والسطحية الصاخبة الشائعتين هنا !! إنهم إذا مادار الحديث حول اضخم المشكلات فلن ترى او تسمع إلا تفكيرا ريفيا محدودا . فليؤسسوا داخل اسوارنا « الرايخ » الثالث او دولة سوفيتية ، او فليلغوا الجيش او الملكية ، وليقضوا على زعماء الاقتصاد اوالزراعة ، ليمنحوا الدويلات الصغيرة اوسع قسط ممكن من الحكم الذاتى او ليقضوا عليها ، وليسمحوا لسادة الصناعة والادارة ان يعملوا على نمط عام ١٩٠٠ ليقوموا فى النهاية بثورة ، وليعلنوا الدكتاتورية ، وما اسهل العثور على دكتاتورها فهناك خمسون من الرجال يرون انفسهم اهلا لها منذ زمن !!

(١) مبدأ الاستكفاء الاقتصادى الذى أخذ يتغلل أخيرا فى السياسة الاقتصادية للدول والامبراطوريات ومجموعات الدول .

كل ذلك جميل وحسن ، ولكن ألمانيا ليست جزيرة ، فليس بلد أكثر اتصالا وارتباطا منها بمصير العالم سواء فى فاعليته أو مفعوليته ، بذلك قضى موقعها الجغرافى وفقرها فى الحدود الطبيعية ، ولقد كانت ألمانيا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بمثابة أوربا الوسطى ، ثم ارتدت فى القرن العشرين إلى ما كانت عليه فى القرن الثالث عشر ، أى دولة التخوم أمام القارة الآسيوية ، وأصبح الألمان بذلك الوضع فى حال تدعوهم إلى الانطلاق بأفكارهم السياسية والاقتصادية إلى ما وراء حدودهم بكثير ، فكل مايقع فى جميع أنحاء الأرض تصل ذبذباته إلى داخل ألمانيا .

إن ماضينا يثأر لنفسه ، هذا الماضى الممثل فى سبعمائة عام من الدولية الإقليمية الصغيرة العارية من أية ذرة من العظمة ، العاطلة من حل المجد ، حيث لافكرة ولا مذهب ولا هدف ، وهى خسارة لاتعوض فى جيلين .

ولقد ارتبكت ألمانيا بعد أن خلفها بسمارك خطأ جسيما ، إذ لم تعن بتنشئة الجيل الجديد ، وتهيئته لوقائع الصورة الجديدة التى ستكون عليها حياتنا السياسية ولقد رآها الناس دون أن يفقهوها فلم يطابقوا دخيلة أنفسهم على آفاقها ومشكلاتها وأعبائها الجديدة ، ولم تتغلغل فى صميم حياة الشعب ، حتى أصبح جمهور الأمة ينظر إلى مصير بلاده العظيمة نظرة سطحية ضيقة محدودة المدى ، وقد أخذ هذا التفكير الضيق فى الظهور منذ أن سقط القياصرة « الستاوفينيون » الذين كانوا يتطلعون إلى ما وراء البحر الأبيض المتوسط ، و « الهانزا » التى سيطرت على ما بين « الشلت ونوفجرود » ـ فريستين لدول أمتن بناء وأقوى أسسا ، لأنهما كانتا تفتقران إلى سياسة واقعية مدعومة فيما وراء الحدود . ومنذ ذلك الحين حصر الألمان انفسهم فى اوطان صغيرة

لا عداد لها ومصالح ضئيلة ، جاعلين من هذا الأفق المحدود مقياسا لتاريخ العالم ، وحالمين على مابهم من جوع وفقر بإمبراطورية فى السحب ، ابتدعوا لها عبارة « المثالية الألمانية » وإلى هذا التفكير الألمانى المحدود يرد معظم ما أنبتته تربة المستنقع « الفايمارى » (١) من مثل عالمية وشيوعية وسلمية و « الترامونتانية » واتحادية وآرية للامبراطورية المقدسة او الدولة السوفينية او الرايخ الثالث . فكل الأحزاب تفكر وتعمل كأنما ليس على وجه الأرض إلا المانيا وحدها ، فنقابات العمال لاترى ماوراء اقاليمها الصناعية ، وهى تمقت منذ قامت كل سياسة استعمارية لخلو برنامج كفاحها الطائفى منها ، ثم هى لضيق تعاليمها لا تدرك ولا تريد أن تدرك أن النزعة الاقتصادية فى نهاية القرن الماضى وأوائل القرن الحاضر أساسها توفير المواد الأولية ومواردها ، وتوفير الأسواق للمنتجات الصناعية ، وهذا ما أدركه العامل الانجليزى قبل ذلك بزمن بعيد .

إن الديموقراطية الألمانية تحلم بالسلم ونزع السلاح ، وهى غافلة عن القوة الفرنسية ، كما يحلم الاتحاديون بأن تعود بلادهم إلى ما كانت عليه مجموعة دويلات من الطابع القديم ، وهم لايشعرون أنهم بذلك يهيئون للدول الأجنبية كل فرصة للعبث بهذه الدويلات وتأليب بعضها على بعض ، فى حين أن النازيين يعتقدون أنهم يستطيعون تجاهل العالم ومقاومته ، وبناء قصورهم الهوائية من غير أن يثيروا من الخارج رد فعل قد يكون صامتا ولكنه محسوس جدا .

---

(١) نسبه إلى Weimar حيث أسست الجمهورية الألمانية عقب الحرب العظمى

- ٢ -

وهناك بالاضافة إلى ماسبق الجزع من مجابهة الحقيقـــة ، فنحن ـ البيض الوجوه ـ مصابون بهذا الجزع وإن كنا لانشعر به إلا نادرا ، بل إن معظمنا لايشعر به قط .

إنه الضعف الروحى لانسان الحضارات العليا الذى فصمته المدنية عن الفلاحة وعن أمه الأرض ومنعته بذلك أن يحيى فى نفسه القـدر والزمن والموت ، فأصبح لحدة يقظته دائم التأمـل في الأمس والغد ، لايطيق ما يراه وما يجب أن يراه ، وهو سير الأمور القاسى ، والمصادفـة التي لامعنى لها ، والتاريخ الحق بخطاه الجادة القاسية يعبر القرون التى ولد وعاش فيها بصفة لازبة حياته الضئيلة فى المكان المحـدد له . ذلك ما يجب أن ينساه وأن ينقضه وأن يماري فيه ، فيفر من التاريخ إلى العزلة ، إلى أنظمـة متخيلة غريبة عن الواقع ، إلى أية عقيدة ، وربما فر إلى الانتحار . إنه يوارى رأسـه كنعامة حمقاء ، ويختفى وراء آمال ومثل عليا ، فى تفاؤل جبان ولسان حاله يقول « إن ما أراه لايجب أن يكون ، إذاً فهو شيء آخر » إن من يغني ليلا فى الغابة يغني من الخوف ، ولنفس ذلك الخوف ينـادى جبن المدن بمذهبـه التفاؤلي الخيالي فى أنحاء العالم فان سكان المدن قد فقدوا القدرة على مواجهة الحقيقـة ، فتراهم يحلون محل الأمر الواقع أحلام المستقبل ، مع أن التـاريخ لا يعبأ مطلقا بآمال البشر بادئة بأحلام الأطفال ومتدرجة فى النهاية إلى السلام العالمى وفردوس العمال للكبار .

ومهما تبلغ قلة معرفة الانسان لحوادث المستقبل فان الصورة العامة للوقائع

المقبلة وسيرها خلال الزمن تنكشف له إذا وازنها بالحضارات الأخرى ، فمن المقطوع به أن القوى التى تسيطر على المستقبل هى نفس القوى التى سيطرت على الماضى من إرادة الأقوى والغرائز السليمة والجنس وإرادة الملكية والقوة ، تتزجج بجانبها الأحلام العقيمة التى تظل دائما أحلاما وهى الهناء والسلام والعدالة . يضاف إلى ذلك بالنسبة لحضارتنا الخاصة ومنذ القرن السادس عشر العجز الآخذ فى الازدياد عند الكثيرين منا عن إدراك مغزى الحوادث والمواقف فى ميدان السياسة العليا والاقتصاد العالمى الدائم التعقد والغموض ، وفهم النزعات والقوى الفعالة فيها بَلْهَ السيطرة عليها . ففى كل يوم تشتد ندرة الساسة الحقيقيين ، إذ أن معظم مايصنع فى تاريخ هذه الأيام من صنع أنصاف العارفين والهواة الذين رافقهم السعد ، ومع ذلك فإنهم اعتمدوا على الشعوب دائما ، وتركوها لسليقتها من غير تدخل ، ولكن هذه السليقة وقوة النقد المتدفق الناشىء عن الجهل المرح قد بلغت من شدة الضعف اليوم حدا جعل الخطر يزداد من عدم ظفر السياسى الحاذق العارف بالأمور بالرضا الغريزى عن أعماله إلى حد ما أو على الأقل باحتماله فى تذمر بل قد تمنعه مناهضة من يفضله فى المعرفة من صنع مايجب صنعه .

فذلك الرضا الغريزى المشار إليه أولا كان موقف بروسيا من فردريك الأكبر ، كما أن بسمارك كاد يصاب بالفشل بسبب المقاومة ، وهؤلاء الزعماء لن يستطيع تقدير عظمتهم وإبداعهم إلا الأجيال المتأخرة ، والذى يعنينا الآن أن يقتصر الحاضر على الجحود والغفلة ، وألا يمتد إلى رد الفعل ، فقد نبغ الألمان فى تناول الأعمال المبدعة بالشك والنقد والإحباط وحرموا الخبرة التاريخية وقوة التقاليد اللتين هما من خصائص الحياة

الإنجليزية ، إنهم شعب الشعراء والمفكرين الذى أصبح على وشك التحول إلى شعب من الثرثارين والمضطهدين ، فكل زعيم سياسى حق يقوم فينا لايكون محبوبا من جمهرة الشعب بسبب جزعهم وخورهم وجهلهم ، ولكى ندرك ذلك يجب أن نكون أكثر من مثاليين .

نحن نعيش اليوم فى عصر « الراسيونالية » الذى بدأ فى القرن الثامن عشر والذى يسرع إلى التمام فى القرن العشرين ، فنحن جميعا من صنعه سواء أعرفنا ذلك وأردناه أم لم نعرفه ونرده ، إن كلمة « الراسيونالية » أصبحت مألوفة عند كل إنسان ، ولكن من ذا الذى يعرف كل ماتحتويه ؟ إنه غرور النفس الحضرية المُجذرة التى لم تعد توجهها الغريزة والتى تنظر بازدراء إلى التفكير الدموى للماضى ، وحكمة الأجيال الزراعية السابقة ، إنه لعصر يستطيع فيه كل فرد أن يقرأ ويكتب ، وهو لذلك يرغب فى المشاركة فى كل حديث ويعتقد أنه أدرى من غيره بكل شىء ، ولقد أصبحت هذه الروح وقد تحكمت فيها هذه الآراء توجه سهامها النافذة إلى العالم وهى تقول لنفسها : « هذا الأمر ليس بنافع ، فلنحسنه ، ولنضع برنامجا للعالم الأفضل » !!

حقا ليس أسهل من هذا على ذوى الذكاء الذين يتصورون إذ ذاك أن البرنامج سوف يتحقق من تلقاء نفسه ، ونحن نسمى ذلك « تقدم الإنسانية » ويخيل إلينا أنه مادام قد اكتسب اسما فقد أصبح كائنا بالفعل ، وأن الذى يشك فيه يكون متهما بالضيق فى الأفكار ، وبالرجعية ، وبالإلحاد ، وفوق كل شىء بالتجرد من الفضيلة الديموقراطية ، وإذاً فعليه أن ينتحى جانبا !!

وهكذا يتغلب غرور الفكر على الجزع من الحقيقة ، وهو غرور ناشىء عن الجهل بكل مايتصل بالحياة ، وعن الجدب الروحى والافتقار إلى الاحترام ،

وأخيرا عن الغباء الغريب عن الحياة ، فليس هناك ماهو أغبى من ذكاء المدن المجذر الذى يدعونه فى المكاتب التجارية والأندية الإنجليزية ، حسن إدراك الواقع ، وفى المجتمعات الفرنسية ، اللباقة ، وفى حجر العلماء الألمان ، العقل الخالص ، هكذا تبدأ التفاؤلية السطحية عند أدعياء الثقافة بالكف عن خشية وقائع التاريخ والانقلاب إلى ازدرائها وتحقيرها ، فكل دعىّ فى المعرفة يرغب فى تنظيمها داخل إطار نظامه الخلو من الخبرة وجعلها فى الفكر أكمل منها فى الواقع ، جعلها خالصة فى الفكر لأنها لم تعد حية فى نفسه بل محض معروفة ومفهومة ، هذه النزعة إلى الأخذ بالنظريات التى ترجع إلى العوز فى الخبرة ، بل إلى فقد القدرة على خلق الخبرة تتجلى نظريا فى تلك التصميمات التى لاتنقطع للأنظمة والمجتمعات المثالية السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وعمليا فى هوس التنظيم الذى يرمى إلى غاية مجردة فى ذاتها ، ولكنها تؤدى فى الواقع إلى ألوان من « البيروقراطيات » تنتهى فى سيرها العقيم إلى الفناء أو تقضى على أنظمة حية قائمة ، فالراسيونالية ليست فى جوهرها إلا النقد وما الناقد إلا نقيض المبدع ، إنه يحلل ويركب ، ولا يعرف شيئا عن الحمل والولادة ، لذلك كان عمله مصطنعا لاحياة فيه ، وقاتلا اذا ما اصطدم بالحياة الحقة ، فكل هذه الأنظمة نشأت على الورق منسقة ولكنها سخيفة . ولاحياة لها إلا على القرطاس . وكان مبدأ نشأتها فى عصر « روسو » و « كانت » على هيئة المثاليات الفلسفية الضالة ، ثم تحولت فى القرن التاسع عشر إلى مؤسسات علمية بأسلوب طبيعى فيزيقى داروينى ، من أمثال علوم الاجتماع والاقتصاد القومى وتدوين التاريخ على أساس مادى ، لتفنى فى القرن العشرين فى آداب القصص ذات الغاية ، وبرامج الأحزاب .

ولكن على الإنسان ألا يخدع نفسه ، فكل من المثالية والمادية راسيونالى فى الصميم ، لا فرق فى ذلك بين كانت وفولتير أو هولباخ ، وبين نوفالس وبرودون ، وبين مثالي حروب التحرير وكارل ماركس ، وسيان فى ذلك الإدراك المادى للتاريخ والادراك المثالى ، وسواء أرأى الإنسان معنى التاريخ وهدفه فى التقدم فى الأسلوب الصناعى وفى الحرية وفى سعادة الغالبية العظمى أم رآه فى ازدهار الفن والشعر والفكر ، فليس ثمة اختلاف ، ففى كلتا الحالين لم يلحظ الإنسان أن المصير فى التاريخ يتوقف على قوة أخرى أكثر فتوة إن تاريخ الإنسان هو تاريخ الحرب ، وليس هناك من بين المؤرخين الحقيقيين من ظفر بالحظوة لدى الجماهير . بل إن بسمارك من بين رجال السياسة لم ينل هذه الحظوة إلا بعد أن أصبح فى غنى عنها .

و « الرومانتيكية » كالمثالية والمادية تعبير عن الغرور الراسيونالى الناشىء عن الافتقار لإدراك معنى الحقيقة ، فكلها متصلة بعضها ببعض بأوثق رباط حتى إنه لمن الصعوبة أن نعرف الحد الفاصل بين هذه الاتجاهات لدى أى رومانتيكى سياسى أو اجتماعى ، وهكذا يتنكر رومانتيكى « سرى » فى دثار كل مادى شهير .

قد يزدرى أحدهم عقل الآخر البارد السطحى المنظم ، على حين أن لديه هو نفسه النزعة لأن يقوم بما قام به غيره ومدها بالوسائل عينها ، وبالغرور ذاته . فالرومانتيكية ليست دليلا على الغرائز القوية ، ولكنها دليل العقل الضعيف الذى يمقت نفسه ، الطفلى النزعة . فهذا الرجل الرومانتيكى يظل طفلا طيلة حياته ، دون أن تكون لديه قوة النقد الذاتى ، وتقعد به الوان من الكبت الأبدى الناشىء عن شعوره الغامض بالضعف الذاتى ، فتسوقه الفكرة السقيمة ، فكرة تبديل المجتمع الذى يرى فيه إمعانا فى الرجولة والسلامة

والتواضع إلي تبديله لا بالسيف والمسدس كما فى الروسيا بل بالكلام المعسول والنظريات الشعرية . والويل لكل منهم إن لم يكن لديهم من الموهبة الفنية ما يكفى على الأقل مقاومة العوز في قوة التشكيل ، وإنك لتجدهم في ضعفهم وأنوثتهم لايستطيعون أن يضعوا قصة عظيمة أو مأساة صارمة ، أو فلسفة قوية ، وكلما ينتجونه إنما هو غنائية غثة في إخراج لا روح فيه ، وأفكار غريبة عن الحياة ، مجافيه لها إلي حد السخف .

كذلك كان الشبان الأزليون بعد عام ١٨١٥ فى أرديتهم وقصبات تدخينهم الألمانية العتيقة ، وكذلك كان «ياهن» و «أرندت» بل كذلك كان «شتاين» الذى لم يستطع كبح ميله الرومانتيكى للانظمة العتيقة إلى مدي يسمح له بحسن خبرته العملية فى ميدان السياسة . وفي الحق ليس ثمة شك فى بطولتهم ونبلهم وترحيبهم بالموت فى ميدان الجهاد فى أية لحظة . ولكنهم أسرفوا كل الاسراف في التحدث عن الروح الألمانية .

ولذلك كانوا عقبة فى سبيل المستقبل الحق لألمانيا . فهل بلغهم كيف انتحر « فردريك ليست » العظيم عام ١٨٤٦ حينما لم يوفق إلى العثور على من يفهم ويؤيد أهدافه الواقعية المتطلعة إلى الأمام . وهى بناء اقتصاد قومى ألمانى ؟

وقد عاد اليوم هؤلاء الشبان الأبديون بالذات من جديد . فى غير نضج ولا خبرة ولا إرادة ، متكلمين كاتبين فى نشاط ، متحمسين للحلل والشارات معتقدين اعتقادا أعمى فى أية نظرية . فهناك رومانتيكية اشتراكية للشيوعية المتحمسة . ورومانتيكية سياسية تعتبر أرقام نتائج الانتخابات ونشوة الخطب فى الجماهير أفعالا . ورومانتيكيه اقتصاديه تجرى وراء نظريات المال التى نشأت فى أدمغة مريضة من غير خبرة بالوضع الحقيقى للاقتصاد . فهؤلاء لايشعرون إلا كجماعة . لأنهم بجموعهم المتكاثرة يستطيعون إخراس شعورهم الغامض بالضعف . وهذا مايدعونه التغلب على الانفرادية . وهم كسائر الراسيونالين

والرمانتيكيين عاطفيون كأغانى الأزقة .

إن « العقد الاجتماعى » و « حقوق الإنسان » قد ظهرا فى عصر السياسة ، أما « بيرك » السياسى الحق ، فقد كان على النقيض من ذلك ، إذ أثبت أن قومه كانوا يطالبون بحقوقهم لا بصفتهم أناسيّ فحسب ، بل بصفتهم شعبا إنجليزيا له مقوماته وخصائصه ، فكان ذلك منه تفكيرا عمليا وسياسيا لا راسيونياليا ناشئا عن انطلاق المشاعر من دون ضابط ، فهذه العاطفية الضارة التى تشيع فى التيارات المذهبية لهذين القرنين مثل الليبرالية والشيوعية والسلمية ، وفى كل الخطب والثورات إنما هى وليدة عدم ضبط النفس التى حرمت تهذيب التقاليد القديمة الصارمة . إنها روح بورجوازية أو دهمائية بمعناهما الازدرائى ، إنها تنظر إلى الأمور الإنسانية وإلى التاريخ وإلى المصير السياسى والاقتصادى نظرة ليس فيها اتساع الأفق الفكرى ولا سمو النفس ، فكل مايمثل العظمة والسيادة والتفوق بغيض لديهم ، والبناء فى نظرهم إنما هو الهبوط والتصاغر بكل إنتاج الحضارة والدولة والمجتمع إلى مستوى الطبقة الدنيا ، ذلك المستوى الذى لايتفوق عليه شعور الحقير وإدراكه ، وهذا ما يسمونه اليوم شعبيا ، لأن الشعب لديهم لايعنى الأمة العضوية المشكلة على هيئة طبقات طبيعية ، وإنما يعنى ذلك الشطر السطحى من المجتمع الفاقد الصورة الذى ينشد فيه كل فرد أن يكون مساويا لغيره .

هذه السيادة للفكر الحضرى تدنو اليوم من نهايتها ، كما يأخذ التشكك فى الظهور كآخر لون لإدراك الأمور على حقيقتها ، وهو الشك الأساسى فى معنى التأمل النظرى وقيمته ، وفى مقدرته على فتح أى مغلق عن طريق النقد والتصور أو على تنفيذ أى شىء وإخراجه إلى حيز الوجود ، الشك الذى

يتمثل فى الخبرة التاريخية والفيزيو نومية والنظرة النزيهة للحقائق الواقعـــة ، والفراسة الحقة التى نعرف منها كيف كان الانسان وكيف أصبح لا كيف ينبغى أن يكون ، والتفكير التاريخى الحق الذى يعلم فيما يعلم أن عصور النقـد المتوالية قد انتهت كلها إلى الفشل والخيبة ، وتبجيل الأمر الواقع فى أحداث العالم ، التى ستظل كما هى أسـرار عميقـة لايمكن تفسيرها وإنمـا يمكن وصفها فقط ، والتى لايستطيع أن يخضعها له إلا رجال من جنس قوى يعتبرون هم أنفسهم من الحقائق الواقعة فى التاريخ لا البرابج والأنظمة .

هذه المعرفة التاريخيـة المتينـة للأمور الواقعـة كما طفقت تحصل فى هـذا القرن لاتحتملها الطبائع الغضة التى لا ضابط لها ، فهى تمقت من يحددها وتدعوه متشائما ، ثم إن نزعة التشكك القوية التى تتصل بها نزعة ازدراء الناس وهى من صفات كبار الفعاليين الذين لديهم حظ وافـر من الفراسـة ـ انها شىء يختلف تمام الاختلاف عن الشكاكية الخائفة الجزعة التى هى من خصائص النفوس الصغيرة المجهدة التى تخاف الحياة ، وتجبن عن مواجهة الحقيقة .

ان السلم المنشود البعيـد عن الخطر ، والرفاهيـة العريضـة ، وجـودهما فى الفكـر لا فى الواقع ، وعلى صخرة هذا الواقع الذى هو حقيقة التاريخ تتحطم كل مثالية .

ـ ٣ ـ

أما فيما يختص بحالة العالم الراهنة ، فنحن جميعا نكاد نقـع فى خطر النظر اليها نظرة خاطئة . فمنذ الحرب الأمريكية الأهلية عام ١٨٦٥ والحرب الفرنسية الألمانيـة عام ١٨٧٠ والعصـــر الفيكتورى دامت بين الشعوب البيضاء إلى

عام ١٩١٤ حالة غير عادية من الهدوء والأمن والكيان السلمى المطرد التقدم الذى لايكدر صفوه شيء من الهم ، وهى حالة من العبث الحصول على مايماثلها فى قرن من قرون الزمان ، فمن أحس ذلك بنفسه أو سمع به عن طريق غيره فلا بد أن يعتبره أمرا عاديا ، ويرى فى الحوادث العاصفة الحاضرة أمرا مزعجا لهذه الحالة الطبيعية ، راجيا أن يستأنف الزمن فى نهاية الأمر تقدمه إلى الأمام . ولكن ذلك لن يكون ، ولن تتكرر هذه الفترة الزمنية على الإطلاق ، فالعوامل التى سببت هذا الهدوء الذى امتد فترة من الزمان لايمكن أن تدوم على مدى الزمن ـ هى أولا : الحقيقة الفعلية بأن الجيوش العاملة المتواصلة النمو جعلت الحروب أمرا يستحيل تقدير نتائجه التى لايجرؤ معها سياسى على إشعال نارها ، وثانيا : الحقيقة الفعلية بأن الاقتصاد الصناعى وجد نفسه فى حركة حُمّيّة يتحتم انتهاؤها سريعا لأنها قامت على أسس سريعة الفناء ، وأخيرا نشأت الحقيقة الثالثة ، وهى أنه بسبب هاتين الحقيقتين الفعليتين أصبحت مشكلات الزمن المستعصية الحل دائمة التأجيل والإحالة على الأبناء والأحفاد كميراث كله شر للأجيال المقبلة ، وذلك إلى أن يكف الإنسان عن الاعتقاد فى وجودها برغم دوام تهديدها بالتوتر المتواصل من عالم المستقبل .

وقليل هؤلاء الذين يطيقون حربا طويلة دون أن تنحل نفوسهم ، كما أن السلم الطويل لايحتمله أحد ، فلقد جعل السلم الطويل الذى امتد من عام ١٨٧٠ إلى ١٩١٤ البيض كلهم متخمين شرهين نزقين عاجزين عن تحمل صدمات الشقاء . ونرى احدى نتائج ذلك فى الآراء والمطالب المثالية التى ينادى بها زعماء الجماهير ، وهى مطالب موجهة الى العصر والدول والأحزاب وإلى « غيرهم » قبل كل شيء ، دون أن يتنزلوا على الأقل إلى تذكر حدود الممكن ،

حدود الواجبات والخدمات والرضا والقناعة .

إن ذلك السلم المسرف فى أمده ، القائم على أرض دائمة الاختلاج بسبب الهياج المتواصل ميراث مرعب ، ولا يكاد يوجد سياسى أو حزب أو مفكر يرى فى نفسه مايأمن معه إن قال الحقيقة ، فكلهم يكذبون ، ويغنون على نغمة الجمهور المثال الجاهل الذى يريد الغد معادلا للأمس إن لم يكن خيرا منه ، وكان الواجب على الساسة وزعماء الاقتصاد أن يكونوا أوفر معرفة بالحقيقة المرعبة ولكن ألدينا أحد من هؤلاء الزعماء اليوم ؟ إن هذه التفاؤلية الجبانة الغادرة تعلن كل يوم عودة الانتعاش والسعادة إذا دفع نفر من المضاربين الصعوديين بأسعار « البورصة » إلى الارتفاع ، وتتحدث عن زوال البطالة إذا توفر العمل لمائة من الرجال ، وأدهى من ذلك أن يعلنوا الوصول إلى التفاهم بين الشعوب إذا اتخذت جمعية الأمم - وهى تلك الجماعة من المصطافين الذين ينعمون على ضفاف بحيرة « جنيفا » - أى قرار من تلك القرارات الجوفاء . وفى كل المجتمعات والصحف تدوى كلمة « أزمة » كتعبير عن إزعاج عابر للطمأنينة ، وهم بذلك يضللون أنفسهم ويخدعونها عن الحقيقة المرة ، وهى أن الأمر أمر كارثة لايحد مداها ، كارثة الصورة الطبيعية التى تكتمل فيها التطورات التاريخية الجسيمة .

ألا إننا نعيش فى عصر جبار ، هو أقوى وأشد ما حيته الحضارة الغربية وما ستحياه ، إنه نفس المرحلة الزمنية التى حيتها الحضارة القديمة من كانا (١) إلى أكتوم (٢) والتى توهجت فيها أسماء هانيبال وسيبيو وجراكس

---

(1) Canna المعركة التى انتصر فيها هانيبال على الرومان عام ٢١٦ ق.م

(2) Aktium المعركة البحرية التى انتصر فيها أغسطس على انطونيوس وكليوباترة ٣١

وماريوس وسلا وقيصر .

لم تكن الحرب العالمية الأولى إلا البرق الأول والرعد الأول للسحابة المشحونة التى تمر فى سماء هـذا القرن زاخرة بالمصير ، وستنقلب اليوم صورة العـالم من أساسها كما انقلبت فى بدء الإمبراطورية الرومانية من دون أن تعبأ بإرادة « الأغلبية » ورغباتها ، ومن غـير اكتراث لعدد الضحايا التى يتطلبها مثل هذا الانقلاب الحاسم ، ولـكن ـ من يفقه ذلك ؟ ومن يطيقه ؟ ومن يشعر بسعادة الانغمار فى حلبته ؟ هذا العصر جبار وعلى قدر عظمته وجبروته تكون ضآلة من يعيشون فيه ، فلقد أضاع الناس من نفوسهم القدرة على تحمل أية مأساة سواء أكانت على خشبة المسرح أم فى الحياة الواقعة ، إنهم ينشدون « النهاية السعيدة » الشائعة فى القصص الجوفاء المسلية على ماهى عليـــه من حقارة وتفاهة ، ولـكن المصير الذى رمى بهم إلى هذا القرن يمسك بتلابيبهم ويقسرهم على مالابد من وقوعه أحبوا ذلك أو كرهوه .

لقـد انتهى عهـــد الأمن الجبان الذى ساد الناس فى نهاية القرن الماضى وارتدت إلى مكانها الحياة المليئة بالأخطار ، الحياة التى تمثل التاريخ خير تمثيل.

لقد أصبح كل شىء فى تدهور ، فلا يعتد الآن إلا بالرجـل الذى يدرك حقائق الأشياء بشجاعة ، ويقـدم على عمـل شىء ما . إن الوقت آت لاريب فيه بل إنه قد حل فعلا ، هـذا الوقت الذى لايعبأ بذوى النفوس الغضـــة والمثاليات الواهنة ، وهاهى ذى البربرية العريقة فى القدم تستيقظ ثانية بعد أن اختفت قرونا طويلة وراء ستار الصورة الصارمـة لحضارة عاليـة غربت شمسها ثم أعقبتها المدنية ، تلك البربرية التى تفرح بالقـوة الذاتيـة وتزدرى عصر التفكير المشبع بالأدب ، وتمجد الغريزة المتينة للجنس ، وترغب فى حياة

غير تلك الحياة الرازحة فى غمرة الكتب المقروءة التى تتغنى بالمثاليات . تلك البربرية التى لايزال قدر كاف منها حيا فى قلوب أقوام فى أوربا الغربية ، وفى برارى أمريكا الشمالية ، وفى فسيح السهول فى شرق آسيا الشمالية حيث ينمو ويترعرع غزاة العالم .

أهذه موجة من التشاؤم ، إن من يحس الموقف كذلك لابد له من الكذب التقى الورع ، أو أن يستتر بنقاب المثل العليا ، ليقى نفسه مواجهة الحقيقة ويتحرر منها ، ومن المحتمل أن ذلك هو عين ماتفعله أكثر الشعوب البيضاء فى هذا القرن وربما تفعله فى القرن التالى .

لقد كان أسلافهم فى عصر هجرة الشعوب والحروب الصليبية صنفا آخر ، إذ كانوا يزدرون ذلك على أنه جبن ، وهو نفس الجبن أمام الحياة الذى كان فى الحضارة الهندية المعاصرة لهم ، والذى نشأت عنه البوذية والمذاهب المتفرعة عنها التى أخذت فى الانتشار بيننا كبدعة ، ومن يدرى فربما تكون هناك ديانة متأخرة على وشك التهيؤ فى الحضارة الغربية ، قد تتدثر بدثار المسيحية أو غيرها من الديانات ؟

« فالتجديد الدينى » الذى يتلو عصر الراسيونالية كفلسفة دنيوية يحوى فى طياته إمكان نشوء أديان جديدة ، فإن النفوس التى شاخت واعتراها الجهد والكلال تنشد الهرب من وجه هذا العصر إلى رحمى من يهز لها أرجوحة النسيان عن طريق معجزات التعاليم والعادات على وجه أحسن مما تستطيعه الكنائس المسيحية .

إن روح الإيمان الصافى قد استيقظت من جديد ، ولكن عمق الألم الدنيوى وهو شعور يبلغ فى قدمه قدم التأمل فى الدنيا نفسها ، أى الشكوى

من سخف التاريخ ومن قسوة الحياة ـ لايأتى عن طريق الأمور فى ذاتها ولكن عن طريق التفكير المريض فيها ، إنه الحكم القاتل على قيمة النفس الذاتية وقوتها ، ولايقتضى الأمر أن ترتوى النظرة الدنيوية العميقة بالدموع.

يوجد شعور دنيوى « نورديكى » من إنجلترا إلى اليابان وهو ملىء بالفرح بثقل المصير الإنسانى بالذات ، ينازله الإنسان لينتصر ، عليه ويهلك الإنسان مزهوا فى سبيله إذا تبين له أنه أقوى من إرادته الذاتية، تلك هى النظرة ، والشعور الذى يشيع فى قصص المهابهاراتا القديمة التى تتحدث عن العراك بين الكورو والباندو ، ولدى هومير وبندار وأشيل ، وفى شعر البطولة الألمانية ، ولدى شكسبير ، وفى كثير من أغانى الشوكنج الصينية، وفى محيط الساموراى اليابانى ، إنها النظرة المليئة بروح المأساة التى لم تخمد جذوتها ، والتى سوف تزدهر من جديد فى المستقبل كما ازدهرت فى الحرب العالمية ، لذلك كان فحول الشعراء فى الثقافات النورديكية ميالين إلى المأساة كما كانت المأساة بعد مرحلة الشعر القصصى والملحمات أعمق صورة لهذه التشاؤمية الباسلة ، فكل من لايستطيع أن تحيا فى نفسه المأساة أو يطيقها فإنه لايفوز بأى نصيب فى عالم الفعال الدنيوية ، وكل من لايحيا التاريخ فى نفسه كما هو فى الواقع أى مأسويا (١) ومشبعا بالمصير ، وخاليا من المعنى والغاية والأخلاق كما يراها عباد النفعية فإنه لايقدر على صنع التاريخ ، وهنا يفترق الروح الخلق المتفوق للوجود الإنسانى عن المنحط منه .

إن حياة الفرد لاتهم أحدا غيره ، فأهم مافى الموقف إنما هو تخييره بين الهرب بها من وجه التاريخ أو التضحية بها على مذبحه .

إن التاريخ لا يعبأ بمنطق البشر ، وإن عاصفة هوجاء ، أو زلزالا مدمرا

---

(١) منسوب إلى المأساة

أو سيلا من حمم البراكين ، أو مثال هذه الظواهر الطبيعيـــة مما يقضى على الحياة فضاء غاشما ـ لعلى أقرب صلة بالحوادث البدائية المرتجلة فى تاريخ العالم .

وعلى الرغم من أن الشعوب تهلك والمدن القديمـــة فى الحضارات الهرمة تحترق أو تتحول إلى ركام فإن ذلك لايعوق سير التاريخ ، فالأرض لاتفتأ تدور حول الشمس فى هدوء ، ولا تزال الكواكب تجرى كعادتها فى أفلاكها .

إن الإنسان حيوان مفترس ، وهذا رأيى الذى لا أكف عن ترديده فكل دعاة الفضيلة وأخلاقيي الاشتراكية الذين يحاولون أن يكونوا على غير هذه الوحشية ليسوا إلا وحوشا نزعت أنيابها وقلمت أظفارها ، فهم يمقتون غيرهم لأنهم لايقدرون على ما يقدر عليه هؤلاء من هجوم ، لقد سلبوا القوة التى تساعدهم على قراءة كتاب عن الحروب ، ولكنهم يهرعون جماعات إلى الشوارع إذا ماحل الشر كى يثيروا أعصابهم بمنظر الدماء والآلام ، حتى إذا ماعجزوا عن ذلك أشبعوا هذه الرغبة على لوحة الخيالة أو فوق صفحات المجلات المصورة .

إنى إذا دعوت الإنسان حيوانا مفترسا فمنذا الذى أهنت بهذا التشبيه ؟ آ لإنسان أم الحيوان ؟ إنى لأرى فى الحيوانات المفترسة العظيمة مخلوقات نبيلة كاملة النوع ، وبريئة من نفاق الإنسان الناشىء عن الضعف .

يصرخ القوم قائلين : « لن تعود حرب بعد اليوم » ولكنهم يرغبون فى حرب الطبقات . إنهم يهتاجون إذا ماقتل مجرم فاسق ، ولكنهم يلتذون خفية وفى أعماق نفوسهم إذا علموا بموت خصم سياسى .

اين اعتراضهم على مذابح البولشفيك ؟ إن الكفاح هو الحقيقة الفعلية

العريقة فى الحياة ، بل هو الحياة نفسها ، ولن ينجح أحدحتى أحقر السياسيين فى أن يستأصل من نفسه لذة هذا الكفاح ، فهو يتمنى - ولو مذهبيا على الأقل - محاربة كل خصوم السلمية وإبادتهم .

وكلما توغلت خطانا فى قيصرية العالم الفاوستى زاد جلاء الحد الفاصل بين من قدر له أن يكون ذا تأ فاعلة ومن كتب له أن يكون موضوعا فى مجرى الحوادث التاريخية .

لقد انتهى ركب المثاليين الكئيب الذى خب خلال هذه القرون ولم يخلف وراءه إلا جبالا من المطبوعات ، وسيحل عهد القياصرة ، فلقد استردت السياسة العليا حقوقها الأزلية : السياسة العليا كفن الممكن بعيدا عن كل الأنظمة والمذاهب ، وإحكام توجيه الوقائع فى خبرة العارف بالأمور ، وحكم العالم بأسلوب الفارس القدير الذى يعتلى صهوة الجواد فى ثبات ، ويمسك الزمام فى قوة ويطبق بساقيه فى شدة .

لذلك كان كل ما أقوم به هنا أن أبين الوضع التاريخى لألمانيا والعالم والأمر الحتم الذى قضى بظهور هذا الوضع من بطون القرون الغابرة ، والأمر الحتم الذى يقضى باتجاهه إلى أوضاع وحلول معينة .

هذا هو القضاء ، قد ينكره الإنسان ، ولكنه لا ينكر إلا نفسه .

الحروب والدول العالمية

- ٤ -

إن الأزمة العالمية فى هذه السنين تفهم - كما يدل عليها اسمها - فى سهولة ويسر طبقا لموقف الباحث فيها ومصالحه والأفق الذى يحيط به ، فهى تفهم على أنها أزمة فى الإنتاج والعطلة والنقد وديون الحرب والتعويضات والسياسة الخارجية والداخلية ، بل إنها تفهم على أنها أثر من آثار الحرب العظمى التى يرى الناس أنه كان فى الإمكان تجنبها ، لو أن الساسة كانوا أكثر نزاهة وأعظم حذقا .

ويتحدث الناس عن إرادة الحرب وتبعتها ، وأنظارهم متجهة إلى ألمانيا والواقع أنه لو استطاع أزفولسكى وبوانكاريه وغراى (١) أن يستشفوا ما آلت إليه بلادهم الآن لأقلعوا يومئذ عن بلوغ مأربهم السياسى الذى قضى بالحرب إتماما لحصر ألمانيا ، تلك الحرب التى كان استهلالها تلك العمليات الحربية التى قامت عام ١٩١١ فى طرابلس الغرب وعام ١٩١٢ فى البلقان . ولكن ربما كان كل أثر لهذا الإدراك أن يؤجل التفريغ العنيف لهذا التوتر عقدا آخر ، هذا التوتر الذى لم يكن مقتصرا على الناحية السياسية وأن توزع الدول توزيعا مختلفا بعض الاختلاف وأقل سخفا مما حصل .

---

(١) وزراء خارجية روسيا وفرنسا وانجلترا على الترتيب عام ١٩١٤ يوم اشتعال نار الحرب العالمية الأولى

إن الوقائع أقوى من الناس دائما ، كما أن دائرة الإمكان حتى للسياسى القدير أضيق بكثير مما يتصورها الرجل العادى ، فلو كان هناك أى تغيير محتمل لما تعدى صورة الكارثة وتوافقها الزمنى ، أما الكارثة نفسها فكانت واقعة لامحالة ، لإنها كانت النهاية المحتومة لقرن من التطور فى الغرب يسعى إلى الكارثة من عهد نابليون سعيا حثيثا متصلا .

لقد دخلنا فى عصر الحروب العالمية الذى بدأ فى القرن التاسع عشر ، وسوف يمتد فى القرن الحالى وربما يتخطاه إلى ما يليه . إنه الانتقال بالوضع الدولى الخاص بالقرن الثامن عشر إلى الإمبراطورية العالمية ، إنه يوازى القرنين الرهيبين بين معركتى كانا وأكتيوم ، وهى الفترة التى انتقلت بالعالم القديم من نظام الدول الهيلينى بما فى ذلك روما وقرطاجة إلى الامبراطورية الرومانية ، وكما شملت هذه الفترة ميدان الحضارة القديمة وما تفرع عنها أى عالم البحر الأبيض المتوسط ، فسيشمل نفس المصير الكرة الأرضية جمعاء وإلى أمد غير معروف .

إن الامبراطورية فكرة ،سواء أأدرك حاملوها والمنفذون لها ذلك أم لم يدركوه ؟ وقد تظل فى حالتنا هذه بعيدة عن التحقيق ، أو قد تعترضها وتتشابك معها أفكار اخرى تستمد وجودها من خارج عالم الشعوب البيضاء ، ولكنها ستبقى كنزعة لصورة تاريخية (عظمى) ممثلة فى كل مايقع الآن .

إننا اليوم نعيش فيما « بين العصرين » ولقد كان العالم الدولى الغربى فى القرن الثامن عشر بناء على «صورة» ذا طراز محكم ، كسائر ما انتجه فى الموسيقى والرياضة العليا ، كان ساميا فى صورته ، لا فى ذاته فحسب ، بل فى اعماله وتياراته الفكرية كذلك ، إذ سيطرت عليه فى كل ناحية تقاليد

قديمة راسخة من قواعد متواضع عليها للقيام بالحكم وللمعارضة وللعلاقات السياسية والحربية بين الدول ، وللتسليم بالهزيمة ، وألوان المطالبة والقبول فى عقد الصلح . لقد كان النبل لايزال يلعب دوره غير منازع ، وكان كل شيء يجرى طبقا لأصول الرسميات وفى رقة ولين جانب كما يقع فى المبارزة .

ولقد أخذت كلمة « أوربا » تشيع فى اللغة المتداولة بين الشعوب الغربية ومن ثم - وبطريقة غير ملحوظة كما هى العادة - شاعت فى التفكير السياسى العملى والنزعة التاريخية ، ولم يكن هذا الاسم قبل ذلك إلا اصطلاحا فى علم الجغرافيا نما مع تطور المصورات منذ كشف أمريكا .

ومما يجدر ذكره أن الإمبراطورية التركية وهى فى ذلك الوقت تعتبر دولة كبيرة تمتلك كل البلقان وبعض أجزاء من روسيا الجنوبية لم تكن بحكم السليقة تعد من أوربا ، كما أن روسيا نفسها كانت تعد بصفة أساسية حكومة بطرسبورج فقط . فكم من بين ساسة الغرب فى ذلك الأوان من كان على علم بأستراخان ونجنى نوفجورود أوحتى بموسكو ؟ ومن منهم كان يعدها ويحسبها من أوربا ؟ لقد كانت حدود الحضارة الغربية على الدوام تنتهى حيث كان يقف الاستعمار الألمانى .

ولقد كانت ألمانيا فى أوربا بمثابة البلد المتوسط لا كدولة بل كساحة حربية لدول حقيقية ، فبالدماء الألمانية غالبا فصل فيمن يمتلك الهند وجنوب إفريقية وشمال أمريكا . وفى الشرق قامت روسيا والنمسا وتركيا ، وفى الغرب أسبانيا وفرنسا هاتان الامبراطوريتان الغاربتان اللتان اغتصبت منهما إنجلترا الصدارة إذ تم ذلك بالنسبة لأسبانيا بصفة قاطعة عام ١٧١٣ وبالنسبة لفرنسا منذ عام ١٧٦٣ ، وبذلك تزعمت إنجلترا هذا النظام لا على أنها دولة بل كطراز

كما أصبحت على جانب عظيم من الثراء بالنسبة إلى القارة . وقد استخدمت ثروتها هذه فى خدمة مصالحها ، إذ سخرت جيوشا مأجورة وبحارة ودولا بأسرها تلقى بأنفسها فى ساحة الوغى ذودا عن الجزيرة فى مقابل ما تمنح من إعانات .

وفى آخر القرن الثامن عشر كانت أسبانيا قد نزلت عن فكرة أن تكون دولة عظيمة ، وكانت فرنسا تخطو دائبة نحو هذا المصير ، فكلاهما شعبان قد شاخا وهرما واستنفدا كل مجهودهما ، ينزعان إلى الزهو ولكنهما مجهدان ، ينظران إلى الماضى فى غير طموح حق إلى القيام بدور إبداعى فى المستقبل . فلو نجحت خطط «ميرابو» عام ١٧٨٩ لنشأت فى فرنسا ملكية دستورية ثابتة إلى حد مقبول تجعل همها إشباع النزعة إلى الرغبة فى الربح الثابت وهى من خصائص البرجوازية والزارعين . وفى ظل حكومة الإدارة كانت كل الظروف تساعد وتدعو إلى الرضا فى سكون عن أى لون من ألوان الحكم يكفل الهدوء فى الداخل والخارج بعد أن سئمت كل مثالية وتخلت عنها . وهنا أتى ذلك الإيطالى « نابليون » واختار « باريز » قاعدة يهدف منها إلى غايات سلطانه ، وخلق فى جيوشه طراز « الفرنسى الأخير » الذى احتفظ من بعده لمدة قرن من الزمان بفرنسا كدولة عظمى باسلة ، أنيقة ، متباهية خشنة ، تلتذ القتل والنهب والتدمير تدفعها سورة حية لا هدف لها إلا إشباع السورة نفسها ، وبذلك لم تأت هذه الانتصارات على الرغم من فداحة ثمنها وكثرة ما أريق فيها من الدماء بأى أثر باق خالد ، وكل ما أتت به هو الشهرة ولم تظفر بالشرف ، ففى جوهر الأمر كان ذلك الحكم مستندا إلى القوة لا إلى الأغلبية ، المتمثلة فى جماعة أصحاب الربح الثابت والعاديين من الناس

وبذلك ظهر فى الميدان السياسى مكان الصور السامية القديمة صور دهمائيـــة خالصة ، أى من الأمـــة ككتلة عضوية ، وظهرت الحرب فى صورة تعبئة للجمـوع ، وأصبحت المـعركة الحـربية إسرافا فى إراقـة الدماء البشـرية ومعاهدات الصلح الوحشية ، وبرزت « دبلوماسية » كالحيل الخاصة بالمحامين هذا فى حين أن إنجلترا اضطرت إلى الاستعانة بأوربا كلها وبما تملك من أسباب الثروة لتقضى على صنع رجل واحد هو نابليون ، وقد ظل هـذا الرجل حيا كفكرة على الرغم من ذلك ، وفى مؤتمر «فينا» انتصر القـرن الثامن عشر من جـديد على العصر الحـــديث . وأطلق عـلى ماحصل منـــذ ذلك الوقت لفظ « المحافظ » .

على أن هذا النصر كان وهميا ، ظل نجاحه موضع تساؤل طيلة القرن كله .

ولقد نظر « مترنخ » إلى هذا الأمر نظرة ثاقبة استشف بها تلك الحقيقة ، فقال فى وضوح قاس : « ان أعمق ما أحتفظ به من رأى سرى هو أن أوربا القديمة فى بدء نهايتها ، وسأعرف كـيف أؤدى واجبى مصمما على الغروب معها ، أما اوربا الجـديدة فإنها فى دور التكوين ، وستحل الفوضى بين النهاية والبداية ، ولقد ظهر نظام التوازن الدولى ليؤخر ظهور هذه الفوضى اطـول زمن ممكن ، فبدىء بالحلف المقـدس بين النمسا وبروسيا والروسيا ، فأبرمت المعاهدات ، وسُعِيَ وراء الحلف وعقدت المؤتمرات لبذل آخر مجهود لمنع حصـول اى ارتجـاج فى اوربا السياسيـة ، التى لم تكن تستطيع احتمال هـذا الارتجـاج ، واذا ماشبت على الرغم من ذلك حـرب بين آحاد الدول اسـرع المحايدون فى الحال الى النسلح صونا للتوازن عند عقد الصلح عـلى الرغم من التغيرات الضئيلة فى الحدود ، وخير مثل لذلك حرب القـرم . على انه قـد

نجح بناء واحد جديد ، ذلك هو ألمانيا التى خلقها بسمارك ، إذ أصبحت دولة عظمى متمسكة بنظامها القديم ، وفى هذه الحقيقة الواقعة البسيطة توجد نواة المأساة التى لم يكن ثمة مايحول دونها . فإنه لما كان بسمارك قائما على رأس الحكم لم يتغير شىء فى صورة أوربا السياسية جمعاء إذ كانت مشتغلة بأمورها دون أن يتدخل أحد فى شئونها ، وكانت الدول العالمية دولا أوربية ، تملكها الجزع من توقع انتهاء هذه الحالة التى سماها بسمارك « كابوس التكتلات » .

وعلى الرغم من ذلك كان الوقت فى عام ١٨٧٨ ناضجا للحرب العالمية الأولى ، فلقد كان الروس على أبواب القسطنطينية ، وانكلترا تهم بالتدخل وكذلك فرنسا والنمسا ، وكان مقدرا للحرب أن يمتد لهيبها فى الحال إلى آسيا وإفريقية وربما إلى أمريكا بعد أن برزت مسائل تهديد الهند من تركستان والسيادة على مصر وقنال السويس ، والمشكلات الصينية ، ومن خلفها التنافس البادى بين لندن ونيويورك التى لم تكن قد نسيت ميول الإنجليز وعطفهم على الولايات الجنوبية فى حرب الانفصال ، ولم يؤجل الفصل فى المسائل الدولية العظمى إلا نبوغ بسمارك الشخصى ، ولكن الثمن الذى دفع فى سبيل ذلك كان أن حلت المنافسة فى التسلح لحروب مقبلة محل الحروب الحقيقية ، وهو ضرب جديد من الحرب يقوم على تبادل التفوق فى عدد الجنود والسلاح ، وعلى التفوق فى الاختراعات ورصد الأموال المقررة للتصرف فيها لحساب الحرب ، وكل هذا قد زاد التوتر إلى درجة لاتطاق منذ ذلك الحين . هذا على حين بدأت اليابان تحت حكم « موتسوهيتو » وفى غفلة تامة من أوربا تتطور إلى دولة عظمى من الطراز الأوربى ذات جيش قوى وفن حربى وصناعة تسلح ، وقد اكتسبت الولايات المتحدة الأمريكية العبرة من الحرب

الأهلية من عام ١٨٦١ إلى عام ١٨٦٥ التى خضع فيها العنصر الزراعى لعنصر الفحم والصناعـــة والمصارف الماليـــة والأسواق ، وبذلك بدأ «الدولار» يلعب دوره العالمى .

وقد أخذ سقوط هذا النظام الدولى يتضح للعيان فى جلاء عظيم إلا لهؤلاء القادة من الساسة الذين لم يبق منهم شخص له خطره وقيمتـه ، فاستنفدوا حيويتهم فى القيام بمختلف الألوان المألوفة من التكتل والتحالف والتفاهم معتمدين جميعا على الهدوء الخارجى المتمثل فى الجيوش العاملة ، وغير ناظرين إلى المستقبل إلا كحاضر ممتد ، وذلك على حين تتجاوب فى جميـع مدن أوربا وشمال أمريكا صيحات النصر بتقدم الإنسانية ، التى يتجلى يوما بعـد يوم فى امتداد الخطوط الحديدية الطويلة وفى المقالات الافتتاحية فى الصحف ، وفى تلك المداخن السامقة التى تشق الجو يوما بعد يوم معلنة قيام آلاف المصانع وفى أرقام الانتخابات وفى كثافة المصفحات والمدرعات ، وفى الحزم الضخمة من أوراق النقد التى تكدست فى خزائن الأموال ، هـذه الصيحات أضاعت فى خلالها قصف المدافـع الأمريكية التى أرسلت حممها إلى السفن الأسبانيـة فى مانيلا وهافانا بل إنها طغت على جلجلة المدافع اليابانية الجديدة ذات الزاوية المرتفعة التى أثبت بها هؤلاء الـمُصَفِّر الذين دللتهم وأعجبت بهم أوربا مبلغ ضعف الدعامـــة التى يستنـد إليهـا تفوق أوربا الصناعى ، والتى أعادوا بها فى «توكيدشديد» إلى ذاكرة الروسيا المطلة على حدودها الغربية تبعيتها الآسيوية .

ومهما يكن من أمر فقد وجدت الروسيا حينئذ سبيلا لتشغل نفسها «بأوربا» إذ أصبح من الثابت أن دولة النمسا والمجر لن تعيش أو تعتبر قائمـة بعـد مـوت الإمبراطور «فرنسيس يوسف» وأصبح مـدار التساؤل : أى وضـع سيكون

عليه النظام الجديد لهذه البقاع الفسيحة ؟ وهل يستقر الوضع من غير حرب؟ فقد كان هناك إلى جانب الخطط والميول المختلفة المتضاربة فى داخل الإمبراطورية الطونية مطامع الدول المجاورة ، ثم ماتتوقعه الدول البعيدة التى كانت تنشد صداما يقربها من أهدافها فى أصقاع أخرى ، وهكذا انتهى النظام الدولى لأوربا كوحدة وأصبحت الحرب المرجأة من عام ١٨٧٨ تنذر باندلاع لهيبها لنفس المشكلات وفى ذات المكان . وذلك ماحدث فى عام ١٩١٤ .

وبدأ فى نفس الوقت ذلك النظام فى الانتقال إلى صورة لاتزال قائمة إلى اليوم وتعيد إلى الذكرى حالة الدنيا فى العصر الهيلينى المتأخر والقرون الرومانية عندما قامت حينئذ ـ حول دول المدن الإغريقية فى الوسط بما فيها روما وقرطاجة ـ دائرة الأقاليم التى كانت تغذيها بالجيوش والأموال لتفصل فيما بينها ، فنشأ وقتذاك عن تركة الإسكندر الأكبر مقدونيا وسوريا ومصر ، وعن قرطاجة إفريقية وأسبانيا ، وفتحت روما شمال إيطاليا وجنوبها وضم قيصر بلاد الغال ، وقامت الحروب بسبب التنافس على من ينظم الإمبراطورية المقبلة ويحكمها ، بادئة بحرب هانيبال وسيبيو ومنتهية بما كان بين أنطونيوس وأكتافيوس ، وكما قامت الحرب فى الماضى معتمدة على موارد الأقاليم المجاورة العظيمة ، تطورت الأمور فى الأعوام السابقة لعام ١٩١٤ إذ عدت من الدول العظيمة تلك الدولة التى لها من الجنود مئات الآلاف تحت السلاح فى أوربا والتى لها من الموارد والأموال ماتستطيع به أن تضاعف هذا العدد عشرات المرات فى ساعة يجد الجد وفى زمن محدود ، والتى تملك من وراء ذلك كله فى القارات الأخرى بقاعا فسيحة تعتبر بمثابة دعامة للثروة أو قوة حربية تبعا لذلك بما فيها من قواعد للأساطيل وجنود المستعمرات

والسكان الذين ينتجون المواد الأولية والمستهلكين للمنتجات . ذلك كان إلى حد ما الوضع الراهن للامبراطورية الإنجليزية ، ولغرب إفريقية الفرنسى، ولآسيا الروسية . فى ذات الوقت الذى قضى فيه ضيق الإدراك الذى أصاب الساسة والأحزاب الألمانية بضياع الفرصة على ألمانيا عشرات من السنين لبناء إمبراطورية ألمانية استعمارية فى وسط إفريقية تكون مصدر قوة فى حالة الحرب وتقضى على احتمال العزلة التامة فيما وراء البحار . ونشأت عن التنافس فى تقسيم ما بقى من الدنيا إلى مناطق نفوذ ومصالح ـ تحرشات بالغة بين الروسيا وإنجلترا فى فارس وخليج تشيلى ، وبين إنجلترا وفرنسا فى فاشودا وبين فرنسا وألمانيا فى مراكش وبين كل هذه الدول فى الصين .

فى كل مكان كان ثمة مايدعو إلى أن حربا عظمى على وشك النشوب ، توزع فيها الخصومة توزيعا مختلفا فتكون بين الروسيا وفرنسا من جانب وانجلترا واليابان من الجانب الآخر ، وذلك فى حادثة فاشودا وفى الصدام الروسى اليابانى ، الى أن تمخض الموقف فى عام ١٩١٤ عن وضع غاية فى السخف ، فكان ذلك هو المحاولة الأخيرة للفصل عن طريق الحرب فى المسائل العظمى المعقدة من زمن بعيد على أرض ألمانيا عن طريق ضرب الحصار عليها كدولة متوسطة بين أنحاء العالم ، ولقد كان هذا وضعا سخيفا فى هدفه وفى ميدانه ولو وفقت ألمانيا حينئذ الى عقد صلح مبكر منفرد مع الروسيا ـ وكان ذلك يؤدى حتما إلى انضمام روسيا إلى جانب دول الوسط ـ لأدى ذلك إلى أن تتخذ الحرب فى الحال وضعا وأهدافا مغايرة كل المغايرة ، ونهاية متباينة كل التباين وبسبب ذلك الوضع كان من الحتم أن تنتهى الحرب بفشل محقق لأن المسائل الرئيسية لاتزال الى اليوم من غير حل كما كانت منذ القدم ،

إذ ما كان يتأتى ذلك عن طريق انضمام خصوم طبيعيين بعضهم إلى بعض كإنجلترا إلى روسيا ، وكاليابان إلى أمريكا .

وهكذا كانت تلك الحرب نهاية كل التقاليد المتصلة بالسياسة العظمى والتى كان بسمارك آخر من مثلها ، فلم يكن بين الساسة الحقراء من يفهم واجبات مركزه وموقف بلاده التاريخى ، وكم من سياسى أقر بعد انتهائها أنه انساق فى تيار الحوادث على غير هدى من دون أن يبدى أى مقاومة ، وهكذا انتهت « أوربا » كحقيقة واقعة فى غباء وتبذل .

فمن ياترى كان المنتصر ؟ ومن كان المخذول ؟ لقد اعتقد الناس فى عام ١٩١٨ أنهم كانوا يعلمون ذلك ، وكانت فرنسا على طريقتها الخاصة فى إدراك الأمور ـ مستمسكة بفكره الانتقام ، تلك الفكرة التى تعتبر آخر فكرة لوجودها السياسى كدولة عظمى . فهل تحققت هنا فى ميدان السياسة العالمى تلك القصة المأخوذة من أقصوصة كلايست وعنوانها « المبارزة (١) » ثم أكانت أوربة هى المخذولة أم قوى التقاليد ؟ لقد نشأ فى الواقع وضع جديد للعالم كأساس لأنواع الفصل المقبلة التى سوف تنطلق بقوة رهيبة . لقد اسثردت آسيا الروسيا وضمتها إلى حظيرتها ، وأصبح موضع السؤال الآن ألا يزال مركز الإمبراطورية البريطانية قائما فى أوربا ؟ فما بقى من أوربا ـ بعد أن خرجت منها روسيا ـ يقع بين آسيا وأمريكا ، أى بين الروسيا واليابان فى الشرق ، وبين أمريكا الشمالية والدومنيون الإنجليزى فى الغرب

---

(١) Von Kleist الأديب الألمانى الكبير من كبار الرومانتيكيين مات عام ١٨١١ وقصته هذه تدور حول جريمة حدثت فى القرون الوسطى بين جماعة من الأشراف وظلت غامضة إلى النهاية حتى كاد البرىء يؤخذ فيها بجريرة المذنب

وأصبح قوامه اليوم متمثلا بصفة أساسية فى ألمانيا التى استردت مكانتها القديمة كدولة تحوم ، وفى إيطاليا التى ستظل قوة طالما بقى موسولينى على قيد الحياة ، والتى يحتمل أن تكون أساسا أقوى لدولة عالمية حقة فى البحر الأبيض المتوسط ، ثم فى فرنسا التى عادت تنظر إلى نفسها من جديد كسيدة لأوربا ، وتنظر إلى عصبة الأمم فى جنيف ومجموعة الدول فى الجنوب الشرقى لأوربا كخدم لمصالحها السياسية .

ولكن ربما كانت كل هذه المظاهر مظاهر عابرة ، فانقلاب الأوضاع السياسية فى العالم يخطو سريعا إلى الأمام ، وليس ثمة من يستطيع أن يستشف ما سيئول إليه مصور آسيا وإفريقية بل أمريكا بعد بضع عشرات من السنين.

- ٥ -

إن تاريخ الإنسانية فى عصر الحضارات المتقدمة إنما هو تاريخ القوى السياسية الذى يتخذ من الحرب صورة له ، ويشمل الحرب والسلم جميعا ، فالسلم ليس إلا امتدادا للحرب بوسائل أخرى : كمحاولة المخذول التخلص من نتائجها بالمعاهدات ، وكمحاولة المنتصر أن يحافظ على هذه النتائج . وما الدولة إلا تهيؤ لوحدة قومية تهذبها الدولة وتعدها لحروب حقة محتملة ، فإن كانت صورتها وتهيؤها على جانب عظيم من القوة ، كان لها قيمة حرب كسبتها من غير التجاء إلى استعمال السلاح ، أى بمحض امتلاك القوة ، أما إذا كانت الصورة على شىء من الضعف ، فإنها تتخذ مظهر هزيمة مطردة فى علاقاتها الدولية .

إن الدول محض وحدات سياسية لقوة متجهة إلى الخارج ، منفصلة عن وحدات الجنس أو اللغة أو الدين ، فهى تسمو فوق كل ذلك ، حتى إنها إذا طابقت هذه الوحدات أو تشابكت معها فإنها تفقد قوتها ولا تزداد أبدا، وذلك بسبب المقاومة الداخلية . والسياسة الداخلية لاتقوم إلا لتأمين القوة والوحدة للسياسية الخارجية ، فإذا ما اتخذت أهدافا أخرى ، كان ذلك إيذانا بسقوط الدولة ، أى فقدها الصورة .

ويشمل وجود الدولة على صورة ، أى كدولة من الدول ـ القوة ووحدة القيادة والحكم والسلطة قبل كل شىء ، وبدونها لاتوجد دولة فى الواقع ، فالدولة والحكومة صورة واحدة إذا ما أريد إبرازها إلى حيز الوجود ، وقد كانت دول القرن الثامن عشر على صورة حددتها التقاليد الصارمة المرعية فى البيوت المالكة وحياة القصور والحياة الاجتماعية وكانت مماثلة لها إلى حد كبير ، ولم تكن طقوس المعاملة والآداب السامية فى الفعل والمعاملة إلا تعبيرا ظاهرا عنها . وكذلك « إنجلترا » كانت على « صورة » إذ استعاضت بموقعها الجغرافى كجزيرة عن معالم أساسية من معالم الدولة ، وحدد العرف القديم فى برلمانها الحاكم معالجة الأمور فى صورة فعالة ولكنها « أرستقراطية » . وما نشأت ثورة فرنسا بسبب قيام الشعب فى وجه الاستبداد ، فلم يكن له وجود حينئذ ، ولا بسبب البؤس ووطأة الدين فقد كانا أشد وطأة فى بلاد أخرى ولكنها نشأت لأن سلطان الحكومة كان قد بدأ فى الانحلال ، فالثورات لاتنشأ إلا عن انحلال السلطان فى الدولة ، ولاتستطيع ثورة الشارع أن تكون سببا للنتيجة التى تنتهى بها إذ أنها أثر من آثارها كما أن الجمهورية الحديثة ليست إلا حطام دولة ملكية أسلمت نفسها .

فى القرن التاسع عشر انتقلت الدول من صورة البيوت المالكة إلى صورة الدول القومية ، ولكن ما مغزى ذلك ؟ ـ لقد قامت بالطبع من قديم الزمن أمم أى شعوب متحضرة وتمثل هذه الوحدات فى كل ناحية مناطق نفوذ البيوت المالكة ، وكانت هذه الأمم « أفكارا » بالمعنى الذى يتحدث به « جوته » عن كيانها أى الصورة الداخلية لحياة عظيمة ، صورة تتحقق فى كل فعل وقول بصفة غير شعورية وغير ملحوظة .

أما أمة عام ١٧٨٩ فقد كانت مثلا أعلى راسيونالياروماننيكيا ، وبعبارة أخرى صورة مثالية بنزعة سياسية إن لم نقل اجتماعية صريحة . إن المثل الأعلى إنتاج فكرى ، هو عبارة تجب صياغتها لتتحول فى مدة قصيرة إلى صيغة شائقة أخاذة تلوكها الألسن دون أن يفهم الناس لها معنى . أما الأفكار فعلى عكس ذلك لاتصورها الألفاظ ، لذلك يندر او ينتفى كلية وصولها إلى وعى حامليها كما يكاد يستحيل على الغير ان يصوغها فى عبارات ، انما تحس الأفكار فى صورة الواقع وتوصف حينما تتحقق ، فهى لاتسمح بالتعريف كما أنها مقطوعة الصلة بالأمانى والأهداف . فالفكرة هى النزعة الغامضة التى تتشكل فى حياة ما ثم تندفع بقوة المصير إلى ماوراء حياتها الفردية جاهدة فى اتجاه ما . تلك هى الفكرة « الرومانية » وفكرة « الحروب الصليبية » والفكرة « الفاوستية » التى تهدف فى النهاية إلى الجهاد .

فالأمم الحقة أفكار حتى فى يومنا هذا ، أما ما تعنيه القومية منذ عام ١٧٨٩ فإنما هو الخلط بين اللغة القومية ولغة الكتابة بين سكان المدن الكبيرة ، وهى اللغة التى تتخذ وسيلة لتعلم القراءة والكتابة ، لغة الصحف اليومية ، والمطبوعات التى يعبر بها كل فرد معلنا حق الأمة وضرورة تحريرها من شىء ما .

أما الأمم الحقة فهى كسائر الكائنات الحيـــة ذات بناء عضوى داخلى خصب ، وتكوّن بمحض وجودها لونا من النظـام على حين أن الراسيونالية السياسية تفهم من الأمـة التحرر من كل نظام والكفاح لهدمـه ، فالأمم فى نظر هذه الراسيونالية كتلة لاصورة لها ولا بناء ولاسياسة لها ولاهدف ، ذلك ما أطلقت عليـه اسم « سيادة الشعب » وأغفلت به شيئا يستحق الذكر هو تفكير المزارعين وشعورهم النامى فى حيويتـه ، وازدرت فيـــه العرف والعادات لحياة الشعب الحقة التى من أهم خصائصها رهبة السلطان ، فهى لاتعرف الاحترام ولا تبجل إلا المبادىء التى تنشأ عن النظريات وبخـاصة المساواة الدهمائية أى تبديل الكيف الممقوت بالكم ، والمواهب المحسودة بالعـدد . إن القوميـة بمعناها الحديث تعتاض بالجوع عن الشعب إنهـا ثورية وحضرية فى صميمها .

وإن من الثورية العظمى هذا المثل الأعلى ، الذى هو حكم الشعب نفسه بنفسه فإذا كان الجيش يستطيع أن يقود نفسه بنفسه ، فقد يستطيع الشعب ذلك . فلا بد للشعب إذن من أن يحكم ، بل إنه ليرغب فى ذلك طالما كان متمتعا بغرائزه السليمـة ، ولـكن المقصود بذلك قطعـا شىء آخـــر يهـدف إليـه هؤلاء الدعاة ، وذلك هو التمثيل الشعبى الذى يلعب الدور الأول فى كل حركة من هذه الحركات فتظهر فى الحال جماعة ينعتون أنفسهم بممثلى الشعب وهم فى الواقع لايرمون إلى خدمة الشعب وإنمـا إلى استغلاله لغاياتهم القذرة التى يعتبر أقلها خطرا إشباع نزعـــة الزهو فى أنفسهم ، إنهم يكافحون قوى التقاليد ليحلوا أنفسهم محلها ، ويحاربون نظام الدولة لأنه يعوق لون نشاطهم الخاص . إنهم يكافحون كل أنواع السلطـة لأنهم لا يريدون أن يحملوا أية

مسئولية أمام أحد ، بل إنهم ليفرون من طريقها . ان كل الدساتير لاتحتوى مثلا واحدا لهيئة تقف أمامها الأحزاب موقف المسئولية ، انها تكافح فوق كل شيء الصورة الحضارية للدولة ، الصورة التى نمت ونضجت على مهل لأنه ليس لدى هذه الأحزاب مافى المجتمع العريق ، مجتمع القرن الثامن عشر بل انها لتحس فيه ما لايحسه رجل الحضارة من اكراه وكبت . وهكذا تنشأ ديموقراطية القرن ، أى اللاصورية بكامل معناها كمبدأ ، البرلمانية كفوضى دستورية ، الجمهورية كإنكار لأى لون من ألوان السلطة .

وهكذا ازدادت الدول الغربية فى لا صوريتها كلما اشتد اندفاعها فيما سمته « تقدما » فى الحكم ، تلك هى الفوضى التى دفعت « مسترنخ » الى مكافحة الديموقراطية دون تفريق بين اتجاهاتها .

يستوى فى ذلك الاتجاه الرومانتيكى لحروب التحرير ، والراسيونالى لهادمى الباستيل ، والجامع بين النزعتين فى عام ١٨٤٨ ، تلك الفوضى التى جعلته يقف موقف المحافظ أمام كل اصلاح فلقد نشأت منذ ذلك الوقت وفى كل البلدان ـ الأحزاب السياسية التى هى عبارة عن تجمع أفراد وجماعات من مستغلى السياسة ، الذين تحيط بمنشئهم وخلقهم وسلوكهم ودوافعهم الريب والشكوك والشبه ، قاموا بين الصحفيين والمحامين والمضاربين والأدباء ، وموظفى الأحزاب ، لقد كان حكمهم مجرد قيام على مصالحهم الخاصة . ولئن كان الملوك والوزراء على الدوام مسئولين أمام جهة ما ـ كان الرأى العام أقلها ـ لقد تحررت هذه الشراذم من كل مسئولية ، فالصحافة التى كانت فى الأصل صورة الرأى العام أصبحت لاتخدم الا من يشتريها بالمال ، والانتخابات التى رسمت لتكون مظهر هذا الرأى لم تصل الى النصر الا بمن كان اكثر إغداقا

للمال . وإذا كان قد بقى شىء من الحكم الذى يصدر عن وحى الضمير أوشىء من السلطان ، فإنما ذلك فضلة من فضلات صورة القرن الثامن عشر يتمثل ذلك فى هيئة الملكية وإن كان فيها دستورية ، وفى طبقة الضباط ، وفى التقاليد الدبلوماسية ، وفى التقاليد البرلمانية العتيقة كما فى إنجلترا ولا سيما فى مجلس اللوردات وفى حزبيها السياسيين . وإلى كل هذا يعود الفضل فى كل ماتم من أعمال إنشائية على الرغم من وجود المجالس النيابية . فلولم يعتمد بسمارك على مليكه لسقط فريسة للديموقراطية فى لمح البصر ، وهذا هوماأدى إلى أن ينظر هؤلاء المتحذلقون السياسيون البرلمانيون إلى هذه القوى التقليدية بعين الريبة والبغض ، فحاربوها فى المبدأ حرب الخصيم ، من غير ما هوادة ، ولا اعتبار للنتائج الخارجية ، وهكذا تحولت السياسة الداخلية فى كل مكان إلى ميدان له ـ من الأوضاع المغتصبة له ـ اختصاص يتعدى بكثير اختصاصه الطبيعى ، واجتذب إليه نشاط جميع الساسة المجربين ، واستهلك وقتهم وقوتهم ، حتى نُسى أو تُنُوسى المعنى الأصلى لقيادة الدولة ، أى قيادتها فى السياسة الخارجية . هذه هى الحالة المليئة بالفوضى التى تدعى اليوم بالديموقراطية والتى تندفع بهدمها السيادة الملكية عن طريق راسيونالياتها السياسية الدهمائية إلى قيصرية المستقبل التى أخذت فى الظهور الخافت بنزعاتها الديكتاتورية والتى قدر لها أن تسيطر سيطرة مطلقة على ميدان من حطام التقاليد التاريخية .

- ٦ -

ولقد كان من أخطر الأعراض لانحلال سلطة الدولة تلك الحقيقة التى سلم بها الجميع فى القرن التاسع عشر وهى أن الاقتصاد أهم من السياسة ، ولا يكاد يوجد بين من يتصلون بالأمور الفاصلة بسبب من ينكر هذا الأمر بصفة قطعية ، وأصبح لايقتصر الأمر على النظر إلى السلطة السياسية كعنصر من عناصر الحياة الرسمية مهمته الأولى إن لم تكن الوحيدة خدمة الاقتصاد بل إلى مطالبتها بالتغالى فى إشباع رغبة الاقتصاديين وخدمة وجهة نظرهم بأكمل مايمكن ، وأن تخضع فى نهاية الأمر لقيادة زعماء الاقتصاد . ذلك ماحصل إذاً على صورة متسعة ، أما مدى نجاحه فذلك ما ينبئنا به تاريخ ذلك العصر .

والواقع أن السياسة والاقتصاد لا انفصال بينهما فى حياة الشعوب ، فهما كاينبغى أن يتقرر دائما فى الأذهان جانبان لنفس الحياة ، وموقف أحدهما من الآخر موقف قيادة السفينة من مصير حمولتها فعلى ظهر السفينة يكون الربان الشخص الأول لا التاجر الذى يملك المتاع ، فإذا ساد اليوم الرأى القائل بأن الزعامة الاقتصادية هى العنصر الأقوى ، فإن مبعث ذلك هو أن القيادة السياسية قد سقطت فريسة للفوضى الحزبية وأصبحت غير جديرة باسم القيادة ، ولذلك تبدو الزعامة الاقتصادية كأنها أعلى شأنا ، ولكن هل يلزم أن يكون المنزل الذى يبقى قائما بين حطام غيره من المنازل عقب زلزال من الزلازل هو أهمها ؟ فطالما كان التاريخ يسير على صورة ولم ينحدر بعد إلى الصخب والثورة فلن يتأتى للزعامة الاقتصادية أن تكون يوما ما

صاحبة الفصل فى أمر من الأمور، بل إنها على العكس من ذلك تخضع للاعتبارات السياسية وتخدمها بالوسائل التى تمتلكها ، ولا يوجد اقتصاد سليم فى أى زمان أومكان بدون سياسة قوية ، على الرغم من أن المذهب المادى يقول بالعكس ذلك المذهب الذى اعتبر مؤسسة « آدم سميث » الحياة الاقتصادية حياة البشرية الحقة ، وعد جمع المال كجوهر للتاريخ ، واعتبر رجال السياسة كحشرات مؤذية ، مع أن فى إنجلترا بالذات لم يسد الاقتصاد الإنجليزى بفضل التجار وأصحاب المصانع بل بفضل السياسة الخارجية العظمى للساسة الحقيقيين من أمثال « بيت » الأكبر والأصغر . وعلى الرغم من المعارضة الحارة من جانب رجال الاقتصاد القصار النظر ، فالذين حاربوا « نابليون » واشرفوا على شفا هاوية الانهيار المالى كانوا الساسة النفعيين لأن نظرتهم امتدت إلى ماوراء ميزانية السنة التالية كما هى العادة الآن . والواقع أنه أصبح اليوم لصوت الاقتصاد فى الأمور الفاصلة الشأن الأول بسبب قيادة الساسة التافهين الذين يُسهِمُ معظمهم فى الأعمال الخاصة ، ولكنه الاقتصاد الشامل الذى لايقتصر على المصارف وغيرها من الجماعات المتنكرة فى الحزبية السياسية وغير المتنكرة فيها ، بل الذى يمتد إلى الهيئات المطالبة برفع الأجور وتقليل ساعات العمل وهى مايسمى بأحزاب العمال ، فهذه الأخيرة هى النتيجة الحتمية للأولى ، وفى ذلك مأساة كل اقتصاد يهدف إلى تأمين نفسه فى الناحية السياسية وهو نفس مابدأ فى عام ١٧٨٩ بالجيرونديين الذين رأوا فى نشاط البرجوازية الاقتصادى معنى السلطان فى الدولة ، كما أنه نفس ماحدث فى حكم « لويس فيليب » الملك البرجوازى ، وبصفة أكثر اتساعا عند ما أصبح الشعار الأخلاقى للعصر ذلك القول الشائن : « أغنوا أنفسكم » هذا الشعار الذى

أصاب خير إدراك ، وعمل به لا فى ميادين التجارة والصناعة ولا من الساسة فحسب ، بل من طائفة الأجريين الذى استغلوا فى عام ١٨٤٨ سقوط سيادة الدولة لأنفسهم ، وبذلك اكتسبت الثورة المتسلة خلال القرن بأكمله نزعة اقتصادية ، تلك الثورة التى أطلقوا عليها كلمة « ديموقراطية » وظهرت بصفة دورية فى ثورات الجموع وفى بطاقات الانتخابات وفى المتاريس وممثلى الشعب عن طريق إسقاط الوزارات ورفض اعتمادات الدولة المالية . كما أنه نفس الذى حدث فى إنجلترا حيث طبقت نقابات العمال مذهب حرية التجارة المانشسترى على تجارة السلعة المسماة « بالعمل » مما شرحه نظريا « ماركس » و « إنجلز » فى البيان الشيوعى ، وبهذا تم إنزال الاقتصاد للسياسة ، والمكتب التجارى للدولة ، وزعيم النقابة للسياسى من عرش السلطان ، وهنا لا فى أعقاب الحرب العالمية توجد بذور الكارثة الاقتصادية الحالية ، فهى فى كل وطأتها الشديدة ليست إلا نتيجة لانهيار سلطان الدولة.

ولقد كان جديرا بهذا القرن أن يعتبر بالتاريخ ، إذ لا يشمل التاريخ أى توفيق حقيق للمشروعات الاقتصادية من غير تأييد من جانب قيادة الدولة المفكرة القوية فى سياستها . ومن الخطأ أن تفهم غزوات « الفيكنج » التى استهلت بها شعوب الغرب سيادتها البحرية على هذا الأساس ، فلم تكن لها غاية صريحة إلا السلب فى حد ذاته بصرف النظر عن المسلوب نفسه ، أكان أرضا أم أناسا أم كنوزا ، فهذا أمر ثانوى ، وكانت السفينة دولة فى ذاتها وكانت خطة الرحلة والقيادة وإدارة الأعمال الحربية كلها من صميم السياسة وإذا ماتولد من السفينة أسطول أدى ذلك فى الحال إلى تأسيس دولة ذات سيادة صريحة كما حصل فى إنجلترا و نورماندیا وصقليه ، ولو كانت ألمانيا نفسها

ذات وجود سياسى لظلت « الهانزا » الألمانية دولة عظمى اقتصادية ، فمن الوقت الذى انتهى فيه الحلف القوى من المدن والذى لم يظفر بتأمين سياسى من قبل أية دولة ألمانية ، انفصلت ألمانيا عن الكتلة الاقتصادية العظمى فى الغرب ، ولم يَنْمُ فيها ثانية من شىء من ذلك إلا فى القرن التاسع عشر لا بفضل الجهود الفردية بل بفضل الرجل السياسى « بسمارك » الذى كان أساس نهضة الاقتصاد الألمانى الإمبراطورى .

لقد بدأت الإمبريالية(١) البحرية ، وهى التعبير عن النزعة الفلوستية إلى اللانهائية تتخذ صورا عظيمة عند ما أغلقت طرق المواصلات الاقتصادية إلى آسيا باستيلاء الأتراك على القسطنطينية عام ١٤٥٣ وقد كان هذا أقوى دافع إلى كشف الطريق البحرى إلى الهند الشرقية على يد البرتغاليين ، وإلى كشف أمريكا بواسطة الأسبان ، وكان وراء كل كشف دولة قوية من دول هذا العصر تسنده وتظاهره ، لا لتجنى منه ربحا تجاريا فحسب ، بل هناك دوافع أخرى كثيرة كالطمع ولذة المغامرة والاستمتاع بالحرب والتحرق للذهب ، وكان لابد من غزو هذه البلاد المكتشفة وحكمها ، والتى كان مفروضا فيها أن تدعم من سلطان « الهابسبرج » فى التكتلات الأوربية ، فالإمبراطورية التى لم تغرب عنها الشمس كانت بناء سياسيا ، وإنتاجا لقيادة سياسية متفوقة ، وبذلك فقط أمكنها أن تكون ساحة لنجاح اقتصادى .

وكذلك كانت الحال عند ما نالت انجلترا الصدارة ، فلم تكن لها قوة اقتصادية بل كان لها حكام نبلاء محنكون سواء أكانوا من المحافظين أم من الأحرار ، ولم يأت ثراء إنجلترا عن طريق إمساك الدفاتر والمضاربة ، بل عن طريق المواقع الحربية ، ولذلك كان الشعب الإنجليزى أكثر شعوب أوربا محافظة

---

(١) أى النزعة الامبراطورية كمذهب سياسى اقتصادى

وإن يكن « ليراليا » فى فكره أو قوله ، كان شعبا محافظا بمعنى الاستمساك بكل صور السلطة الغابرة حتى فى أدق طقوس المعاملة ، وإن كانت هذه الصورة موضع السخرية أو الازدراء أحيانا ، وقد احتفظوا بالصور القديمة لأنه لم يكن هناك صور جديدة أقوى منها ، كشأنها فى الحزبين السياسيين ، والطريقة التى تفصل بها الحكومة فى الأمور بمعزل عن البرلمان ثم هى تستخدم مجلس اللوردات والعرش كعوامل مهلة فى المواقف الدقيقة ، وكم من مرة أنقذت هذه الغريزة إنجلترا ، وإذا أصابها الخمود اليوم فإنما يعنى ذلك فقد المركز الاقتصادى العالمى لا السياسى فقط .

إن ميرابو وتاليران ومترنيخ وولنجتون لم يكونوا ليفقهوا شيئا فى الاقتصاد ، ولا شك فى أن هذا التقصير قد أخذ عليهم ، ولكن الحالة كانت تزداد سوءا لو كان بدل كل منهم خبير اقتصادى يحاول مقارفة السياسة فحالما آلت الإمبريالية إلى أيدى رجال الأعمال الإقتصاديين الماديين وانتهت بذلك قوتها السياسية انحدرت معها سريعا من ميدان المصالح الاقتصادية للطبقة المتزعمة إلى ساحة للحرب بين الطبقات التى قام بها العمل ، وهكذا انهارت الاقتصاديات القومية العظمى جاذبة معها الدول العظمى إلى الهاوية .

- ٧ -

لقد كانت الجيوش العاملة فى القرن التاسع عشر أزخر تعبير فى نتائجه عن الثورة القومية منذ عام ١٧٨٩ ، إذ حلت جيوش الجموع المؤسسة على الخدمة العسكرية العامة محل الجيوش المحترفة للدول الملكية ، وكان ذلك فى صميمه من المثل اليعقوبية العليا ، لأن التجنيد العام لسنة ١٧٩٢ تمشى مع

الأمة على أنها جموع ، تلك الأمة التي وجب أن تنظم على أساس المساواة التامة فى داخلها ، وأغفل صورتها القديمة ، صورة أمة مؤلفة على هيئة طبقات عضـــوية .

أما ما ظهر إذ ذاك فى هجات هـذه الجموع الموحدة فى زيها العسكرى من الابتهاج الجميل الوحشى بالمغامرة والسيادة والنصر ، وهو شعور جـديد كل الجدة ، وبعيد كل البعد عن الروح النظرية ، بل هو ماتبقى من العنصر السليم ، ولم يزل بعد حيا فى هذه الشعوب من بطولة نورديكية ـ أما ذلك الذى ظهر فقد كان تجربة خبرها المتحمسون لحقوق الإنسان فى أسرع وقت ممكن .

لقد صار الدم من جديد أقوى من الفكـرة ، وكان التحمس النظرى للمثل الأعلى المتمثل فى الشعب المسلح يتجه إلى غرض مقصود راسيونالى ، يختلف كل الاختلاف عن إطلاق الغرائز البدائية . كذلك كان الشأن بعد حروب التحرير فى كل شىء وقبل كل شىء ، وقـد انتهى الموقف من جـرّاء ذلك فى ألمـانيا ذاتها إلى ثورتى ١٨٣٠ ، ١٨٤٨ . وقدر لهـذه الجيوش التى لاتفـرق بين الشريف والوضيع والغنى والفقير أن تكون صورة للأمة المقبلة التى تزول فيها ـ بطريقة ما ـ كل فوارق المرتبة والملكية والموهبـة . ولقـد كانت تلك هى الفكرة الخفية التى انطوت عليها نفوس الكثير من المتطوعين عام ١٨١٣ ومن الأدباء الألمانيين الشبان (هاينه ، هيرفيج ، فرايلجرات) ومن أتبـاع كنيسة بولس الرسول (مثـل أولاند) إذ كان الأمر الفاصل لديهم هـو مبـدأ المساواة غـير العضوية ، ولم يكن أمثال ياهن وآرندت ، ليقدروا أن الهتاف الذى دوّى لأول مرة فى مذابح سبتمبر ســـنة ١٧٩٢ ـ ما كان يعنى غير المساواة .

ولقد نسى الناس حقيقة واقعة أساسية : هى أن الأغانى الشعبية الرومانتيكية لم تتغن إلا ببطولة الجندى العادى ، فلقد كانت تلك الجيوش سطحية إلى حد كبير ، وما قيمتها الأثيلة ومجدها الموطد إلا فى فن الحرب وسمو الروح ، ودقة النظام ، وحسن الإعداد ، وكل هذه المناقب تتوقف على خلال جماعة الضباط ، وهى تنزع إلى الحرص على تقاليد القرن الثامن عشر . وكان اليعقوبيون يرون قيمة الفصيلة من الناحية الأدبية فيمن يقوم على أمورها من الضباط ، وقد قرر نابليون فى سانت هيلانه أنه ما كان ليقهر لو أتيح أن يكون له إلى جانب مادة جيشه الفخمة فريق من الضباط يشاكل الفريق النمساوى الذى احتفظ بتقاليد الفروسية من وفاء ونبل ونظام صامت إيثارى . ولا عجب فإن الفصيلة الباسلة لتتحدر سريعا إلى قطيع جبان خائر لاحول له حين تنحرف القيادة عن مبدئها أو موقفها ، وحين تسلم نفسها كما حدث سنة ١٩١٨ . ولو صمدت الجيوش - وهى أداة من أدوات السلطة للانحلال السريع الذى أوهى مظاهر القوة والسلطان فى أوربا - لعد صمودها إحدى المعجزات حقا . وهذا هو عينه الذى حدث ، فإن الجيوش العظيمة وهى أكثر العناصر محافظة فى القرن التاسع عشر - كان لها وحدها دون الملكية التى ضعفت ورجال الدين والنبلاء فضلُ إنقاذ سلطة الدولة ودعمها والإبقاء على حيويتها أمام النزعات الفوضوية للحركة الليبرالية ، ولقد كتب متترنيخ عام ١٨٤٩ « لايستطيع أحد أن يقدر ذلك الذى سيظهر من تحت الحطام ، فلقد بدا سبب من اسباب القوة لا فى النمسا وحدها بل فى جميع انحاء اوربة التى عانت وطأة شديدة » ذلك السبب هو نهضة الجيوش العاملة . على انها ليست بالسبب المنشىء ، وإنما هى سبب صائن فحسب ، على حين

يتطلب الموقف الإنشاء .

وإذا عاد الفضل فى إنقاذ سلطة الدولة ودعمها إلى صرامة مبادىء الضباط وخلالهم ، واحتذاء الجنود حذوهم وعملهم على شاكلتهم فإن تبعة ما قام من ثورات ومذابح محلية عام ١٨٤٨ وما بعده تقع على عواتق الضباط حين تفشّاهم الانحطاط المعنوى . فلقد كان بأسبانيا وفرنسا وروسيا والنمسا قواد مُتسيِّسون (يتكلفون السياسة وليسوا بمدربين عليها) خولوا أنفسهم ـ معتزين بمرتبتهم الحربية ـ السلطة والحق فى أحكامهم السياسية ، ثم حاولوا التصرف على أساسها ، ولكن طبقة الضباط ككتلة ووحدة كانت تحرم على نفسها أين كانت ـ أن ترى رأيا سياسيا خاصا .

وفى أعوام ١٨٣٠ ، ١٨٤٨ ، ١٨٧٠ لم تصمد التيجان ، وإنما صمدت الجيوش ، فهى التى منعت الحروب منذ عام ١٨٧٠ ، ذلك أن أحدا لم يجرؤ على إطلاق هذه القوى الهائلة مخافة النتائج الجسيمة التى يستحيل تقديرها ، فساد السلم طوال فترة خارقة للعادة امتدت من عام ١٨٧٠ إلى ١٩١٤ فكان أن جعلت تقدير الأمور على وجهها الصحيح أدنى إلى المستحيل . ولذا حلت الحرب بالوساطة أو الحرب المقنعة محل الحرب المباشرة ، فبولغ فى العناية بالاستعداد الحربى ، وسرعة التسلح ، والمخترعات الفنية . هذه الحرب المقنعة لها انتصاراتها وهزائمها بل لها معاهدات صلحها القصيرة المدى أيضا وهى تتطلب وجود ثروة قومية لاتتوافر إلا فى البلدان ذوات الصناعات الثقيلة الكبرى التى تعتمد فى قيامها على وجود الفحم . وقد نشأ عن ذلك أن أصبح الاقتصاد الصناعى الكبير نفسه سلاحا ، فليس من شك فى أن الحرب تتطلب المال ، وأن الإعداد لها يستدعى ما هو أكثر من المال إذ يستلزم توطيد

دعائم الاقتصاد الصناعى توطيدا يكفل كثرة إنتاجه ، وبهذه الكثرة يتحقق للاجراءات الحربية التوفيق ، فنجاحها متوقف على إمكان الحصول على استهلاك غير محدود فى كثير من المواد ولا سيما الذخيرة .

هذه الحقيقة لم يدركها الناس إلا فى بطء ، فبسمارك فى مفاوضات الصلح عام ١٨٧١ قد حصر تقديره فى النقط الحربية كمتس وبلفور ، ولم يكترث مطلقا لمناطق اللورين الغنية بالخيرات المعدنية . فلما اتضحت العلاقة التامة بين الاقتصاد والحرب ، وبين الفحم والمدفع انقلب الوضع ، فأصبح الاقتصاد القومى المؤثل هو الأساس المتين والعامل الفاصل وذا الاعتبار الأول لقيام الحرب . ونهض الفحم بخدمة المدافع ، وتزايد فى اطراد .

ولما انتشرت الروح البرلمانية وتقوضت فكرة الدولة كأثر لسيادة هذه الروح ، وشارك عالمُ الاقتصاد ـ من اتحاد أرباب المصانع إلى اتحاد العمال ـ فى الحكم ـ أخذت أهداف السياسة الخارجية ووسائلها تتحدد وتتعين ، فجنحت السياسة الحربية والاستعمارية إلى الحرب فى سبيل الأسواق ومصادر المواد الأولية للصناعة ولا سيما ينابيع الزيت التى ناجزت الفحم وغلبته على منزلته وهل كان من المستطاع وجود السيارات والطيارات والغواصات من دون هذه المحركات المدارة بالزيت ؟

ولقد تحول الاستعداد للحرب البحرية إلى هذا الاتجاه : فلقد كانت السفن التجارية المسلحة فى بداية الحرب الأهلية ـ لا يقل مستواها عن السفن الحربية المعاصرة ، وبعد ثلاث سنوات سيطرت السفن المدرعة على البحار ، وخضعت هذه البوارج للتطور السريع فى نماذجها ، واطردت الزيادة المتتابعة فى بنائها حتى لقد أصبح النموذج منها يعد عتيقا بعد قليل من السنين . هذه

الحصون العائمة بضخامتها الهائلة واستهلاكها العظيم للفحم صارت منذ مستهل القرن الحالى فى حاجة ماسة إلى قواعد بحرية على الساحل .

وبذا استؤنف الكفاح بين اليابسة والبحار فى سبيل الأولوية ، واتجه من جديد اتجاها واضحا إلى جانب اليابسة ، فساد البحار من امتلك القواعد البحرية بحياضها ومستودعاتها وعتادها ، من غير اعتداد بقوة الأسطول . ومن أجل هذه السيادة سيطر البريطانيون على جبل طارق ومالطة وعدن وسنغافورة وجزائر برمودة ، وكثير غيرها من القواعد البحرية المتشابهة واعتمدوا فى حياطة هذه السيادة على ثروة مستعمراتهم التى قامت من أجل السفن ، ولم تقم السفن من أجلها .

والواقع أن وجود هذه الأساطيل لم يتمخض عن أى فصل فى معركة حربية ما ، ولم يحدث قط على سطح البحر ما ينطبق على خطط أركان الحرب كأن الناس قد فقدوا معنى الحرب ، وعميت أبصارهم عن المعركة الفاصلة على سطح البحار ، فلم يكن منهم إلا محاولة تعجيز الأسطول المعادى بعزله عن السواحل ، وهذا النضال النظرى الذى ثار حول قيمة البوارج بعد الحرب الروسية اليابانية ـ لم يكن على ما قامت به فى دور التجربة ، وإنما كان على الطراز الذى بنته اليابان منها .

وفى الحرب العظمى قبعت البوارج فى موانيها حتى جاز القول بأن من المستطاع التجاوز عن وجودها ، وما كانت معركة إسكاجراك إلا هجمة مباغتة ودعوة للنزال ، عرف الأسطول الإنجليزى كيف يتوقاها . وليس من شك فى أن تطور السلاح الجوى قد جعل بقاء عصر السفن المدرعة موضعا للتساؤل ، وإن كان من المحتمل أن تبقى القرصنة البحرية ، وينبغى أن نذكر

هنا أن جميع السفن الكبيرة التي تقادم عليها العهد في خلال السنين الخمسين الأخيرة فأقصيت عن الخدمة ـ لم تطلق في حياتها طلقة واحدة على سفينة من لداتها .

وفي خلال الحرب العظمى حدث انقلاب كامل آخر على اليابسة ، ذلك أن الجيوش الأهلية المبنية على الكم والتي أدركت في تطورها أوج استطاعتها فأصبحت على عكس الأسطول البحري سلاحا مستنفدا ـ قد انتهت إلى حرب الخنادق ، تلك الحرب التي استمر بها حصار ألمانيا بما احتوته من هجمات واندفاعات ، حملتها على التسليم المطلق آخر الأمر .

وبذا انتصر الكم على الكيف ، وتغلبت الآلة على الحياة ، والكثرة على السرعة ، تلك السرعة التي أدخلها « نابليون في الفن الحربي على أوضح صورة مستطاعة إبان حملة ١٨٠٥ ، فقد بلغت « أوسترليتز » عن طريق « أولم » في بضع أسابيع ، ثم أمعنت تلك السرعة في زيادة مطردة على يد الأمريكيين فيما بين ١٨٦١ ، ١٨٦٥ باستعمال السكك الحديدية ، وبهذه الوسيلة تمكنت ألمانيا من نقل جيوش كاملة بين الشرق والغرب . ولولاها لم تتخذ هذه الحرب الصورة التي بدت عليها ، ولم تنته في المدة التي استغرقتها .

ويسجل التاريخ انقلابين عظيمين كاملين في العمليات الحربية زادت بهما سرعة الحركة زيادة مباغتة : أما أولها فيقع في القرون الأولى بعد العام الألف قبل الميلاد حينما ظهر جواد الركوب في مكان ما من السهول الفسيحة الممتدة بين « الطونا والأمور » وبه تفوقت الجيوش الراكبة على المشاة تفوقا عظيما إذ أتيح لها أن تظهر وتختفي من غير أن تمكن خصمها من الهجوم عليها ومطاردتها ، ولهذا كان مافعلته الشعوب القاطنة فيما بين الإطلنطيق والمحيط

الهادى من ضم الفرسان إلى المشاة - عبثا أى عبث ، إذ عاقت المشاة حرية حركة الفرسان ، ومن العبث أيضا ما كان من حياطة كل من الإمبراطوريتين الرومانية والصينية بسور وخنادق . ولقد عثر فى هذه الأيام على السور الرومانى فى الصحراء السورية العربية ، على حين لايزال السور الصينى يخترق نصف آسيا . ووجه العبث فى هذا العمل أنه لم يكن من اليسير جمع الجيوش وراء هذه الأسوار فى السرعة التى تستدعيها الهجات المباغتة . وكم من مرة سقط كل العالم الصينى والهندى والرومانى والعربى والغربى بسكانه الزراع المستقرين فريسة للرعب من البارثيين والهون والشيئيين والمغول والأتراك . ويبدو أن حياة الفروسية وحياة الفلاحة لاتتفقان فى الروح . هذا وإن الانتصارات التى أحرزتها جموع جنكيز خان لتعود إلى عامل التفوق فى السرعة .

أما الانقلاب الثانى ، فنحن فى عصره الآن ، إذ استبدل بحصان الفارس الحصان البخارى للصناعة الفاوستية . ولقد طافت بفرق الفرسان الشهيرة فى فى أوربة الغربية بالذات ، وغمرتها - هالة من الفخار الفروسى ، ولذة المغامرة والبطولة من قبل أن تشب الحرب العظمى وفى أوائلها ، وكان الفرسان خلال عدة قرون بمثابة الفيكينج للبابسة لا للبحر ، وتزايد على الأيام تمثيل مهنة الجندى الحقة الأصيلة وحياته على نحو أقوى وضوحا منه فى مشاة الخدمة الإجبارية ، وسيختلف ذلك فى المستقبل ، إذ ستحل الطائرات وقطعان الدبابات محلها ، وستتجاوز بذلك حرية الحركة حدود الإمكانيات العضوية إلى الإمكانيات غير العضوية للآلة . وسيكون ذلك بالأحرى للآلة الفردية التى تختلف عن وابل النيران غير الشخصى ، وهو المنبعث عن الخنادق

وبهذا سنزيد من جديد أعباء البطولة الشخصية .

ولكن هناك حقيقة مقبلة تتدخل فى مصير الجيوش العاملة تدخلا أبلغ بكثير من هذا الحسم بين الكم والحركة ، وستمهد حتما للقضاء على مبدأ الخدمة العامة الإلزامية الذى عم القرن الماضى . لقد توقف أمام الجيوش إلى عام ١٩١٤ انهيار السلطة باستبدال الحزب بالدولة . وبعبارة أخرى توقفت الفوضى المطردة ، فطالما كان هناك رهط ثابت من الضباط يقوم على إعداد جند يستبدلون سراعا ، ولا يُحَمَّسون - بقيت القيم الخلقية لشرف السلاح والوفاء والطاعة الصامتة سليمة ، وهى عامل قوى من عوامل الاستقرار ، بل هى روح فردريك الأعظم ، ونابليون ، وولنجتون ، أى روح القرن الثامن عشر .

وهذه الروح لم تهتز فى أصولها إلا فى حرب الخنادق «السكون» (١) حين واجه الضباط الشبان المدربون فى عجلة جنوداً أسنّ منهم وقد طووا الأعوام الطويلة فى ساحة الوغى .

وهنا أيضا أوقف السلم الطويل الذى ظل قائما من ١٨٧٠ إلى ١٩١٤ التطور الذى وجب أن يصاحب الانهيار المطرد لوجود الأمم على صورة .

وأصبح للجنود بما فيهم صغار الضباط الذين نظروا إلى العالم من أسفل، ولم يكونوا قادة بالدربة على المهنة والأصالة فيها بل بطريق الممارسة العابرة السريعة - أصبح لهم رأى خاص فى النظم السياسية التى يمكن أن تكون (الإمكانيات السياسية) ووسائل تنفيذها ، وقد وفدت عليهم هذه النظم من الخارج ، أو من العدو ، أو من الأحزاب الراديكالية فى بلادهم عن طريق

---

(1) Stellungskrieg

الدعاية وبؤر الانحلال .

وبهذا . وجدت الفوضى سبيلها إلى داخل الجيوش ، وهى التى استطاعت وحـــدها من قبل درأها عنها بعيدا ، ودامت داخـل ثكنات جيوش السلم العاملة بعد انقضاء الحرب فى كل الأنحاء .

ويضاف إلى هذا أن الرجل العادى من صفوف الشعب ـ وقـد كان شأنه شأن السياسى المحترف والزعيم الحزبى الراديكالى ـ ظـــل أربعين عاما مشفقا ومغرقا فى تقدير مدى الفعل المجهـول للجيوش الحديثـة حين تواجه الجيوش الأجنبية أو الثورات . وقد أسقط من حسابه توقع المقـاومة وهى أمر ممكن ، وأدى ذلك إلى أن تقلع الأحزاب الاشتراكية الديموقراطية فى كل مكان قبل الحرب عن التفكير فى الثورة ، وإن أبقت عـــلى لفظهـا فحسب فى منهجها .

ولهذا سهل على فصيلة صغيرة أن تكبح جماح آلاف من المدنيين الهائجين على حين أثبتت الحرب ضآلة مايمكن أن تفعله الفصيلة القوية من الجنـد بمدفعيتها الثقيلة أمام مدننا الحجرية إذا مادوفع عنها منزلا منزلا .

ولـكن الجيش النظامى فقـد فى الثورات ماكان يحيط به من هالة المنعـة والهيبة إذ صار لكل مجند رأى فى نفسه يخالف تماما ماكان يراه المجندون قبل الحرب : فهو لم يعد يشعر بأنه محض وسيلة ومطيـــة للسلطة الآمرة . وإنى ليخامرنى لهذا أكبر الشك فى إمكان القيام بتعبئة عامة فى فرنسا (مثلا) لمواجهة عدو ذى خطر . وليت شعرى ماذا يحدث لو هربت الجموع من واجب تقديم أنفسهم للخدمة العسكرية ؟ وأى قيمة لجنود لايعرف الإنسان مدى انحلالهم الأدبى ، وأيهـا يستطاع الاعتماد عليه ؟

هـذه نهاية الخدمـــة العامة الإجبارية التى بدأت عام ١٧٩٢ عام الحماسة القومية للحرب ، ثم هى بداية الجيوش المتطوعـة من المحترفين الذين يجمعهم لواء قائد قومى ، أو يؤلف بينهم غرض عظيم .. وهذا عينه ما حـدث فى كل الحضارات ، فلقد استبدل بالجيوش المقـــترعة من الزراع الجيوش المحترفة المأجورة منذ عهد ماريوس ، ثم فيما أعقب ذلك من أحداث .

وإن ذلك لهو السبيل إلى القيصرية ، والثورة الغريزية للدم وللجنس الذى لم يستنفد ، وللارادة الفطرية تثور فى وجـه القـوى المادية للمال والفـكر ، وللمذاهب الفوضوية ، وللحضارية التى تستغلها بادئة بالديموقراطية ومنتهيـة بالبلوتوقراطية .

وترتب على ذلك أن لجأت هذه القوى المادية والدهمائية منذ نهاية القرن الثامن عشر إلى وسائل حربية تلائم تفكيرها وخبرتها ، وتتمثل فى أساليب للحرب الاقتصادية ، وكثيرا ما أدت هذه الحرب فى فـترة السلم إلى معـارك وانتصارات ومعاهـدات صلح اقتصادية نظر إليها رجال الحرب من أمثـال مولتكه بازدراء ، واستخفوا بقوة تأثيرها .

أما الساسة المحدثون فقد كانوا اكثر تقديرا لها إذ بدأ اتجاه تفكيرهم اولا نحـو الاقتصاد بتأثير نشأتهم وميولهم الطبيعيـة ، ثم انحـرف إلى السياسـة .

هـذه الوسائل المتمثلة فى الحـرب الاقتصـادية نشأت بجـانب الجيوش والأساطيل التى اعدت فى زيادة مطردة لأغراض بعيدة كل البعد عن مصلحة الشعوب ذاتها إذ اقتصرت على خدمة المصالح التجارية لجماعات شتى . وإن فى « اسم حرب الأفيون » لشاهداً صارخا على مانقول .

وقد هيأ الانحلال الزاحف المطرد فى سلطان الدولة عن طريق البرلمانية

الفرصة لاستخدام عوامل هذه القوة الدولية فى ذلك السبيل .

وتم ذلك ـ بخاصة ـ فى إنجلترا التى تحولت تحولا تاما فى وسط القرن التاسع عشر إلى أمة من « أرباب الحوانيت » ، وأخذت بقاعدة تقضى بألا يلجأ إلى الحرب لتحطيم قوة العدو وإخضاعها ، وأن يجهز عليه ـ اقتصاديا ـ باعتباره منافسا ، ويستبق باعتباره مستهلكا للسلع الإنجليزية . وإن هذه الحرب الاقتصادية لأبقى أثراً فى خضد شوكة العدو من حرب الميدان . ولقد كانت هدف الأمبريالية الليبرالية القاضية بحرية التجارة منذ عهد «روبرت بيل» ولقد عمد إليها نابليون فعد الحجر القارى Kontinentalspeve وسيلة حربية مُصْمِية تنال إنجلترا فى الصميم ، لأنه لم يكن حيالها ليملك غيرها من وسيلة .

هذا ، وفى الوقت الذى لم يصنع نابليون فيه فى أوربة إلا أن أقام عروشا ـ كان بيت (Pitt) يؤسس فى أنحاء العالم القاصية مستعمرات تجارية وزراعية .

ويخطىء من يقول إن إنجلترا فى عام ١٩١٤ قد شبت الحرب مناصرة لفرنسا أو بلجيكا ، فالحقُّ أنها ما أثارتها إلا من أجل عطلة نهاية الأسبوع أى للقضاء على منافسة ألمانيا فى الميدان الاقتصادى قضاء سرمدا إن استطاعت .

وفى عام ١٩١٦ بدأت إلى جانب الحرب العسكرية الحرب الاقتصادية المرسومة ، والتى يجب أن تستمر إذا ماقدر للأولى أن تضع أوزارها . ومنذ ذلك الوقت أصبحت الأهداف تتجه ذلك الاتجاه بصفة قاطعة دائمة .

ولم تكن معاهدات فرساى اساسا لأى لون من الوان السلم . بل كانت

لتنظيم القوى الدولية على نحو يكفل تحقيق الأهداف فى أى وقت ، بمطالب ووسائل جديدة . ومن أجل هذا تضمنت تسليم المستعمرات والأسطول التجارى ووضع اليد على الأرصدة المالية والممتلكات والباتنتات فى جميع البلدان ، وسلخ المناطق الصناعية كسيليزيا العليا ومنطقة السار ، وإدخال النظام الجمهورى الذى كان القصد منه القضاء على الصناعة بالنقابات التى أصبحت مطلقة السلطة ، وأخيرا تضمنت التعويضات التى لم تكن عند إنجلترا ـ على الأقل ـ تعويضات حربية بل إعناتا مستمرا للصناعة الألمانية يسرع بها إلى الموت .

ولقد بدأت ـ على غير تقدير من الدول التى أملت المعاهدة ـ حرب اقتصادية جديدة نحن الآن فى غمارها ، وإليها يعود معظم التبعة فى هذه الأزمة العالمية الاقتصادية الراهنة ، إذ تغير تغيرا تاما توزيع القوى العالمية بسبب ازدياد قوة الولايات المتحدة الأمريكية ، وماليتها الكبرى وبسبب الشكل الجديد للامبراطورية الروسية ، وبذا استحال كل من الخصوم والوسائل إلى خصوم ووسائل أخرى .

هذه الحرب الحالية ذات الوسائل الاقتصادية ، والتى يحتمل أن تدعى فى عصر مقبل بالحرب العالمية الثانية ـ قد أتت بصور جديدة كل الجدة للهجوم الاقتصادى البولشفيكى تتمثل فى مشروع خمس السنوات ، وفى هجوم الدولار والفرنك على الجنيه الاسترلينى . وفى ألوان من التضخم النقدى التى تقوم بها بيوت المضاربة (البورصات) الأجنبية ، للقضاء على ثروات قومية كاملة وفى الأوتاركية فى مختلف الأنظمة القومية الاقتصادية التى ما أقيمت إلا لتكون وسيلة للقضاء على صادرات البلاد المعادية اى على اقتصاد امم كبيرة لتقويض

أسس حياتها ، وما مشروع « دويس ويونج » إلا محاولات لجماعات من الماليين تهدف إلى تسخير دول بأجمعها لحساب مصارف معينة . فلباب هدفهم إنقاذ المقدرة الحيوية لشعوبهم الخاصة بالقضاء عليها فى شعوب أجنبية . إنها الحرب على قاع السفن . وهنا ترتد ثانية إلى مكانتها ـ بعد استنفاد الوسائل الأخرى ـ أقوم الوسائل وأعرقها ، أعنى الوسائل الحربية ، فالدولة القوية ترغم الدولة التى دونها قوة على التخلى عن دفاعها الاقتصادى ، والتسليم ، ثم الفناء . فالمدافع أقوى من الفحم فى سبيل هذه الغاية .

وليس من السهل تقدير الحال التى ستنتهى بها هذه الحرب الاقتصادية ولكن المحقق أنها سترد على الدولة من جديد حقوقها التاريخية باعتبارها سلطة تستند إلى جيوش محترفة موثوق بها لقيامها على التطوع ، جيوش أحسن تدريبا ، وأعظم حركة ، ثم تُزحزِحُ الاقتصاد إلى الخط الخلفى حيث مكانه الطبيعى .

- ٨ -

وفى هذا العصر من التحول واللاصورية « مابين العصرين » والذى يبدو أنه لم يبلغ بعد أوج اضطرابه وتشكلاته العابرة ـ أخذت نزعات جديدة تظهر مشيرة إلى ماوراء الحاضر فى المستقبل الأبعد . فهذه الدول التى قدر لها أن تقوم بالمعركة الأخيرة للسيادة على كوكبنا هذا ـ شرعت تتشكل صورة ووضعا . وسوف تستطيع واحدة منها فحسب أن تطلق اسمها على إمبراطورية العالم إن لم يدهمها قضاء هائل يسحقها قبل اكتمالها . إن هناك أمما من نوع جديد توشك أن تظهر . أمما ليست من نوع أمم اليوم الذى تمثله مجموعات

من أفراد متساوين فى الدرجة واللغة ، وليس طابعها كطابع الأمم السابقة التى عاصرت النهضة حينما كان لكل صورة ، ومعركة ، ووجه ، وفكرة ، ومسلك ، ورأى ـ أسلوب إيطالى وروح إيطالية على رغم الجزم بعدم وجود دولة ايطالية وقتئذ .

إن الأمم الفاوستية ستكون آخر القرن العشرين جموعا متجانسة انتخابية مؤلفة من أناس يجمعهم احساس واحد بالحياة ووحى متماثل ينبعث عن الضمير ويصدر عن ارادة قوية ، ويقرم ـ بالبديهة ـ على لغة واحدة ، من غير أن يميز الأمة أو يحددها معرفة هذه اللغة ، أناس من جنس قوى ولا اعنى بذلك الإيمان بالجنس على النحو الشائع اليوم ، وإنما اعنى اخص معانيه ، اعنى الغرائز القدوية التى تشمل فيما تشمل تفوق النظرة إلى الأشياء تلك النظرة التى لايستطاع اليوم فى المدن العالمية وبين كتاب الكتب فيها التفرقة بينها وبين الفكر العادى لذوى الذكاء الخالص ، اناس ولدوا للسيادة ولينظروا الى انفسهم كمطالبين بها . ان كثرة العدد اصبحت لاتعنى شيئا وقد ولى القرن الماضى الذى استبد به الكم فخر له ساجدا ، وصارت قيمة الرجل الحق كبيرة اذا قيس اليه جمع من الأرقاء والسلبيين والمتفائلين الذين يهدفون الى الهدوء ويودونه بأى ثمن ، وان كان هذا الثمن هو الحرية .

وان هذه النقلة لتماثل الانتقال من الشعب الرومانى الخاص بعصر هانيبال الى ممثلى الرومانية فى القرن الأول قبل الميلاد كاريوس وشيشرو الذين لم يكونوا رومانيين خالصين .

ويبدو ان غرب اوربة قد اضاع اهميته الفاصلة ، ولكننا اذا استثنينا الناحية السياسية لم نجده ضياع الأهمية الا فى الظاهر فحسب . فلقد ترعرعت فيه

فكرة الحضارة الغربية ، وامتدت فيه جذورها ، وفيه ستنال نصرها الأخير أو تلقى منيتها على عجل .

وإن الأمور الفاصلة - مهما يكن ميدانها - لن تكون إلا من أجل الغرب لابسبب ماله أو هناءته ، وإنما من أجل روحه . ولكن القوة فى خلال ذلك قد انتقلت منه إلى البقاع الواقعة وراء حدوده إلى آسيا وأمريكا : هناك على أفسح بقاع الأرض الداخلية فى آسيا ، وهنا فى الولايات المتحدة الأمريكية وبلاد الدوميذيون الإنجليزية الممتدتين على المحيطين التاريخيين المتصلين بقناة بناما ، ومع كل هذا فليس بين دول الأرض الحالية دولة يستطيع الإنسان أن يتنبأ لها بأى لون من ألوان القوة بعد مائة عام بل بعد خمسين عاما . بل إن الإنسان لايستطيع أن يتنبأ لها بالوجود ذاته .

وبعد فما الدولة التى تعد ذات طراز عظيم فى عصرنا هذا ؟ هى صورة دولية أو شبيهة بالدوليه ، لقيادتها أهداف سياسية ، ومقدرة حرة على تحقيقها وإصابتها مهما تكن الوسائل التى تستخدمها : من الجيوش والأساطيل ، والتنظيمات السياسية ، والاعتمادات ، والكتل المصرفية والصناعية ذات القوة والمصالح الموحدة ، وأقوى من هذه الوسائل كلها المركز الاستراتيجى القوى على سطح الأرض ، ويجمع ذلك كله المدن « المليونية » على اختلاف أسمائها ، تلك المدن التى تتجمع فيها هذه القوة وروحها ، والتى إزاءها لاتعد بلدان بل أمم بأجمعها إلا بمثابة الإقليم التابع .

وتلزم موسكو موقفا فريدا بكمال غموضها وخفائها وإغلاقها المحكم إمام الفكر والوجدان الغربيين ، وإنها للعامل الفاصل فى أوربة منذ عام ١٨١٢ أى منذ كانت تتبعها دوليا . وقد صارت العامل الفاصل فى العالم منذ عام ١٩١٧ .

وإن انتصار البولشفيك ليعنى من الوجهة التاريخية معنى يختلف كل الاختلاف عن المعنى السياسى الاشتراكى أو الاقتصادى النظرى .

ولقد استردت آسيا روسيا ثانية بعد أن ضمتها أوربة إليها على يد بطرس الأكبر . وبهذا الإجراء اختفت فكرة أوربة من التفكير العملى للسياسيين أو ذلك ما كان يجب أن يحدث لو كان بيننا سياسيون من ذوى القدر .

إن آسيا فكرة حقة لها مستقبل ، وهى لاتعبأ بفوارق الجنس واللغة والقومية والدين فى صوره الراهنة القابلة للتغير الذى لابد أن يكون . إن هنالك لونا من الحياة لاتحدده العبارات ، لونا لايشعر بوجوده ، قد حملته فى بطنها بقعة عظيمة من الأرض ، وهى فى طريق ولادته . أما الرغبة فى تحديد المستقبل وتعيينه ، ووضعه فى إطار برنامج ـ فخلط بين الحياة والكلام وهذا ماتفعله البلشفية المتحكمة التى لاتشعر شعورا تاما بمنشئها الأوربى الغربى والعقلى المتصل بالمدن الكبيرة .

وليس من المستطاع الهجوم من الخارج على سكان هذه البقعة الأرضية الداخلية الهائلة فى اتساعها ومداها ، فاتساع الرقعة قوة لم تقهر قط سياسيا أو حربيا ، وقد بلا ذلك وخبره نابليون . وأى ربح يناله العدو إذا ما احتل هذه البقاع الفسيحة ؟ ولقد اتخذ البولشفيك عدتهم للقضاء على أية محاولة لبلوغ العدو هذه الغاية ، فنقلوا مركز الثقل فى نظامهم إلى الشرق ، واقاموا كل المراكز الصناعية الهامة ذات الأثر فى ميدان القوة السياسية ـ شرقى موسكو ، فأكثرها يمتد شرق الأورال إلى جبال «ألطاى» ، ويمضى الى القوقاز جنوبا ، ولقد كانت جميع المنطقة الممتدة غربى موسكو بما فيها روسيا البيضاء واوكرانيا فى امتدادها بين «ريغا» «واوديسا» ـ تعد اهم بقعة فى امبراطورية

القياصرة ، وهى اليوم ليست إلا حرما للقلعة الروسية أمام أوربة . وإن التقهقر عنها وتركها للعدو لايؤديان إلى انهيار نظام الدولة . وبذا أصبح التفكير فى الهجوم عليها من جهة الغرب عقيما لاينتج ، ومحض طعن فى الهواء .

إن هذا الحكم البولشفيكى ليس دولة بالمعنى الذى نفهمه ، وليس كما كانت عليه روسيا القيصرية ، فهو « ككبتشاك » إمبراطورية القطيع الذهبى فى عصر المغول : يتألف من حاكم يدعى الحزب الشيوعى بزعمائه وخانه المطلق السلطان ، ومن قطيع يضاعفه مائة مرة أو يزيد ، قطيع أعزل من السلاح ، خاضع لما يؤمر به ، وإذا مااستثنينا القليل جدا لم نجد فيه من الماركسية إلا الاسم والبرنامج ، إذ الحكم الحقيقى هناك مطلق يهدف إلى إثارة العالم واستغلاله دون مراعاة لأى حد أو اعتبار اللهم إلا الاستبداد فى دهاء وقوة ، واتخاذ الاغتيال وسيلة عادية من وسائل الحكم الذى يمهد ليوم يطوى فيه جنكيزخان الجديد آسيا وأوربة طيا .

إن الروسى الحق لايزال كصينى الشمال ، والمانشو ، والتركمانى من حيث شعوره بالحياة ، فهو رحالة غير مستقر ، لايفهم الموطن على أنه القرية بل على أنه السهل المترامى الأطراف ، أعنى أمه الروسيا . إن روح هذه البقعة غير المحدودة (اللامتناهية) لتدفعه دائما إلى التجوال فى غير هدف ، وإن الإرادة لتعوزه ، على حين تجد شعور الجرمانى بالحياة ذا هدف يجب بلوغه عنوة : بلاد بعيدة ، مشكلة ، إله ، قوة ، مجد ، ثروة .

تطوف بالروسيا أسر الزراع والصناع والعمال من إقليم إلى آخر ، ومن مصنع إلى مصنع من غير ضرورة ماسة أو حاجة ملجئة ، ولم تستطع أية وسيلة من وسائل الإرغام السوفياتية أن تمنع ذلك ، لأن هؤلاء المترددين بين

الأقاليم والمصانع ينبعثون بالنزعة الداخلية في الروح ، ولقد أدى هذا الى أن صار من المستحيل نشوء طائفة من العمال المدربين لطول ارتباطهم بالعمل وحبطت كل محاولة لانشاء أية صناعة من نوع ما فى أوربة الغربية أو ابقائها من غير اشراك اليد الأجنبية .

أهناك حقا منهج شيوعى جدى المقصد ، يتحرى المثل الأعلى الذى يضحى له الملايين من الناس ، ويجوعون من أجله ويحيون فى شقاء ؟ أم أن كل ماهنالك ليس الا وسيلة حربية دفاعية فعالة الى أكبر حد تقف أمام الكتلة الخاضعة ولا سيما المزارعين ، أو وسيلة هجومية تقف أمام العالم غير الروسى العالم البغيض الذى يجب توهين بنائه وزعزعة أسسه قبل اخضاعه والقضاء عليه ؟ ومن المحقق انه لن يكون ثمة تغيير يعتد به اذا ما تخلى يوما ما عن المذهب الشيوعى لأسباب تراها السلطة السياسية ، فقد تتغير الأسماء فتسمى فروع الإدارة الاقتصادية مؤسسات ، واللجان مجالس اشراف ، والشيوعيون أنفسهم مساهمين ، وتبقى فيما عدا ذلك الصورة الرأسمالية الغربية القائمة منذ زمن .

ولكن هذه القوة لاتستطيع القيام بحرب خارج بلادها فى الشرق او فى الغرب الا بالدعاية ، هذا الى ان نظامها ذا الملامح الراسيو نالية الغرب اوربية الذى نشأ فى الحجيم الأدبى فى بطرسبورج يغلب عليه التكلف فهو غير طبيعى ولن يعيش بعد اى انهزام بل لن يعيش بعد اى انتصار

ان البيروقراطية المسكوفية لابد ان تسقط امام قائد منتصر ، وستحل روسيا جديدة محل روسيا السوفييتية ، وقد يذبح القطيع الحاكم فيها دون ان يكون لذلك اثر غير القضاء على الطراز الماركسى للبلشفية ، ونمو اللون

القومى الأسيوى لهذه البلشفية نموا هائلا لايعوقه عائق ما . ولكن هل يستطاع الوثوق بالجيش الأحمر ؟ وهل يمكن استخدامه ؟ وما الصفات الفنية والأدبية لفريق الضباط ؟ إن مايظهر فى ألوان الاستعراض العسكرى فى موسكو ليس إلا كتائب منتقاة من شيوعيين موثوق بهم ، وهم الحرس الخاص لأرباب السلطة ، ولا تنفك تأتينا الأنباء من الأقاليم عن مؤامرات تخمد وتحبط ، وهل تستطيع السكك الحديدية والطائرات وصناعات التسليح أن تضطلع بالمطالب الجدية ؟ إن من المحقق أن التصرف الروسى فى منشوريا ، ومواثيق عدم الاعتداء فى الغرب ينمان عن الرغبة فى تجنب أى اختبار حربى بكل الوسائل . أما الوسائل الأخرى : كالإبادة الاقتصادية للخصم بوساطة التجارة ، وبالثورة بخاصة ، لاعلى أنها هدف مثالى بل على أنها سلاح مرسوم ـ وقد استخدمته إنجلترا وفرنسا عام ١٩١٨ وسلت سيفه على رأس ألمانيا ـ أما هذه الوسائل فهى أقل خطرا وإن كانت أكثر تأثيرا وفاعلية .

ولليابان على خلاف ذلك مركز أشد قوة ، فإنها تكاد تكون منيعة أمام الهجوم عليها من البحر بفضل سلاسل جزائرها التى يستطاع سد منافذها الصغيرة فى إحكام بحقول الألغام والغواصات والطائرات ، مما يجعل بلوغ البحر الصينى مستحيلا على أى أسطول أجنبى ، هذا إلى أن اليابان قد كفلت لنفسها فى منشوريا بلادا فسيحة الأرجاء ذات مستقبل اقتصادى هائل : ولقد قضى اليوم فول السويا على أى احتمال للربح من زراعة جوز الهند أو نخيل الزيت فى البحار الجنوبية وغرب أفريقية . ثم إن عدد سكانها قد زاد إلى درجة لم يسمع بها ، وليست تخومها الحالية النهائية بمحدودة بدقة ، وستؤدى

أقل محاولة للبلشفيك للتدخل الحربى فى وجه هذا السلطان الزاحف إلى ضياع فلاديفستك وبلاد المغول الشرقية وبكين على الراجح . وسيكون الفعل العملى الوحيد المقابل لهذا ـ الثورة الحمراء فى الصين . ولكن هذه الحركة أخذت تتحطم يوما بعد يوم منذ تأسيس « الكومنتانج » أما هجمات الرأسماليين ، وأجدرُها بالتخصيص رشوةُ قواد وجيوش بأجمعها .

إن الشعوب العتيقة الفلاحية من أمثال الهنود والصينيين لن تستطيع أن تلعب دورا مستقلا فى عالم الدول العظمى ، وقد تستطيع مثل هذه الشعوب أن تبدل سادتها فتطرد أحدهم لتقع فريسة لسيد جديد ـ كالإنجليز فى الهند مثلا ـ ولكنها لن تستطيع بحال أن تنتج من جديد صورة ذاتية داخلية عن الوجود السياسى إذ تناهت فى القدم والتيبس والاستنفاد ، وقد اجتلبت صورة ثوريتها الحالية بجميع أهدافها من الحرية والمساواة والبرلمان والجمهورية والشيوعية وما إلى ذلك من غرب أوربة وموسكو . وإنها لأهداف ووسائل حربية للدول الأجنبية لتحول هذه البلاد إلى ساحات قتال للفصل بينها . ولن يستطيع هؤلاء الأقوام لذلك السبب نفسه أن يكون لهم شأن هائل وإن عابراً .

وقد وجهت ـ دون شك ـ كل من روسيا واليابان أنظارهما إلى ما يرقد من إمكانيات بين هذه الأقوام ، فأخذتا تعملان فى الخفاء بوسائل لا يراها ولا يفطن إليها الرجل الأبيض . ولكن هل اليابان اليوم فى مثل ما كان لها من قوة وثبات فى عصر الحرب الروسية ؟ لقد كان يحكم اليابان فى ذلك الوقت طبقة السادة الساموراى القديمة الفخور العريقة الباسلة التى تعد من خير ما أنتجه العالم من أجناس ، أما اليوم فإننا نسمع عن أحزاب راديكالية وإضرابات ودعاية بولشفيكية واغتيال وزراء ، فهل جاوزت هذه الدولة المجيدة قمة وجودها

بعد أن سممتها صور الانحطاط الديمقراطى المماركسى المنبعثة من الشعوب البيض ، وقد دخل النزاع حول المحيط الهادى فى دوره الفاصل ؟ لئن كانت لاتزال فيها قوتها الهجومية القديمة لهى قادرة على الثبات والصمود لأى تكتل من الدول المعادية ، وسيعين هذه القوة الهجومية مركزها الستراتيجى البحرى الفذ .

ولكن من أية دولة تتوقع هذه الخصومة ؟ أما الروسيا فلا تتوقع منها خصومة على التأكيد ، ويستحيل توقعها من أية دولة من غرب أوربة . ولذا لايوجد مكان يحس فيه المرء بوضوح سقوط هذه الدول من مكانتها السياسية الماضية كما هو الشأن هنا . ومنذ مدة لاتكاد تبلغ عشرين عاما كانت بور آثر ، وواى هاى واى ، وكياتشو محتلة ، وكان تقسيم الصين إلى مناطق نفوذ قائما . ولقد كانت مشكلة المحيط الهادى يوما ما أوربية ، أما اليوم فلم تعد إنجلترا ذاتها لتجسر على أن تنفذ فى سنغافورة خطة التوسيع التى وضعت منهجها من عشرات السنين . ولقد كان المفروض فيها أن تكون قاعدة قوية للأسطول الإنجليزى يواجه منها الأوضاع والحوادث المعقدة فى شرق آسيا . فهل من المستطاع المحافظة عليها أمام اليابان وفرنسا إذا ما نزلت هذه الأخيرة عن الطريق الأرضى للهند الصينية ؟ إن إنجلترا إذا تخلت عن مكانتها القديمة فى هذه البحار ، ووضعت بذلك استراليا تحت رحمة الضغط اليابانى ـ حملتها على أن تنفصل من الإمبراطورية وتنضم إلى أمريكا .

إن أمريكا هى الخصم الجدى الوحيد ، ولكن ما مدى قوتها البحرية فى هذه الأنحاء على الرغم من قناة بناما ؟ إن سان فرنسيسكو وجزائر هاواى

ما تُسمّى الآن تكونا قاعدتين بحريتين تهددان اليابان ، وسوف يكون الاحتفاظ بالفلبين مستحيلا ، ثم إن لليابان فى أمريكا اللاتينية حلفاء محتملين يعادون نيويورك ، ولن يقلل من أهميتهم إغفال ذكرهم فى الحديث .

- ٩ -

هل الولايات المتحدة الأمريكية دولة ذات مستقبل ؟ لقد كان الملاحظون السطحيون يملئون الأسماع قبل ١٩١٤ بإمكانياتها غير المحدودة بعد أن طافوا هناك بضعة أسابيع ، ثم إن المجتمع الجديد فى غرب أوربة بعد ١٩١٨ - وهو مزيج من متحذلقين وغوغاء - قد استبدّ به الإعجاب بهذه الأمريكانية الفتية القوية البالغة فى تفوقها علينا ، المرموقة كمثل يقتدى به . ولكنهم بذلك يخلطون بين الأرقام والدولارات من جهة ، والقوة الروحانية وعمق القومية ، الذى لابد منه إذا أريد لدولة البقاء والثبات - من جهة أخرى ، كما يخلطون بين الرياضة البدنية الحديثة وسلامة العنصر ، وبين ذكاء التاجر ، والروح والفكر . ما الأمريكانية الكاملة (أى ذات مائة فى المائة) ؟ أهى صياغة المجموع فى قالبِ متوسطِ الأدنى ؟ أهى وقفة بدائية أم أمل فى المستقبل ؟ المحقق أنه ليس هناك فى أمريكا بعدُ أمة ولا دولة حقيقية . وهل فى الإمكان أن يصوغها قضاء صارم أم أن ذلك مستحيل الوقوع بسبب ذلك الصنف من المستعمرين ، الذى انطوى ماضيه الروحى بعيدا عنه وانقضى ؟ فالأمريكى لايتحدث كما يتحدث الإنجليزى عن دولته ووطنه وإنما يقول « هذه البلاد » ونحن - فى الواقع - بصدد بقعة لاحد لها لاتساعها ، وسكان أفاقين ، ينتقلون من مدينة إلى أخرى طلبا للدولار من دون قيد أو اعتبار ، إذ لايذعن هناك

للقانون إلا من لايملك من القوة أو المكر مايهيء له أن يزدرى القانون .

وإن تشابها بروسيا البلشفية لأشد خطر مما يُظن : فهنا اتساع الرقعة نفسه الذى يقضى على كل احتمال لنجاح أى هجـــوم من جانب أى خصم ، وبالتالى على تذوق الخطر القومى الحق ، وبذلك تستغنى عن الدولة ، ويستدعى هذا استحالة نشوء تفكير سياسى أصيل ، فالحياة هناك قد انحصرت صورتها فى الناحية الاقتصادية المحضة . وقد استغنت إلى هذا عن العمق بنسبة فقرها فى عنصر المأساة ، وهو المصير العظيم الذى عمّق وهـــذب روح الشعوب الغربية قرونا طويلة ، لقد أصبح الدين لونا من التـــرفيه المفروض بعد أن كان بوريتانية صارمة . كما أمست الحرب ضربا جديدا من الرياضة البدنية .

وهنا كما فى الروسيا دكتاتورية الرأى العام ، سواء أكانت بإملاء الحزب السياسى ، أم بإملاء المجتمع ، تلك الدكتاتورية التى تمتد إلى كل ما يُـترك فى الغرب لحرية الفرد كالمغازلة والعبادة والحذاء ومساحيق الزينة وألوان الرقص وأفانين القصص والتفكير والأكل والترفيه . فكل شىء لكل الناس يجرى على وتيرة واحدة : هناك طراز موحد فى الجسم والملبس والروح للرجل الأمريكى ، وللأمريكية بخاصة ، ومن يخرج على هذه الأوضاع ، أو يجترىء على نقدها علنا ـ يصبح طريد الرأى العام . ذلك فى نيويورك ، وذلك فى موسكو أيضا . وأخيرا هنا صورة للاشتراكية الدولية أو الرأسماليـــة الدولية تكاد تكون نفسَ الصورة الروسية ، وتمثلها الاتحادات الاقتصادية التى تدبر وتوحد الإنتاج والتوزيع طبقا لخطة مرسومة دقيقة التفصيلات . وذلك كما فى الروسيا . إن هذه الهيئات تمثل سادة أمريكا الحقيقيين كما هو الحال هناك . إنها إرادة القوة ، الفاوستية ، ولكنها القوة التى انتقلت من العضوية

النامية إلى الآلية الفاقدة الروح . إن إمبراطورية الدولار التى تنتظم امريكا كلها إلى سانتياغو وبونيس إيرس والتى تسعى قبل كل شىء فى تقويض الاقتصاد فى غرب أوربة وإبادته ، ولاسيما الاقتصاد الإنجليزى فى كل مكان، والتى ضمنت النزعاتُ الاقتصادية قوتها السياسية ـ إن إمبراطورية الدولار هذه لتنطبق بإحكام على إمبراطورية البولشفيك ، كما أن شعارها « آسيا للأسيويين » يتفق فى الجوهر مع فكرة مذهب مونرو فيما يتعلق بأمريكا اللاتينية ، تلك الفكرة التى يمكن تصويرها فى هذه العبارة « أمريكا كلها لاقتصاد الولايات المتحدة » هذه هى الفكرة النهائية فى تأسيس جمهوريات مستقلة فى كوبا وبنما ، وفى التدخل فى نيكاراجوا وفى سقوط رؤساء الدول المتعنتين بقوة الدولار ، وذلك فى أقصى الجنوب .

ولكن هناك وجها آخر لهذه الحرية فى حياة موجهة توجيها اقتصاديا خالصا ، هذه الحرية المُتحرّاة من كل سياسة أو تشريع : لقد تولد منها دولة بحرية اخذت قوتها تطغى على قوة إنجلترا ، وتسيطر على محيطين ، وأصبح لها مستعمرات : الفيلبين ، وهيواى ، وجزائر الهند الغربية ، ثم ادى الأمر بالمصالح الاقتصادية وبالدعاية الإنجليزية أن تجُرّاها إلى خوض غمرات الحرب العظمى ومقاساة معاركها بالاشتراك فيها ، وبذا صارت الولايات المتحدة عاملا رئيسيا فى السياسة العالمية سواء أعلمت ذلك وأرادته ام لم تعلمه ولم ترده . وأصبحت الآن مرغمة إما على التفكير والنشاط السياسى الدولى نحو الداخل والخارج ، وإما على الفناء فى صورتها الراهنة . ولم يعد هناك أى أمل فى الرجوع إلى الوراء . فهل الأمريكى أهل لهذه المهمة الثقيلة ؟ وهل يمُثّل لونا ثابتا من الحياة ام هو محض بدعة من بدع الأزياء الجسمانية

والفكرية والروحية .

ثم كم من سكان هذه الولايات لاينتسبون بحال إلى ذلك الطراز الحاكم الأنجلو ساكسونى ؟ إننا إذا ماتركنا الزنوج جانبا بصفة قاطعة وجدنا أنه لم يهاجر إليها فى العشرين عاما السابقة للحرب العظمى إلا قليل من الألمان والانجليز والسكانديناف على حين دخلها خمسة عشر مليونا من البولانديين والروس والتشيك وصقالبة البلقان واليهود الشرقيين واليونان وأهل الشرق الأدنى والأسبان والايطاليين . وهؤلاء لم يندمج سوادهم بعد فى الأمريكية كما أنهم يكونون برولتارينية أجنبية مغايرة فى تفكيرها ، ومعنة فى الانسال ، ومتخذة من شيكاجو مركز الثقل ، وهم إلى هذا ينشدون الكفاح الاقتصادى الطليق من قيد القانون ، فهم يفهمونه على أساس آخر .

حقا ، ليس هناك حزب شيوعى ، كذلك لم يكن في دولة القياصرة أية هيئة للاغراض الانتخابيه ، ولكن هنا كما هناك عالما سفليا قويا ذا طابع دوستويفسكى وأهداف قوة وأساليب انحلال ، ومعاملات خاصة ، عالما يمتد تأثيره إلى طبقات المجتمع البالغ الثراء بفضل الفساد المألوف فى الادارة ووسائل الأمن ، ولا سيما تهريب الخمور الذى بلغ بالانحطاط السياسى والاجتماعى أقصى دركاته . إنه يحتوى الاجرام الحرفي كما يضم الجماعات السرية من نوع الكوكلوكس كلان ، ويشمل الزنوج والصينيين . كما يجمع العناصر المجذرة لكل الأصول الأوربية ، وله هيئاته ذات الفاعلية الشديدة بعضها قديم من نوع الكامورا الايطالية والجيريلا الأسبانية والنهلست الروسية قبل ١٩١٧ والتشيكيا بعد ١٩١٧ : فالليتشن (١) (Lynching) وألوان الاختطاف للاشخاص ، والعدوان والاغتيال والسرقة والحرق - وسائل مجربة منذ بعيد للدعاية السياسية الاقتصادية ، وزعماء هذه الهيئات من أمثال جاك دياموندو آل كابونى

(١) قتل الملونين في أمريكا بغير محاكمة

يقتنون الجواسق « الفيلات » والسيارات ، ولهم الأرصدة المالية التي تفوق أرصدة كثير من الاتحادات الاقتصادية بل كثير من الولايات المتوسطة الدرجة .

وفي البقاع الفسيحة القليلة السكان تتخذ الثورات بالضرورة صورة مختلفة عما هي عليه في حواضر غرب أوربا . وترينا جمهوريات أمريكا الجنوبية ذلك من دون انقطاع . إذ ليس فيها دولة قوية يكون من الحتم سقوطها في القتال أمام جنس ذي تقاليد قديمة ، ولا دولة تكفل صيانة النظام القائم بفضل الاحترام لوجودها في ذاته ، فما يدعى هنا « حكومة » قد ينوب فجأة وينتهي إلى لاشيء ، وكثيرا ما دافعت الاتحادات الاقتصادية قبل الحرب عن مصانعها بإبان الاضراب بتحصيناتها الخاصة ورماة مدافعها الرشاشة .

ففي « بلاد الحرية » لا تجد غير عزم المحرار من الرجال على مساعدة أنفسهم ، وما المسدس في جيب السروال إلا اختراع أمريكي . وهو وهن تصرف من يمتلكه ومن لا يمتلكه على السواء . فمن زمن وجيز حاصر الزواغ في ولاية Lwa بعض المدن التي لم تشتر منهم حاصلاتهم بثمن محترم وأنذروها بالاجاعة . ولبضع سنين خلت كان كل من يتحدث عن ثورة في هذه البلاد يعد معتوها .

أما اليوم فقد أصبحت مثل هذه الأفكار مألوفة ، فماذا تفعل جوع المتعطلين - وهنا أكرر أن جمهورهم ليسوا أمريكيين أقحاحا (مائة في المائة) إذا ماغضبت مواردهم وفقدت المساعدة الحكومية لفقدان الدولة المنظمة باحصائياتها الدقيقة النزيهة وإشرافها على المحتاجين : هل يفكرون إذ ذاك قوة قبضاتهم وارتباط مصالحهم الاقتصادية بالعالم السفلي ، وهل تكشف الطبقة العليا البلشفية العقل التي لا تفكر في غير المال في تضامها مع هذا الخطر الماثل - هل تكشف فجأة عن قوات معنوية كامنة تؤدي إلى بناء حق للدولة وإلى استعداد روحي للتضحية بالنفس والنفيس من أجلها بدلا من جعل الحرب

وسيلة للكسب ؟ أم ستبقى للمصالح الاقتصادية الخاصة للبقاع المختلفة أقوى مما كانت ، لتؤدى من جديد كما حدث عام ١٨٦١ إلى انحلال البلاد إلى ولايات منفصلة ، وهى على وجه التقريب : الشمال الشرقى الصناعى ، والأقاليم الزراعية فى الغرب المتوسط ، والولايات الزنجية بالجنوب ، ومنطقة ماوراء جبال الروكى .

وإذا ماتركنا اليابان جانبا باعتبارها الدولة الوحيدة فى طموحها إلى تحقيق خططها الإمبراطورية فى شرق آسيا وتجاه أستراليا تحقيقا يتم فى غير إزعاج فلن نجد دولة واحدة تبذل كل تضحية بكل شىء فى سبيل تحقيق هذا الانحلال .

هذه إنجلترا ، لقد فعلت ذلك مرة حتى أوشكت أن تعلن الحرب ١٨٦٢ - ١٨٦٤ حينما كان يبنى ويشترى للولايات الجنوبية سفن الحرب ولصوصية البحر (القرصنة) - فى الموانىء الإنجليزية ، ثم تجهز بعد بنائها أو شرائها بالعتاد والرجال فى مياه أوربية .

ولقد جهزت السفينة « آلاياما » بالبحارة البريطانيين ، لتحرق وتغرق السفن التجارية للولايات الشمالية حيث تجدها . ولقد كانت إنجلترا فى ذلك الوقت سيدة البحار بلا منازع ، ولهذا السبب وحده لم تكن حكومة واشنجطون لتجرؤ على إعلان الحرب . إن حرية التجارة لم يكن يعنى حينئذ إلا حرية التجارة الإنجليزية فحسب ، ولكن ذلك قد انتهى فى عام ١٩١٨ ، فإنجلترا التى كانت فى القرن التاسع عشر مصرف العالم لم يعد لها من الثراء مايهيء لها أن تحرز قصب السبق فى بناء الأساطيل ، ولم يعد لها إلى جانب هذا من السلطان مايرد غيرها عن محاولة التفوق عليها .

إن الإحساس الباطنى لتلك المرحلة التاريخية كان أحد أسباب الحرب ضد

ألمانيا ، كما أن شهر نوفمبر ١٩١٨ كان على مايحتمل ـ آخر فترة قصيرة تذوقت فيها تلك الدولة المولية (دولة الأمس) آخر وهم بانتصار عظيم .

وإذا غض النظر عن التأخر المستمر فى بناء البوارج كما فرغنا من تبيانه، وجدنا أن فكرة السيادة البحرية قد تقوضت من أساسها ، إذ ظهرت الطائرات إلى جانب الغواصات كسلاح متفوق . وبذلك أصبحت اليابسة وواء الساحل أهم من الساحل والميناء ، وكفت إنجلترا أمام أسراب حاملات القنابل الفرنسية أن تكون جزيرة بالمعنى الاستراتيجى ، لقد غرقت إنجلترا سيدة البحار مع البارجة الثقيلة فى أعماق الماضى .

هذا إلى أنه لم يعد للأمة الإنجليزية فى روحها وجيشها من القوة والشباب مايهيء لها أن تتخطى عنوة وفى ثقة هذه الأزمة الرهيبة .

لقد جهدت إنجلترا وبذلت فى القرن التاسع عشر فى سبيل ممتلكاتها دماء ثمينة بسبب الهجرة إلى الدومنيون الأبيض ، وعصف المناخ فى المستعمرات الملوثة ، وإنه ليعوزها قبل كل شيء الأساس الجنسى لطبقة قومية من الزراع. ولقد استهلكت الطبقة العليا الحاكمة منذ عصر النورمان والمكونة من جرمان وكلت ولا فرق مطلقا بين الاثنين ، ففى كل مكان يصل الى السلطة جموع السكان الأصليين ، الذين يسمون بالكلت تسمية خاطئة لأنهم يشعرون بالحياة شعورا فرنسيا مختلفا فى نوعه ـ تتحول الصورة الأوليجاروكية القديمة للحكم البرلمانى السامى الى لون آخر هو حكم الأحزاب فى القارة بفوضاه ومعاركه الحزبية القذرة . ولقد وصف جالزورثى مأساة هذا الخمود فى ادراك عميق مؤلم فى قصته « فورسيت زاجا » . وبذلك انتصر اقتصاديا المثل الأعلى لذوى الإيراد الثابت على الأمبريالية الرأسمالية . نعم . ان فضلات عظيمة من

الثروة الغابرة لاتزال باقية ، ولكن لم يعد هناك حافز لجمع ثروة جديدة عن طريق الكفاح . فالصناعة والتجارة تهرمان فى أساليبها فى بطء ، وليس هناك النشاط المبدع الذى يخلق صوراً جديدة ، والذى تشاهد آثاره فى أمريكا وألمانيا ، إن لذة الإقدام تحتضر ، وإن الجيل الناشىء ليظهر فى الناحية الفكرية والخلقية ، وفى نظرته العلمية ـ انهيارا ونزولا عن السمو المأثور الذى بلغه المجتمع الراقى الإنجليزى عن طريق التهذيب فى القرن الماضى وإنه لانهيار رهيب لا مثيل له ، إن النداء القديم : « إن إنجلترا تنتظر من كل إنسان أن يقوم بواجبه » والذى كان قبل الحرب يحسه كل شاب إنجليزى من أسرة عريقة من إيتون وأوكسفورد ـ يحسه نداء موجها إليه وحده ـ قد ذهب مع الريح . وأضحى من الشائع شغل النفس بالمشكلات البولشفيكية واتخاذ الحب الجنسى هوى رياضيا ، وجعل هذا الهوى مهنة وجوهرا للحياة . وحينما اشتعلت الحرب لم يتساءل فى هم ويأس عمن يذود عن المثل الأعلى لبريطانيا إلا رجال الجيل الأقدم الذين كانوا يومئذ يشغلون المراكز الرئيسية ، ولقد بين « برناردشو » فى كتابه « إمبراطور أمريكا » أن هناك فئة تفضل خوض حرب لاأمل فيها ضد تفوق القوى الأمريكية ـ تفضلها على إلقاء السلاح أمامها . ولكن كم يكون عدد هذه الفئة بعد عشرة أو عشرين عاما ؟ لقد وضعت إنجلترا نفسها فى ميثاق وستمنستر عام ١٩٣١ على قدم المساواة التامة مع بلاد الدومنيون البيضاء فى مجموعة الأمم البريطانية ونزلت عن منزلة الصدارة ، وارتبطت بهذه الدول على أساس المساواة فى المصالح ، وبخاصة على أساس حماية الأسطول الإنجليزى . وغداً قد تتجه كندا أو استراليا دون اعتبار لأية عاطفة إلى الولايات المتحدة إذا وجدتها

ـ بوصفها أحد الشعوب البيضاء ـ أكثر صونا لمصالحها ودفاعا عنها ، ووقوفا معها فى وجه اليابان الصفراء .

لقد سلمت إنجلترا بمكانتها فى سنغافورة ، وإذا ماضاعت الهند لم يعد هناك معنى لمركزها فى مصر والبحر الأبيض . إن « الدبلوماسية » الإنجليزية تحاول بأسلوبها العتيق محاولة عابثة تعبئة القارة الأوربية لخدمة المصالح الانجليزية كجبهة للمدينين أمام أمريكا ، وجبهة ضد البلشفية أمام الروسيا . ولكن هذه المحاولة قد أصبحت من دبلوماسية الماضى البعيد . لقد نالت إنجلترا فى عام ١٩١٤ آخر نجاح هيأه لها القدر . وبعد فماذا يحدث لو تفاهمت روسيا وأمريكا للوقوف فى وجه الثورة الأخيرة للزهو الانجليزى التقليدى ؟ لاتظن ذلك مستحيلا فليس شىء منه بخارج عن نطاق الممكنات .

أمام مثل هذه الظواهر التى يتجمع فيها مصير العالم فى ظلمة وإنذار لمدة قد تصل الى قرون ـ لن يكون للبلدان الروماتيكية الا أهمية أقليمية ، ومثلها فرنسا التى أصبحت حاضرتها على وشك التحول الى تحفة تاريخية يستمتع بمرآها كفينا ، وفلورنسا ، وأثينا فى ظل حكم الرومان . وحين كانت السياسة العليا فى أيدى قدماء النبلاء من الأصل الكلتى والجرمانى الذين ترتد أصولهم الى مابين عصر هجرة الشعوب وزمن الحروب الصليبية ـ وقد دام ذلك الى عصر لويس الرابع عشر تقريبا ـ حين كانت السياسة العليا فى أيدى هؤلاء كانت هناك أهداف جليلة كالحروب الصليبية نفسها والمؤسسات الاستعمارية فى القرن السابع عشر . ولكن الشعب الفرنسى لم ينفك من قديم الزمان يبغض كل من يقوى من جيرانه ، لأن نجاحهم يجرح زهوه ، يبغض الأسبان والانجليز ، وهو أشد بغضا للألمان فى كل من الدولتين الهابسبورجية

والهوهنزوليزية . وقد بلغ البغض العتيق بهذا الشعب لألمانيا حد الجنون منذ فشل الانتقام لمعركة سادوفا . إن هذا الشعب لم يستطع قط أن يخطو بفكره فى أغوار المكان والزمان لا فى عالم السياسة ولا فى عالم الفلسفة ولا أن يشبع نهمه إلى المجد إلا بضم الأراضى الواقعة على حدوده أو تخريبها . فهل هناك فرنسى صاف يهتز فى أعماق نفسه للممتلكات الفسيحة فى غرب أفريقية إذا تركنا جانبا كبار العسكريين ورجال المال البارزين ؟ بلغ الهند الأقصى (الهند الصينية) بل ماذا يعنيه من أمر الألزاس واللورين بعد أن استردا ؟ لقد زال عنها بعد هذه الحقيقة الفعلية ما كان لها من جاذبية أصابت هذا الشعب .

إن الأمة الفرنسية لاتنفك تتكون بوضوح من عنصرين متباينين كل التباين فى الروح : أحدهما جيروندى ، يمثل الأكثرية الساحقة ، ويتمثل فى الفرنسى الإقليمى المتحمس لمثله الأعلى الماثل فى الإيراد الثابت ، إن كل ما ينشده لايعدو الدعة فى ظلال قومية أصبحت عقيمة متعبة لقذارتها وبخلها وبلادتها ، والاطمئنان إلى مال قليل ونبيذ وغرام . لم يعد له مأرب ما فى السياسة العليا ، وفى الأطماع الاقتصادية ، والقتال فى سبيل أهداف الحياة العامة ، ذلك الفرنسى هو الفلاح والبورجوازى ، وفى الناحية الأخرى من الأمة نجد الشطر اليعقوبى ذلك العنصر الذى يضمحل يوما بعد يوم ، والذى يعين مصاير الأمور فى البلاد منذ عام ١٧٩٢ ، والذى طبع مع الوطنية الفرنسية باسم « شوفان » وهو علم لشخصية هزلية قديمة ظهرت عام ١٨٣١ . وهذا الشطر يتكون من الضناط ورجال الصباغة وكبار الموظفين فى الإدارة الحكومية التى جعلها نابليون ذات مركزية شديدة ، ومن صحفيى باريز ،

والنواب على اختلاف أحزابهم وبرامجهم - وينبغى أن نقرر أن النائب فى باريز يقوم بعمل خاص لاحزبى - ثم من هيئات منظمة قوية كالمحفل الماسونى واتحادات المحاربين ، ويقودها ويستغلها فى الخفاء منذ قرن كبار رجال المال الباريزيين الذين يشترون الصحافة والانتخابات بالأموال . وفى الحق لقد أصبحت « الشوفونية » منذ زمن عملا تجاريا بأكمل ما يدل عليه هذا اللفظ .

وتعتمد سياسة هذه الطبقة العليا على خوف الأقاليم العميق من الأخطار السياسية الخارجية مهما يكن نوعها ، ومن نزول قيمة الأموال المدخرة . ويزكى هذا الخوف البالغ الصحافة الباريسية ، والطريقة التى تصنع بها الانتخابات ، وستبقى هذه الحال النفسية إلى أمد خطرا على البلدان المجاورة : على إنجلترا وإيطاليا وعلى ألمانيا ، سواء بسواء . وقبل عام ١٩١٤ بذلت فيها لخدمة مصالح إنجلترا وروسيا ، وإن السياسى المحنك فى أى بلد أجنبى ليستطيع فى يسر جعلها خاضعة لتصرفه ومشيئته . إن صورة «شوفان» تتحول فى مهل إلى ما يماثل صورة دون كيشوت الأسبانى ، وقد أصبحت اليوم فى هزلها المتعاظم تثير سخرية نصف العالم . أرأيت المغامر الشيخ الذى يجمع وراءه بعد عمر طويل من البطولة - أكبر كومة من الذهب فى العالم ويتسلح من قمة رأسه إلى أخمص قدمه ، بكل ما يتصوره العقل من قطع الأسلحة ، ويحيط نفسه برهط من الخدم المدججين بالسلاح ، ويستعين بأصدقاء الأمس ليجدوه فى منزله الذى استحال حصنا ، ويطل من نافذته مختلجا مضطربا ، لايكاد يتماسك ، ثم هو يفقد رشده من الهياج حين يلمح جارا قد بدا فيما يشبه التسلح ؟ هذه خاتمة تلك الأمة العظيمة التى قد ترثها فى أقاليم البحر الأبيض

وشمال أفريقية ـ تلك الإمبراطورية الإيطالية التى خلقها موسولينى إذا قدرلها الاستقرار بقيادته لتكتسب الثبات والالتحام الروحى . إن الإنسان ليعجز اليوم عن القطع بأن أية دولة من هذه الدول ستلزم صورتها الراهنة فى منتصف القرن الحالى . قد تنطوى إنجلترا فى جزيرتها ، وقد تتحطم أمريكا ، وقد تسقط كل من اليابان وفرنسا فى أيدى جابرة من الشيوعيين ، وهما اليوم الدولتان الوحيدتان اللتان تدريان معنى الجيش القوى . أما الروسيا فليس فى الإمكان مطلقا الحدس بما يحتمل أن تتعرض له فى المستقبل ، ولكن الخلاف بينها وبين إنجلترا فى الشرق ، وبين إنجلترا وأمريكا فى الغرب سيتحكم فى الحال العالمية الراهنة ، وفى كلتا الحالين ستنحط إنجلترا فى النواحى الاقتصادية والدبلوماسية والحربية والأدبية ، ولن تستطيع أن تسترد بعض ماتفقد من مراكز ولو لجأت إلى الحرب ، أفيعنى ذلك الاختيار بين الحرب والتسليم ؟ أم أن هذا الاختيار لن يظفر به المغلوب ؟

إن معظم الأنجلو ساكسون على جانبى المحيط يعتقدون أن صلة الدم والتقاليد من القوة بحال لا تجيز ان يقف أحدهما من الآخر مثل هذا الموقف الفاصل . ولكن القول بأن الدم أكثف قواما من الماء قد فشل فى محك الاختبار بين إنجلترا وألمانيا . إن الكراهية بين الأخوة كانت دائما أكثر منها بين الغرباء ، وهى معرضة لأن تتحول فجأة ولأسباب تافهة إلى ثورة نفسية تتفاقم ولا تهدأ .

هذه حال العالم الذى يحيط بألمانيا ، فأمة فى مثل موقفها حرمت الزعامة والسلاح وقد أجهدها الفقر والتمزق لاتستطيع أن تكفل مجرد وجودها . لقد رأينا الملايين يجزرون فى الروسيا ، ويموتون جوعا فى الصين . فلم يكن

ذلك عندنا هو من الأمور الاخيرة من الأخبار يعفى عليه النسيان من غد . ومهما يحدث فى غرب أوربة من الأمور البالغة فى السوء فلن يزعج شيء منها إنسانا ما فى خارجها أو يكدر صفوه ، فالإنسان لا يرتعد فرقا إلا أمام التهديدات ، أما أمام الواقع فيمتثل من فوره راضيا ، وسواء أصاب الموت أفراد أم أمما فإنها لن تترك وراءها فراغا . ولقد كان كل إنتاجنا ـ معشر الألمان ـ أمام هذه الحال الصخب ومُثُل الأحزاب السياسية ، والمشاحنات العامة بين جماعات المحترفين وزوايا الدويلات . وإن التخلى عن السياسة العالمية لا يحمى من عواقبها ، ففى نفس الأعوام التى كشف فيها كولمبوس أمريكا وفاسكو ديجاما طريق الهند الشرقية ، والتى فيها شرع عالم غرب أوربة يمد سلطانه وثروته على سطح الكرة فى هذه الأعوام أقفلت أبوابها ، الشتالهوف ، (١) فى لندن ، وهى آخر رمز لسلطان الهانزا الغابر العظيم ، واختفى بذلك التاجر الملاح الألمانى عن سطح البحار ولم يعد هناك علم ألمانى يخفق فوق ساريته . وتحولت المانيا بهذا إلى بلاد بلغ فقرها مبلغا يعجزها عن انتهاج سياسة عالمية ، واضطرت إلى ان تغير رعاها حروبها بالمال الأجنبى ولخدمته ، وما كان هذا منها إلا فى سبيل نشارة حقيرة من ارضها تتنازعها دويلاتها القزمة . وهكذا لم تنل عندها الوقائع العظيمة الحاسمة فيها وراء بلادها اية غاية او فهم ، لقد صارت لا تفهم من السياسة إلا ما كان حقيرا ضئيلا إلى حد لا يشغل إلا ذوى الشخصيات البالغة الضآلة .

والآن ، وفى هذا الجيل الفاصل هل تعود هذه الحال حتما إلى الظهور ؟ هل نبقى حالمين ، مجرد متحمسين متنابذين لتبتلعنا الحوادث غير تاركة لنا

(١) مقر اتحاد الهانزا فى لندن

شيئا يتم التاريخ صياغته كعظمة ما ؟ لقد رمى بالأزلام وحرّك القِداح في سبيل سيادة العالم ، ولن يصيب القِدْحَ المُعَلّى ويثبت في المعمعة إلا الأقوياء ؟ أفلم يَأنِ للألمان أن يُسهموا في ذلك الفصل ؟

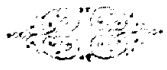

obeikandl.com

- ١٠ -

الثورة البيضاء

هكذا يتجلى عصر الحروب العالمية الذى ظهرت طلائعه ، وقد بدا من خلفه العنصر الثانى لهذا الانقلاب الهائل وهو الثورة العالمية . ماذا تبغى هذه الثورة ؟ وما قوامها ؟ وماذا تعنيه هذه العبارة فى صميمها ؟ إن الإنسان ليدرك كنهها الكامل فى ضآلة إدراكه للمعنى التاريخى للحرب العالمية الأولى ، التى خلفناها وراءنا . لم تصبح المسألة كما يفهمها بعضنا - تهديدا للاقتصاد العالمى من جانب بلشفية موسكو ، ولا تحرير طبقة العمال كما يفهمها بعضنا الآخر . فهاتان المسألتان قائمتان عند سطح الموقف ، والمسألة الأساسية هى أن هذه الثورة لايقتصر الأمر فيها على أنها فى بدء تهديدها فلقد غمرتنا فعلا لا منذ الأمس أو اليوم فحسب ، بل منذ أكثر من قرن من الزمان وإن من خصائصها أن يشتبك النضال الرأسى بين الطبقات المتزعمة للشعوب البيضاء والطبقات الأخرى - بالنضال الأفقى بين الدول والأمم ، وقد بدأ فى المؤخرة فعلا الشطر الأبلغ فى خطورته لهذه الثورة ، أعنى الهجوم على الجنس الأبيض بصفة عامة من جانب كتلة الأجناس الملونة جميعا ، فقد بدأت تشعر على مهل بجامعتها الموحدة .

ولا يسيطر هذا النضال على مابين طبقات البشر فحسب ، بل يتعدى ذلك إلى مابين طبقات الحياة النفسية ممتدا إلى الأفراد . إن كلا منا يكاد يشعر فى نفسه بهذا الانشقاق فى الوجدان والفكر على الرغم من عدم إدراكه إياه .

لذلك يوفق القليل إلى الإدراك الواضح للجانب الذى يقع فيه فى الحقيقة . ولكن ذلك نفسه يدل على الضرورة العميقة لحسم الموقف ذلك الحسم الذى يجاوز بكثير الرغبة والفعل الذاتيين .

ولم يربح الناس كثيرا من العبارات الأخاذة الشائعة التى نشأت عن البدعة المسيطرة على التفكير كالبلشفية والشيوعية وحرب الطبقات والرأسمالية والاشتراكية ، تلك البدعة التى يخيل بها لكل إنسان أنه يحدد المشكلة بدقة ، وما كان هذا التخيل إلا لأنه لايستطيع أن يبلغ بنظرته أعماق الحقائق . وذلك نفس ماوقع فى مثل هذه المرحلة من الحضارات الغابرة مهما يكن مالدينا من التفصيلات عنها قليلا .

ولكننا نعرف عن الحضارة القديمة ما يعد كافيا ومُغْنِياً ، فإن أوج الحركة الثورية فيها يقع فيما بين وقت تيبريوس جراكس ، وأخيه ووقت سولا . وإن كان النضال ضد الطبقة المسيطرة وضد جميع تقاليدها قد بدأ قبل ذلك بقرن كامل ـ على يد « فلامينيوس » ذلك الذى يعتبر المؤرخ بوليبيوس بحق أن قانونه الخاص بالأراضى الزراعية والصادر فى عام ٢٣٢ قبل الميلاد يعد بداية الانحطاط الخلقى لكتلة الشعب .

ولم ينزعج هذا التطور ، وينحرف عن سبيله إلا إلى حين وبصيغة مؤقتة بسبب الحرب ضد هانيبال حينما أقحم قبيل انتهائها العبيد فى جيش المواطنين (الجيش الأهلى) ومنذ اغتيال الجراكيين كليهما ، وخصمهم العظيم سيبيو أفريكانس الصغير ـ أسرعت فى الاختفاء قوى التقاليد القديمة التى تصون عادة صولة الدولة . ولهذا أفلح ماريوس الوضيع بل ماريوس الذى ليس فيه من الرومانية الأصيلة شىء ـ فى تشكيل أول جيش لايستند فى تكوينه وتأليفه

إلى الخدمة العامة ، وإنما يعتمد على المتطوعين المأجورين ، وبهذا [illegible] في شوارع روما الداخلية في استهتار وسفك للدماء ، فأبيدت إلى حد كبير الأسر القديمة التي تأصلت فيها منذ قرون الموهبة السياسية والشعور بالواجب ، وإليها كان يعود الفضل فيما بلغته روما من المنزلة العالمية السامية . وحاول سرتوريوس الروماني أن يؤسس من قبائل أسبانيا البربرية دولة مقابلة هناك . كما دعا سبارتاكوس رقيق إيطاليا إلى إيادة الرومانية . وتبين الحرب ضد يوجورتا ، ومؤامرة كاتلينا كيف سقطت الطبقات الحاكمة نفسها وقد كانت عناصرها المجذرة على أهبة دائمة للاستنجاد في أية لحظة بعدو البلاد والسوقة إبقاء على مصالحها المالية القذرة . لقد كان سالوست المؤرخ الروماني محقا إلى أبعد حد : فلقد قضى على شرف روما وعظمتها ، وعظمة جنسها وفكرتها ـ المال المجرد الذي كان يتحرق إليه الغوغاء ، وأغنياء المضاربين جميعا ، ولكن هذه الكتلة الشعبية المنتمية إلى المدن الكبيرة والمتجمعة من كل صقع وواد لم تُستعبَّأ وتنظم تنظيما داخليا كي تنال عن طريق الكفاح حق الحكم الذاتي ، والتحرر من وطأة الطبقات الحاكمة ولكن لتتخذ وسيلة إلى أغراض الساسة النفعيين والثوار المحترفين . وذلك هو عين مايقع اليوم ، ولقد نشأت في هذه الدوائر ـ كما تنشأ اليوم ـ الدكتاتورية السفلى ، وإنها لنتيجة محتومة نهائية للفوضى الراديكالية الديمقراطية لقد تنبأ بذلك بوليبيوس المؤرخ الروماني ـ وقد كان ذا حنكة سياسية ونظرة خارقة إلى مجرى الحوادث ـ تنبأ به من قبل عصرك . جراكس بثلاثين عاما إذ يقول : إذا ما تكالبوا على المناصب الكبيرة ، واستطاعوا نيلها على أساس غير أساس القضائل والمواهب الشخصية فإنهم يغدقون الأموال

ويجتذبون الجموع ويضللونهم بأية وسيلة ، وتكون النتيجة أن يعتاد الشعب بسبب هذا التكالب على المناصب ـ تلقى الهبات ، والتلهف على نيل المال دون بذل عمل مقابل ، وبذلك تزول الديمقراطية ليحل محلها العنف ، وشريعة قبضة اليد ، فحين تجد الجموع التى اعتادت أن تعيش وأن تبنى أملها على ما يملك غيرها زعيما حازما طموحا تلجأ إلى استخدام قبضة يدها ، وإذ ذاك تتجمع وتتكتل وتندفع هائجة فى القتل والتشريد واغتصاب مايملكه الغير ، ثم تسترسل فى اجتياحاتها إلى أن تكمل فيه فتقع تحت السلطان المطلق لدكتاتور ما ثم يستطرد بوليبيوس قائلا : ثم تأتى الكارثة المكينة عن طريق ماتر تكبه هذه الجموع إذ ما اعتقدت أن نهم البعض لجمع المال قد أصابها بالأذى ، هذا فى حين أن طمع البعض الآخر فى تملق زهوها ليدفع به إلى مرتبة الغرور ـ قد أضلها ضلالا بعيدا . وفى هذه الثورة الجنونية سوف تنتهى تلك الجموع إذ أنها لن تصيخ السمع فى جميع مقارضاتها ومعاملاتها إلا للشهوات الجامحة ، وستكف عن طاعة ذوى الحل والعقد فى الدولة ، بل لن ترضى أن يساووها فى الحقوق ، وستطالب أن يكون لها حق الفصل فى الأمور فإذا ما بلغت الحال هذا المبلغ فسوف تزين الدولة نفسها بأجمل الأسماء التى منها حرية الشعب ، وحكم نفسه بنفسه ، وإن كان الحكم فى الواقع على أسوإ صورة : هى الأوكلوكراتية أى حكم الغوغاء .

ولا يقتصر الأمر اليوم على أن هذه الديكتاتورية ليست غير تهديد للشعوب البيضاء إذ أنها تغمرنا بسلطانها الكامل الذى بلغت قوته ونزاهته مبلغا لا يهيء لنا أن نحسه على الإطلاق ، فديكتاتورية البروليتارية ، أى المستغلين لها والنقابات وموظفى الحزب فى مختلف ألوانهم قد صارت حقيقة

فعلية مكتملة سواء أشكلت الحكومات منهم أم كانت فى ظل سيطرتهم لخوف البورجوازية منهم . تلك كانت مشيئة « ماريوس » فى روما ، وما حطمها إلا فقره الشديد فى الموهبة السياسية . أما ابن اخته قيصر فقد كان على أكبر حظ من هذه الموهبة النفسية ، فاستطاع أن ينهى عصر الثورة الرهيب بصوره الديماجوجيه من جهة ، الديكتاتورية التى وضعت السلطة المطلقة فى يد شخصية متفوقة بعد هذه الفوضى الحزبية ، تلك الصورة التى أصبح اسمه علما عليها على طول الزمان ، ولم يستطع قتله وما تلاه من عواقب أن يغيرا شيئا ما من معالم ذلك الوضع ، فمنذ عصره لم تعد تدور رحى المعارك حول المال وإشباع شهوة البغض الاجتماعى ، ولكن حول الاستئثار بالسلطة المطلقة .

ولا صلة لذلك بالنضال بين الرأسمالية والاشتراكية ، وإن ماحدث لعكس ذلك ، فطبقة كبار الماليين والمضاربين ، وهى التى تناظر الإيكويتس الرومانية التى اصطلح خطأ على ترجمتها منذ « مومزن » بطبقة الفرسان ـ قد أحسنت التفاهم مع الغوغاء ومنظاتهم مثل نوادى الانتخابات ، وعصاباتها المسلحة التى تشبه عصابات ميلو وكلوديوس فى روما . فبذلوا الأموال فى الانتخابات والثورات وألوان الرشوة ، وبادلهم ك. جراكس الأقاليم التى أسلمها لاستغلالهم المطلق فى ظل حماية الدولة ـ وانتشر فيها البؤس الشديد بسبب النهب والربا ، وبيع سكان مدن بأجمعها فى سوق الرقيق ، وأشد من ذلك وأقسى ما كان من احتلال المحاكم ليفصلوا هم أنفسهم فى جرائمهم ويتبادلوا أحكام التبرئة . وهذا الحلف بين البورصة ونقابة العمال قائم اليوم كما قام فى روما فى تلك الآونة ، ويقوم أساسه على التطور الطبيعى لمثل هذه العصور

لأنه ينشأ بسبب البغض العام لسلطة الدولة ولزعماء الاقتصاد المنتج ، أولئك الذين يقفون حجر عثرة فى طريق النزعة الفوضوية لاكتساب المال دون بذل جهد ما . إن ذلك السياسى الغِرّ ماريوس ، وكثيراً من زعماء الأحزاب الشعبيين ، ومؤيديه : ساتورنينوس وسِنّا - لم يختلفوا فى تفكيرهم عن جراكوس ، ولذلك قام الدكتاتور القومى سولا بعد فتح روما عنوة بمجزرة مرعبة فى رجال المال فيها فلم تقم لهم بعدها قائمة . ومنذ حكم قيصر اختفت عن مسرح التاريخ اختفاء كاملا هذه الطائفة باعتبارها عنصرا سياسيا . لقد كان كيانها كقوة سياسية محكم الارتباط بعصر الفوضى الحزبية الديمقراطية ، ولذلك لم يعد لها من بعده بقاء .

- ١١ -

وليس لهذه الثورة التى تدوم أكثر من قرن - أية صلة فى أعماقها بالاقتصاد فى ذاته . وهى عصر طويل من الانحلال لجميع حياة الحضارة على اعتبار الحضارة نفسها كائنا حيا . إن الصورة الداخلية للحياة تتفتت ومعها المقدرة على التعبير عن ذاتها بالمنشآت المبدعة التى يؤلف مجموعها تاريخ الدول والأديان والفنون . يحدث ذلك التفتت بعد أن تنضج الحضارة وتبلغ أوج إمكانياتها ، ويتبع الفرد فى كيانه الذاتى سير الجماعة : فأعماله ومسلكه وإرادته وتفكيره ولون تذوقه للحياه تُكوِّن فى حتميتها - على رغم قلتها - عنصرا من عناصر هذا التطور ، فإذا ماخلط ذلك بأمور الاقتصاد كان هذا الخلط من سمات الانحطاط المتغلغلة فى نفسه ، سواء أحس ذلك أم لم يحسه . إن من البديهى أن صور الاقتصاد ليست إلا مظاهر حضارية على قدر الدرجة

المثالية التي عندها الدول والأديان والأفكار والفنون . ولا نعني صور الحياة الاقتصادية التي تنمو وتفنى في معزل عن إرادة البشر ، وإنما نعني الإنتاج المادي للنشاط الاقتصادي الذي يضعه الإنسان اليوم من تفكيره في صف سواء مع الحضارة والتاريخ ، ويعتبر سقوطه ماديا وآليا ـ السبب الأصيل الجوهري في الكارثة العالمية .

إن مسرح هذه الثورة في الحياة وعلتها وتعبيرها هو « المدينة الكبيرة » التي تبدأ في الظهور في العصور المتأخرة من جميع الحضارات ، ففي هذا العالم الحجري والمحجر تتجمع في اطراد متزايد الشعبية الجذرة التي اجتثت من الريف الزراعي ، وهي الكم ـ في معناه المرعب ـ من رمل بشري لا صورة له ، يستطيع الإنسان أن يصوغه صوراً صناعية ، لاتبقى مع الزمن . هذه الصور هي الأحزاب والهيئات المنظمة طبقا لمناهج ومُثل ، وقد ماتت فيها قوى النماء الطبيعي المشبع بالتقاليد التي كونتها الأجيال المتعاقبة ، وفقدت إلى هذا الخصوبة الطبيعية للحياة كلها ، أعني غريزة بقاء الأسر والأجناس . إن الثروة النسلية وهي أهم خصائص الجنس السليم ـ تصبح ثقيلة على النفس ومثيرة للسخرية ، وتلك أخطر أمارات الأثرة في أهل المدن الكبيرة ، لقد أصبحوا هم أنفسهم ذرات للأثرة والأنانية ، وليست الأنانية بنقيض للاشتراكية التعاونية لهذه الأيام فلا يفرق بينهما على الإطلاق إذ ليس في كومة من الذرات حياة أكثر مما في ذرة منها ، ولكنها نقيض الغريزة التي اتصلت حياتها في دم النسل وفي العناية الإنسانية بأمره وفي ثبات اسمه على مر الزمن . ويترعرع بدلا من ذلك على أرض شوارع المدينة الذكاء الكالح ، وهو تلك الزهرة الوحيدة ، والعشب الطفيلي النامي في جموع عظيمة . إنه لم يعد بعد تلك الحكمة

المدبِّرة العميقة للعشائر الريفية القديمة ، الحكمة التى تبقى صحيحة مابقيت العشائر التى تتبعها ، وإنما أصبح الفكر المحض الشائع ، فكر الصحف اليومية والأدب الشائع ، والاجتماعات الشعبية ، الفكر من غير دم ، الفكر الذى ينخِر بنقده كلَّ مالايزال قائما رافع الرأس من حضارة حقة نامية .

حقا ، ليست الحضارة إلا نبتة ، وكلما كمل تمثيل الأمة للحضارة ـ التى تعد الشعوب الحضارية نفسها من إنتاجاتها السامية دائما ـ وكان انطباعها وشكلها بطراز الحضارة الأصلية أقطع ، كلما كان هذا وذاك بدا نموها أخصب تشكلا فى بناء طبقاته ومراتبه ، وذا فوارق ملزمة للاحترام ـ بادئة بطبقة الزراع المتأصلة ، وصاعدة إلى الطبقات المتزعمة فى مجتمع المدينة ، فهنا يتمثل معنى الحياة والمصير الشامل فى سمو الصورة والتقاليد والتهذيب والعرف ، وفى التفوق للفطرى للأسر السائدة والدوائر والشخصيات . إن مجتمعا ـ بهذا المعنى ـ لاتستطيع أن تمسه يد التصنيفات والمثاليات التى يلدها الفكر ، وإلا فقد كف عن الوجود ، إنه مجتمع يتكون من طبقات اجتماعية لا من طوائف اقتصادية . إن تلك النظرة الإنجليزية المادية التى تطورت منذ آدم سمث مع الراسيونالية المطردة النمو ، واشتقت منها ، والتى جعل منها « ماركس » منذ قرابة قرن نظاما سطحيا منحطا ـ لن يدنيها من الصواب أنها تحققت فى الفعل وسيطرت اليوم على كافة مناحى التفكير والنظر والإرادة بين الشعوب البيضاء . وإنها لإحدى أمارات سقوط المجتمع ، ولاتدل على شىء غير ذلك . وسيتساءل الناس فى دهشة قبل أن ينصرم هذا القرن عن طريق الأخذ فى جِدّ وبصفة مطلقة بهذا التقويم للصور والدرجات الاجتماعية على حسب أصحاب عمل وعمال ، ووفقا لمقدار المال الذى يحوزه

الفرد أو ينشد حيازته كثروة أو ريع أو أجر ، أى على حسب مقدار المال لا على حسب لون الارتباط المقيد بالطبقة فى طريق حيازة المال وتشكيله فى صورة ملكية حقة . إنه موقف البروليتيين والأغنياء المحدثين الذين هم فى جوهرهم من الطراز نفسه ، إنهم عين الفئة التى ترعرعت على بلاط شوارع المدينه الكبيرة بادئه باللص ومثير الزقاق إلى مضارب البورصة والسياسة الحزبية.

إن كلمة المجتمع العريق تعنى أن هناك حضارة ، وهى التمتع بالصورة إلى أدق تفاصيل السلوك والتفكير ، الصورة التى بناها تهذيب طويل المدى قامت به أجيال كاملة من البشر : عرف صارم ، ونظرة للحياة يتغلغلان فى الوجود كله مع ألوف من الالتزامات والقيود التى يندر أن يدركها الوعى ، أو أن تعبر عنها الألفاظ وتلك الالتزامات والقيود هى التى تجعل ممن تسيطر عليهم وحدة حية تمتد إلى ماوراء تخوم الأمم المختلفة ، وإن نبلاء الحروب الصليبية والقرن الثامن عشر لمن هؤلاء .

هذا ما يحدد المرتبة الاجتماعية ، أو التبعية للطبقة الراقية بتعبير آخر وذلك ما كان يدعى بين قبائل الجرمان بطريقة شبه خفية ـ بالشرف . ولقد كان ذلك الشرف قوة تتغلغل فى حياة الأجيال . وما كان الشرف الفردى إلا الشعور بتبعة الفرد المطلقة وأنه مسئول عن شرف الطبقة ، وشرف المهنة ، والشرف القومى . فلقد عاش الفرد فى حياة الجماعة ، وعاشت الجماعة فى حياته ، فكل ما كان يقوم به من فعل يجر معه إدانة الجميع ، ولم يكن موته مقصورا على الناحية النفسية إذا أصبح فاقد الشرف ، وجرحت كرامته وكرامة ذويه بسبب جريرته أو جريرة غيره .

وفى الحق إن كل مايدعوه الناس واجبا أى أساسا لكل حق صميم ، ومادة

أصيلة لكل عرف سام ـ يعود إلى الشرف : فالزارع له شرفه ككل ذى مهنة والتاجر والضابط والموظف وأسر الأمراء كذلك ، ومن خلا من الشرف لايكترث لأن يقف من نفسه كما يقف من أقرانه من حيث آداب اللياقة فهو وضيع ، لأنه يناقض السمو فى نظر كل مجتمع رفيع . هذه هى الضعة لا العوز والحاجة إلى المال كما يرى ذلك ويفهمه حسد الحاسدين فى يومنا هذا ، إذ فقد الناس كل سليقة للحياة الرفيعة والحساسية السامية ، وانحطت آداب السلوك الرسمية لكل الطبقات والأحزاب عن مستواها ونزلت إلى المستوى الدهمائى .

ولقد نمت فى المجتمع القديم فى غرب أوربة ، وهو الذى بلغ فى آخر القرن الثامن عشر من لون الحياة ورقة الصورة مالا مزيد عليه لمستزيد ، والذى أخذ فى كثير من خصائصه يصبح قصيما يسهل كسره ـ فى هذا المجتمع نمت البورجوازية الإنجليزية البوريتانية الموفقة فى الأعوام التى تلت الأربعين الأولى ، وطمحت إلى بلوغ مستوى حياة كبار النبلاء ، بل استشرفت إلى الاندماج فيهم ما استطاعت إلى ذلك سبيلا . وتتجلى قوة الصور ذات النمو القديم فى هذا الاستيعاب المستمر لتيارات جديدة من الحياه البشرية .

وقد نشأت منذ زمن أرستقراطية حقة تنتهج نهج النبلاء الأسبانيين ، ولوردات الإنجليز من ملاك المزارع الواسعة فى جنوب أمريكا الأسبانى وشمالها الإنجليزى . وقد أبيدت هذه الأرستقراطية إبان الحرب الداخلية (١٨٦١ - ١٨٦٥) وحلت محلها أرستقراطية ذوى الغنى المستحدث فى نيويورك وشيكاجو بنفحة مليارتهم وسحر ثرواتهم المستفيضة . وبعد ١٨٧٠ أخذت البورجوازية الألمانية الجديدة تتطور إلى اللون الصارم لحياة طبقة

الضباط والموظفين البروسية . وهذا أساس الوجود الاجتماعى فكل من ترفعه لعايته وقوته إلى الطبقة العليا ـ يجب أن تهذبه وتذله صرامة الصورة ومايحتمه العرف فإذا ما تمثلها ألقى بها إلى الأبناء والأحفاد فى اطراد ، وإن الطبقة الريفية لتتجدد فى اتصال لاينقطع بالدم الثمين الذى يأتيها من أسفل ومن ومن الخارج ، ويدل مدى ما تستطيع أخذه وتنقيته وتمثله من غير أن تتزعزع سلامتها ـ على مقدار القوة العميقة للصورة الحية .

وتنتهى هذه الصورة تماما حين تفقد بداهتها ، وحين تبيح تناول حتميتها بالنقد بل حين ترضى أن تصيخ إلى هذا ، إذ سيكون معنى ذلك فقدان النظرة إلى حتمية التشكيل العضوى الذى يضح كل لون من الإنسان ومن النشاط فى مرتبته الخاصة فى حياة المجتمع الشاملة ، وهذا يرادف معنى التشكل العضوى الذى لايسوى بين الأجزاء . نعم ، إن الإنسان يفقد الأحساس الوجدانى الحسن بطبقته الخاصة ، ويفقد الترحيب بانخفاض الطبقة وتقبله كأمر بديهى . وينتج عن هذا ، وفى مثل درجته من القوة ـ أن تفقد الطبقات المنخفضة الرغبة فى النهوض بما يفرضه هذا الانخفاض من أعمال فيها الاعتراف بضرورته وصوابه .

وهنا ـ كما هو الشأن دائما ـ تبدأ الثورة من أعلى لتخلى بعد ذلك الميدان للثورات من أسفل ، هذا إلى أن الحقوق العامة لايعطاها منذ قديم الزمان إلا أولئك الذين لم يفكروا فيها أبدا ولم يطلبوها . إن أساس المجتمع الحق عدم المساواة بين الأفراد ، هذه حقيقة طبيعية . فهناك طبائع قوية وأخرى ضعيفة ، أناس خلقوا للزعامة وآخرون ليسوا لها أهلا ، جماعة مبدعة وأخرى غير موهوبة ، شريفة وأخرى دنسة ، طموح وأخرى ساكنة . ولكل

منها مرتبتها فى نظام المجموع . وكلما علا قدر الحضارة ، ودنا تشكلها من تشكل الكائن الحيوانى أو النباتى السامى ، كانت فوارق العناصر البانية أكثر ، وأنا أقول الفوارق لا المخاصمات لأن الأخيرة لايحتملها إلا الفهم وحده . إن العبد السليم الفطرة لايفكر فى النظر إلى الفلاح على أنه مساوٍ له وكل رئيس عمال منتج لايرضى عن نغمة المساواة تنبعث من جانب العامل الأخرق . إن الحقوق المتساوية تخالف الطبيعة ، وهى علامة انحطاط المجتمعات الهرمة ونذير ببدء انحلالها المطرد ، وإن من الغباء فى التفكير أن يبدل بناء المجتمع الذى قامت على رفع قواعده قرون من الزمان ودعمته التقاليد ـ أن يبدل شيئا آخر ، وهل يستبدل بالحياة شيء آخر ؟ إن الحياة لايتلوها إلا الموت . هذا هو لباب المعنى وصميمه ، لايريد الإنسان أن يغير ويحسّن وإنما يريد أن يحطم ، فى كل المجتمعات تهبط إلى الأعماق دون انقطاع العناصر المنحطة ، الأسر المستنفدة ، الأعضاء المنحدرة لأجيال بشرية سامية التهذيب المخفقون ذوو القدر الضئيل من الروح والجسم . وليس على المرء إلا أن يتطلع حوله لتطالعه فى المجتمعات والمحال العامة والمواكب والمتهافتين على المشاجرات سحنات شتى لأشخاص شواذ فى أجسامهم ، ليس فى أدمغتهم إلا المشاكسة الكلامية ونزعة الانتقام ، إذ ليس فى أجسامهم مايزيد أهمية وخطرا على اللسان ، إنهم حثالة المدينة الكبرى ، هم الدهماء حقا ، والعالم السفلى بمعناه الكامل الذى ينهض فى كل الأنحاء بالمقاومة والمضادة الواعية للعالم الرفيع . هم البوهيميون الأدبيون ، والسياسيون ، والأشراف المنحطون ككاتلينا وفيليب إيجاليته ودوق أورليان ، والأكاديميكيون المحطمون ، والمغامرون والمضاربون ، والمجرمون والعاهرات والنشالون وضعاف العقول ،

وبين هؤلاء بعض الذين يرثى لهم ممن يحلمون بمُثل ما مجردة . وينظم هؤلاء وأولئك فى سلك واحد شعور غامض بالانتقام لما عكر عليهم صفو الحياة من سوء الحظ ، وانتفاءُ غرائز الشرف والواجب ، ونهم لايعوقه عائق بالمال يجمع دون عمل ، وبالحقوق تنال دون بذل واجبات . وهذا هو الجو الذى يظهرفيه أبطال الساعة لكل حركات الدهماء وللأحزاب الراديكالية . وفيه تكتسب كلمة الحرية معناها الدموى للعصور المُشْفِية على الانحطاط ، أى التحرر من كل قيود الحضارة ، من كل لون من العرف أو الصورة ، من كل أولئك النابهين الذين يثيرون فى أنفسهم حنقا بليدا على مارُزقوه من رفعة المستوى ، وعظمة الحياة . إن الفخار ، والفقر الذى تُوَطّن عليه النفس ، والقيام الصامت بالواجب ، والزهد فى سبيله ، أو فى سبيل العقيدة والعظمة فى حمل المصير ، والوفاء والشرف والتبعات ، والإنتاج ، إن كل أولئك مُثار إهانة دائمة لذوى الانحطاط وهوان الشأن .

لأكرر مرة أخرى أن الفقير ليس ضدّا للسّامى وإنما ضده الوضيع . وإن الفكر والإحساس النازلين لهذا العالم السفلى يغريان أهله باستخدام الجموع المجذرة فى المدن العظمى وهم الذين فقدت غرائزهم الثقة فيها ، ليبلغوا بهم أهدافهم وملاذهم الذاتية من انتقام وهدم . لذلك تحقن هذه الجموع الضالة الرأى « بشعور الطبقات » ، « وبغض الطبقات » بالخطابة والكتابة المتصلتين ، وتصور لهم الطبقات المتزعمة : الأغنياء والأقوياء تصويرا يناقض الحقيقة ، ولا يجرى مع الواقع ، تصويرا يبرزهم كمجرمين ومستغلين . وأخيرا يتقدم إلى هذه الجموع من يعرض عليها نفسه لينقذها ويلى زعامتها . إن كل الحقوق القومية التى يتشدق بها الضمير المريض والفكر المتزعزع

فى الطبقة العليا بطريقة عقلية (راسيونالية) تصبح مما تطالب به الطبقة السفلى فى بداهة ، طبقة الذين حرموا إرثهم ، وما يطالب بها من أجل الشعب لأنها تُعطى دائما من لم يفكر قط فى المطالبة بها ومن ليس له شأن بها ، وهذه الحقوق لم تكن مخصصة للأمة ، ولكن للحثالة التى تدعو نفسها ممثلى الأمة ، والتى تؤلف الآن عصابة حزبية راديكالية اتخذت من الحرب ضد القوى المشكلة للحضارة حرفة ، والتى تسلب الجموع تبعاتها بوساطة حق الانتخاب وحرية الصحافة والإرهاب .

هكذا تنشأ النيهيليستية ، وهى ذلك البغض العميق من جانب البروليتى للصورة المتفوقة بمختلف ألوانها ، للحضارة وهى كيانها وجوهرها ، للمجتمع الرفيع كحامل وكنتيجة تاريخية لها . إن مما يملؤه حنقا بليدا أن يكون شخص ما على صورة يسيطر عليها ويطمئن فى ارتياح إليها على حين يحس فيها الوضيع قيداً لايستطيع أن يملك معه حرية الحركة ، وأن تكون الكياسة وحسن الذوق وملكة تقدير التقاليد وتذوقها أمورا لاتورث إلا عن حضارة رفيعة لاتتهيأ إلا عن طريق التهذيب ، وأن توجد دوائر لاترى فى الشعور بالواجب وفى الزهد هزءا وسخرية بل ميزة وفضلا . من كل أولئك تفيض نفسه حنقا خامدا . ذلك الحنق الذى كان فى العصور الماضية يقبع فى الأركان حيث ينفث سمومه كترزيت(١) ، ولكنه اليوم يغمر الفطرة العامة للشعوب البيضاء فى اتساع وضعة ، إن العصر الراهن نفسه صار وضيعا ، ولا يعرف

---

(١) شخصية كريهة الصورة من شخصيات الالياذة ، تعد نموذجا للجبن ، بلغ من وقاحتها أنها كانت تسخر من أخيل وهو يبكى الأمازون ، بل سخرت من الأمازون نفسها

أكثر الناس مبلغ نصيبهم من هذه الضعة ، إن آداب السلوك فى كل البرلمانات والميل العام للمشاركة فى الأعمال التى لايقرها الخلق النقى لما فيها من ربح ينال دون بذل مايقابله من عمل ، ورقص الجاز والزنوج كتعبير نفسى لكل دوائر المجتمع ، وتلطيخ النساء لوجوههن على أسلوب العاهرات ، ونزعة الأدباء إلى السخرية والاستهزاء فى القصص والمسرحيات بالمجتمع الرفيع فى دقيق مبادئه وصرامة مسلكه ، وما تظفر به هذه النزعة من الإعجاب والاستحسان العام ، ثم فساد الذوق الذى تفشى أكابر النبلاء ، ووجد سبيله إلى قصور الأمراء ، والتحرر من كل القيود الاجتماعية ومن صرامة العرف ـ إن كل ذلك ليس إلا سيطرة الدهماء على الحياة العامة وذوقها ، وبينا يسخر المرء من الصورة الرفيعة والعرف القديم لأنهما لم يعودا أمرين خلقيين غير مقدر خطر الموقف وما يجر إليه من حياة أو فناء ـ إذا بهما يثيران فى الناحية الأخرى البغض الذى يتوق إلى الإبادة ، والحسد لكل ماتستطيع اليد إدراكه من رفيع يراد به أن ينحط ويَسْفُل . وليست التقاليد والعرف هما اللذان يهيجان وحدهما النفس الوضيعة من قمة الرأس إلى أخمص القدم ، إذ يهيجها كل لون من رقة الحاشية فى الثقافة والجمال والجلال ، وما الجلال إلا الدقة فى اختيار البزة ، وسلامة التصرف من نقد المجتمع ولوم الخلطاء ، والعبارة المختارة ، والسيطرة الطبيعية على حركات الجسم التى تنم على التربية السليمة وضبط النفس . إن الوجه السامى فى تكوينه والقدم الصغيرة التى ترتفع عن الأرض فى خفة ورشاقة ليناقضان الديمقراطية . إن الدعة الوقور محل ساحة الملاكمة وسباق الأيام الستة ، وإن الخبرة الأصيلة فى الفن الرفيع والشعر القديم بل ان السرور بالحديقة المشذبة وقد جمعت رائع الزهر ويانع الثمر ـ

إن ذلك ليدعو إلى التدمير حرفيا .. وإلى التحطيم والتفتيت بل إلى الرفث والسحق . إن الحضارة حين تسمو عدو تحب إبادته لا لشيء إلا لأن ما تبدعه وتخلقه ليس للجميع لمشقة فهمه ، وعدم إمكان تمثله فى داخل النفس .

هذه نزعة النيهيليستية : لا يفكر الناس فى تهـــذيب الجموع ورفعها إلى مستوى الحضارة الأصيلة لأن هـذا عمل مجهد مضجر يفتقر إلى أسس خاصة تعوز المجتمع ، وإنما يفكرون فى أن ينزلوا بالطبقة الرفيعة إلى مستوى الدهماء لتسود الضعة أو المساواة العامة . ويومئذ يصبح لاقتناء المال ، وإنفاقه أسلوب واحد هو أسلوب الخبز واللهو فهما ما يحتاج إليه إنسان هذه الجموع بل هما مايفهمه . أما التفوق وآداب السلوك والذوق السليم فجرائم ، وكذا الأفكار الخلقية والدينية والقومية ، والزواج فى سبيل النسل والأسرة وسيادة الدولة تعد عنده من الطرز القديمة الرجعية . إن الصورة التى تظهرها شوارع موسكو تبين الهدف ، ولكن ليحذر الإنسان الخداع ، فما انتصر هنا لم ينتصر بروح موسكو ، إن موطن البلشفية هنا فى أوربة الغربية ، وذلك منذ انتشار النظرة المادية العالميـة الإنجليزية للدوائر التى اختلط بها فولتير وروسّو كطالبين طيعين ، تلك النظرة التى وجدت تعبيرها الفعال فى بعقوبية القارة الأوربية . إن ديمقراطية القرن التاسع عشر قد صارت بصفة حاسمة بلشفية لاتجد لديها الشجاعة لمجابهة مظاهرها الأخـــيرة . فليس بين انتزاع الباستيل والجلوتين الدافعة للمساواة العامة من ناحية ، والمثل العليا ومعارك الشوارع عام ١٨٤٨ عام البيان الشيوعى من ناحية أخرى إلا خطوة واحـدة . وليس بين ذلك وانهيار القيصرية الغربية التشكل إلا خطوة أخرى .

إن الشيوعية لاتهددنا ، فلقد أصبحت تحكمنا ، وإن فكرتها عن المساواة

لاتعنى إلا التسوية بين الأمة والدهماء ، وإن حريتها ليست إلا التحرر من الحضارة والانطلاق من مجتمعها الراقى .

- ١٢ -

وأخيرا يتبع الحضارة السامية شيء آخر تبعية محتومة ، فيدفع الطبائع النازلة الوضيعة إلى الحسد والبغض فى ثورة وهذيان ، ذلك الشيء هو الملكية بمعناها الأصيل ، الملكية القديمة التى أورثها الآباء ، أو نماها صارم زاهد من عمل ذاتى فى عشرات السنين ، ثم تعهدت وكثرت للأولاد والأحفاد.

ليست الثروة أساسا للتفوق فحسب فهى إلى هذا عاقبة وتعبير له لا فى طريق تحصيلها ولكن فى المقدرة على تشكيلها واستخدامها عنصرا للحضارة الحقة . لأعد القول فى صراحة مرة أخرى ، ولأصفع به وجه الضعة فى هذا العصر : ليست الملكية رذيلة ، وإنما هى موهبة لم يظفر بها إلا القليل ، وانها لنتيجة لتهذيب طويل خلال أجيال ممتازة . وقد يصيبها أحيانا مؤسسو الأسر الناشئة بتهذيب ذاتى قام على أساس من الصفات العنصرية القوية التى لاترجع الى الموهبة العبقرية وحدها لأنها وثيقة الصلات بالمحيط المهذب والماضى المثالى. وليس كما مهما ، وانما المهم نوعها ، وطريق حصول الإنسان عليها . وان من ينشد الكم وحده ويتخذه غرضا فى ذاته ساقط وضيع ، ومن المستطاع أن يرغب المرء فى الملكية ويحوزها ويتوسل بها الى القوة ، وذلك هو وضع ألوان النجاح الاقتصادى وراء الأهداف السياسية ، فلا بد من المال لإدارة رحى الحروب ، وتوجيه دفة الدول . هذا ما انتهت اليه الخبرة القديمة ، وأثبتته الأوضاع الراهنة : فهمه قيصر حينما فتح بلاد الغال ونهبها ، وسيسل رودس

حينما استولى على مناجم جنوب إفريقية ليؤسس بها إمبراطورية تتلاءم مع ذوقه الخاص . ولن تدرك أية أمة فقيرة حظّا ما من ألوان النجاح السياسى وإن رأت فى الفقر فضيلة وفى الغنى خطيئة ورذيلة ، إن الملكية سلاح ، هذا هو المعنى الأخير الذى وعته وعيا تاماً وآمنت به إيمانا عميقا البعثات الجرمانية الأرضية والبحرية ، فلقد بنوا السفن ، واجتذبوا الأتباع بما غنموه من كنوز . وإن سخاء الملوك يميز هذه الإرادة للقوة ، وهو نقيض الشراهة والبخل ، ونقيض إسراف المحدث النعمة ، ونقيض حب الخير الصادر عن طبيعة نسوية متهافتة . ولكن ليس هذا مجاله . إنى أتكلم عن الملكيات التى تعتز بتقاليد الحضارة ، والتى تنبىء عن التفوق الداخلى ، وتمنح الامتياز على طبقات برمتها من الناس . تلك الملكيات ليست الكثرة من خصائصها : فقد تمثلها مزرعة صغيرة مُعْنًى بها ، أو صناعة ذاهبة الصيت حسنة السمعة ، أو حديقة محدودة يتجلى لعين الناظر إليها مبلغ مايبذل فى تعهدها وحياطتها من شغف وهوى ، أو منزل نظيف لمُعَدّن ، أو بضعة من الكتب ، أو نماذج منقولة عن الفن القديم . إذ المعول عليه أن يقتدر الإنسان على أن يحيل هذه الأشياء إلى عالم شخصى يمتزج بذاته ، فالملكية الحقّ روح بمقدار ما فيها من حضارة حقٍ ، وما تقويمها بالمال إلا لون من سوء الفهم يدنسها ويُمَرنّق صفاءها ، كما أن توزيعها بعد موت مالكها ضرب من ضروب القتل . تلك صورة الميراث عند الجرمان ، فلقد كانت فكرته لديهم أنه وحدة لاتنفصم عراها ، تتغلغل فيها روح من خلفها بعد قيامه على شئونها فهى مجموع لا يتجزأ ، ولكن من لى بمن يدرك ما أقول ؟ من لى بذى عين ثاقبة ، يحس الفارق الداخلى الذى يكاد يبلغ الميتافيزيكية بين الملكية والمال ؟

إن الممتلكات الحقة ذات ألفة بالغة بالمالك كالألفة المتوشجة بين المحارب الألماني وأسلحته التي ترافقه الى قبره ، وبين الزارع والضيعة التي فلحها الأجداد ورعوها ، وبين التاجر والمتجر الذي يحمل اسم رب الأسرة ذي الشرف المأثور عن ذلك الطراز القديم من التجار ، وبين المصنع والصانع الأصيل انه شيء لا يعبر المال عن قيمته للمالك بل تقيم قيمته وتثوى في ذلك الالتحام بالمالك التحاما لا يزيله الا الموت ، ولهذا كان المِلك الحقيق في معناه العميق ثابتا دائما لا منقولا ، لأنه يلتصق بالمالك ، ويتألف من أشياء غير تلك الثروات التي لا تهدف الا الى الاستثمار ، والتي لا تحدد الا بالكم ، والتي لا موطن لها . ومن أجل هذا تبذل الأسر الناشئة قصاراها في سبيل الملكية العقارية لأنها صورة أصيلة للملكية الثابتة ، على حين تهتم الأسر الغاربة المولية بتحويل ملكيتها الى نقد ، وفي هذين الاتجاهين يتجلى فرق ما بين الحضارة والمدنية .

ان المال أمر مجرد ، انه محض أداة لتقدير القيمة بلغة السوق التي يمكن قياسها رياضيا بمعيار أي نقد ، ان فتنته الوحيدة قائمة في امكان الحصول عليه بين يوم وليلة بأية وسيلة ، وان هذه الوسائل لتبدأ بألعاب الحظ والمصادفة ، وبالسرقة عن طريق السطو وتنتهي بالأعمال المالية المتصلة بالسياسة ومضاربات البورصات بمبالغ لا يملك الإنسان منها شيئا ، ويمكن فقدها في كل لحظة . وفي ذلك يتحد البروليتي ومحدث النعمة ، وفيه كذلك تبرز صلة عميقة بين البلشفية والأمريكانية ، فما يملكه كل زعيم راديكالي من زعماء الأحزاب . أو كل مضارب من مال يجب أن يعرض ليستمتع بمرآه غيرهم . ان قصور اليعاقبة الذين أثروا ، ورجال المال ذوي الحيلة منذ عهد الملتزمين الفرنسيين في القرن

الثامن عشر ثم المَيِّلين (١) الأمريكيين - لتتكلم بلغة صريحه . وكذلك كان الحال فى روما القديمة حيث كان يسخر مارسيال ، وجيوفينال ، وبترونيوس من ذلك العرض لكتل الأموال المجموعة فى سرعة .

حقا إن الإنسان حين يعطى ويبذل لاينشد إلا خدمة نفسه فى الواقع ، فهو حين يشارك فى مؤسسة خيرية أو يبذر ماله أو يهب منه لغيره يهمه أن يكون ثمة مشاهدون يعاينون مايأتيه ، فلا خير فيما يبذل إن لم يعلمه العالم أجمع . إن الإنسان ليطرب ويستمتع بالإنفاق للانفاق فى ذاته ، ويلذ له أن يلعب دور ميسنياس لأنه قدسمع به . وهو بذلك ما يسمى فى مونيخ Wurzen أى الغنى المحدث التوّاق إلى المنح ومحاكاة تريمالكيو (٢) . وهذا النوع من الناس يعنى كل أفراده بأن يشحنوا منازلهم بأشياء لايفهمون منها شيئا ، وحسبهم منها مادفعوه من أثمان - إن كل تجارة الفنون اليوم تقوم على هذا النوع ، وكذلك كانت حالها على عهد قيصر ، وأتفه نوع من هؤلاء المسرفين المستهترين وأسخفه يُعثر عليه أو به فى الملاهى الليلية القذرة (الكباريهات) حيث تبدو الأرباح الملوثة بين الخمر والميسر ، وقد برئت من هؤلاء منازلُ الطبقة الرفيعة من سكان المدن ذوى العراقة ، والضياعُ القديمة الأسر الحسيبة ، ولقد كان من آثار فقد الإنسان لروح الحضارة ، وطبيعة الاستمتاع التقليدى التى أعانته على أن يخلق الكثير من القليل ، والتى لم يعد فى مكنة المال أن يشتريها - أن افترس الحسد لهذا اللون من التفوق قلوب ذوى الطبيعة الوضيعة ، ويجب ألا يغيب عن الذهن كل حين ولاسيما

---

(١) المليونيريين

(٢) شخصية هزلية فى قصة بيترونيوس الرومانى تمثل الاسراف والبذخ الأجوف

اليوم إذ افتتن الثوريون الوطنيون فى ألمانيا بمُثُل الفقر العام ، والقذارة : كالراهب الشحاذ ، وكالماركسيين الذين يعلنون أن تملك أى قدر من الثروة يعد جريمة وخطيئة ، ويثيرون حربا شعواء على كل ما فيه حضارة رفيعة وعلى كل من يتفوق على غيره فى المقدرة على تحصيل الملكية وصيانتها واستخدامها وما سرور فيما يعلنون إلا عن حسد حملوه لهذه الكفايات التى تعوزهم جميعا. أقول : يجب ألا يغيب عن الذهن أن الحضارة العليا مرتبطة أحكم ارتباط بالترف والثروة ، ، إن الترف ـ وهو التحرك البديهى بين أشياء الحضارة التى تتبع شخصيتنا ـ أساس العصور المبدعة جميعها ، وقوام ماتتمخض عنه من فن عظيم أُودى وقضى نحبه لانطفاء الحياة الفنية الحقة منذ القرن الماضى ، تلك الحياة التى ازدهرت بين الخبراء والمبدعين لروائع الفن لا بين تجار التحف والنُّقدة والمتحذلقين والشعب بل الجمهور . إن الثروة التى تحرزها أيد قليلة فى طبقات سائدة ، هى مع غيرها أساس تهذيب أجيال من الأدمغة السائدة عن طريق الصورة المثالية لمحيط أدرك فى تطوره مرتبة سامية ، لا يتأتى من دونها وجود حياة اقتصادية سليمة ، ولا تطور كفايات سياسية . قد يكون المخترع فقيرا ، ولكن مواهبه العظيمة لن تنضج ولن تستقر فى شعب يتكفف الناس . ولا فرق بين مواهب المخترع والمواهب السياسية والفنية . وإلى هذا يرجع السر فى الحال التى أصبح عليها الشعب الألمانى منذ عام ١٦٤٨ ، ذلك الشعب الغريب عن العالم ، المؤلف من نظريين وشعراء وموسيقيين ، وتلك نواح لا تتطلب مالا . لقد خلط ولا يزال يخلط بين الأوهام الرومانتيكية والسياسة لأن الأولى لا تكلف شيئا غير النجاح . ولكن الثروة فكرة نسبية ، فما كان يعد عام ١٧٧٠ فى إنجلترا ثروة قليلة عُدّ فى بروسيا ثروة كبيرة ،

وكذلك الفقر ، فقد كان النبلاء البروسيين فى عصر رخائهم فقراء ، وإن لم يحسوا ذلك الفقر فى ذاته ، ومن أجل هذا كانوا حين يقاسون إلى أشراف الإنجليز فقراء فى مواهبهم ، فالمواهب على الجملة تتطلب حياة المجتمع الراقى ليتولى تهذيبها وصقلها . إن العوز فى الملكية الواسعة أو الإيراد الكبير ليس سوء حظ ولا بؤسا ، كما أن وجودها قل أن يعنى حسن الحظ بمعناه المألوف . وإن الإحساس بالفوارق ليس وليد الأمر الواقع فى ذاته ، وإنما هو أثر للتفكير فيه ، وإن التبعة فى هذا الاحساس لتقع على الحسد وحده ذلك ان الانسان لايشعر بالبؤس إلا إذا ثار حسده فتقززبحياته المتواضعة ، ولقد كانت هذه مهمة الديماجوجيين فى كل العصور . لقد كان الرجل الفقير يشعر بالسرور من غير حسد فى نورمبرج أيام «ألبريخت ديرر» وهو يعايش الطبقات العليا ويعاين أبهتها إذكان يغمره شطر من بهاء مسقط رأسه وكان يدرك أن مستوى حياته متوقف عليها ، وأنه لن يشعر بسعادة قط إذا ما استبدل بمستواه فى الحياة مستوى غيره ، وإن الصناع والأجراء لفلاحة الأرض ليشعرون بتفكيرهم غير المهذب أن الملكية تبعة وهم وعمل فوق كل شىء ، ومنذ انتشر التفكير الراسيونالى فى القرن الثامن عشر ، وتناول الحياة والتاريخ ومصير الإنسان ـ هذب الحسد وفق خطة وضعها العالم السفلى لمحترفى السياسة وكتاب العصر الديموقراطيين أمثال روسو ، أولئك الذين كانوا يربحون منه ، ويشبعون به مشاعرهم المريضة . ذلك الحسد الذى ما كان ليخامر شعور العامل الكفء المجد ، فما أبعده عن طبيعته . ولقد تحولت وتطورت الرغبة الشرهة فى ملكية الآخرين ، التى أصبحت تسمى «مسروقات» من دون اعتبار لما أفرغ فيها من عمل ومقدرة ، هذه الرغبة الشرهة تحولت

إلى نظرة عالمية ، وأنتجت سياسة سفلية تلائمها .

وحينئذ تبدأ الثورة الاجتماعية فى اتخاذ نزعة اقتصادية . تختار للتعبير عنها نظريات مثيرة لا من جهة تنظيم الاقتصاد وتحديد أهدافه ، بل من جهة النظرة إلى القيمة النقدية لمستثمراته ومحصولاته . وهكذا تخلق المقابلات بين الغنى والفقير المتحريش بينهما ، وإغراء كل منهما بالآخر ، ويصبح الأمر أمر امتلاك كل موجود قابل للتحويل إلى نقد ، امتلاكه عن طريق القسمة أو الملكية الشائعة ، ثم تدمير مالا يستطاع امتلاكه لئلا يتمكن أحد من حيازته والانتفاع به . ومن هذا الشعور والتفكير اللذين اختلجا فى نفوس من يطلقون على أنفسهم زعماء ، ونبضت بهما أيضا نفوس الطبقات الدنيا ـ ينشأ كل شيء مما كان يسمى فى تاريخ روما القديم التوزيع المتساوى للملكية وما يدعى اليوم كفاح الطبقات ، والاشتراكية . إنه الكفاح بين الناحيتين السفلى والعليا للمجتمع ، الكفاح الذى تدور رحاه بين زعماء الأمم وزعماء الطبقة الدنيا الذين تصبح حياتهم طبقات العالم محض أشياء ووسائل لأغراضهم الكفاح الذى تقوم فيه الطبقة العليا الهرمة العجوز بدفاع واهن على حين يقوم أعداؤهم الألداء بهجوم لا رحمة فيه . وذلك إلى أن تقضى القيصرية الناشئة لديكتاتورية البروليتارية على النزعات الجراكية والكاتيلانية .

ـ ١٣ ـ

هكذا قد حصلنا على الأسس التى تحدد الثورة البيضاء فى مداها الكامل ، وأهدافها ، ومدتها ، وتطورها المنطقى ، ولم يكن ليقدم على هذا أحد من قبل بل لم يكن ليستطيعه قبل أن تبلغ بنا نتائج الحرب العالمية الأولى مستهل عقودها

الفاصلة. إن الشك الذى هو أساس النظرة التاريخية ليس أول الأمور كما أن احتقار البشر هو الأساس المحتوم للمعرفة العميقة للناس .

إن هذه الثورة لاتبدأ باشتراكية القرن التاسع عشر المادية ، ولا ببولشفية ١٩١٧ من باب أولى ، فلقد أخذت صورة انعقادها القانونى (١) منذ أواسط القرن الثامن عشر . ففى ذلك الوقت أخذت روح النقد الراسيونالية ـ التى سمّت نفسها فى خيلاء فلسفة التنوير ـ توجه نشاطها المدمر من ميدان الأنظمة اللاهوتية للمسيحية ، والنظرة العالمية التقليدية للمثقفين ، تلك التى لم تكن إلا لاهوتية عارية من إرادة التنظيم ـ أخذت توجه نشاطها من هذا الميدان إلى الأمور الواقعة فى الحقيقة ، إلى الدولة ، إلى المجتمع ، وأخيرا إلى الصور المنظورة للاقتصاد ، وبدأت بتفريغ الأفكار المسماة أمة، وحقا ، وحكومة من مدلولها التاريخى ، وبنت الفارق بين الغنى والفقير على أساس مادى بحت فى تضاد خلقى يعلن عن نفسه ، بدعاية مهيجة لاتنبعث عن عقيدة وحسن قصد . وبهذا يتصل الاقتصاد القومى الذى ظهر كعلم مادى أسسه آدم سمث حوالى عام ١٧٧٠ فى محيط هارتلى وبريستلى وماندفيل وبنتام أولئك الذين جروا على اعتبار الإنسان مجرد تابع للحال الاقتصادية ، وعلى تفسير التاريخ على أساس من السعر والسوق والبضاعة . فهو المؤسس لفكرة العمل لا على أنه جوهر للحياة ، ومهنة ، بل على أنه بضاعة يتجر فيها العامل لقد تجوهل كل ما يشكل التاريخ من العواطف والخصائص المبدعة للشخصيات والعناصر البشرية القوية ، تلك هى الإرادة المصوبة إلى الأمر والسيطرة ، إلى القوة والغنيمة ، هى النزعة للاختراع ، والبغض ، والانتقام ، والاعتداد

(١) بلغة المحاكم والجلسات

الفخور بالقوة الذاتية ، وما تصيبه من نجاح ـ هذا فى ناحية ، وفى الناحية الأخرى الحسد والكسل والمشاعر المسممة للناقص القيمة ، وهكذا لا يبقى غير قوانين المال والثمن التى تعبر عنها الإحصاءات والمنحنيات البيانية .

وبجانب هذا يبدأ مذهب التعذيب الذاتى للمجتمع الراقى الآخذ فى السقوط والبالغ من حدة الذهن وصفائه حظا موفورا يصرفه فى السخر والدعابة ، والذى يصفق استحسانا لما يسدد إليه من إهانة : و « زفاف فيغارو » تأليف بوماريشه التى مثلت برغم الحظر الملكى فى قصر « جنفلييه » أمام الأشراف المبتسمين ، وقصص فولتير التى التهمتها دوائر المجتمع الرفيع من لندن إلى بطرسبورج ، ورسوم هوجارت ، ورحلات جليفر ، واللصوص والدسيسة والحب ، وهذه الأخيرة هى المؤلفات الملهمة الوحيدة للأدب الثورى ـ وكلها بحكم جمهورها الذى لم يكن قط من الطبقات الدنيا تدل على ما أسلفنا من حال هذا المجتمع ، أما ما كان يكتب فى دوائر العقليين فى المجتمع الرفيع كرسائل لورد شترفيلد وحكم الدوق لاروشفوكو ، ونظام الطبيعة للبارون هولباخ ـ فقد كان يعد إلى جانب الأولى للغته العميقة ، وفكرته الدقيقة غير مفهوم ، هذا إلى أن القراءة والكتابة لم يكونا قد ذاعا بعد فى الطبقات الوسطى ،

أما زعماء الجماهير المحترفون للعالم السفلى فى المدن ، الذين لم يتعلموا شيئا غير إلقاء الخطب وتسطير المذكرات فإنهم فهموا حق الفهم أن هذه الكتابات تتمخض عن ربح عبارات خلابة براقة تتخذ وسائل للدعاية والتهييج بين الجماهير . وقد بدأت الاضطرابات فى إنجلترا بقضية ويلكس ، الذى كان انتخابه لمجلس العموم يعاد ويجدد إذا ما حكم عليه لطعنه فى الحكومة . ولقد كان

نداء «ويلكس والحرية» فى المجتمعات والاضطرابات المنظمة يعتبر مطالبة بحرية الصحافة وحق الانتخاب العام بل بالجمهورية . وفى ذلك الوقت كان «مارا» قد كتب فى إنجلترا للانجليز عام ١٧٧٤ كتيبه «سلاسل العبودية» . وقد نشأ عن الحركات الإنجليزية فى هذه السنين ضياع المستعمرات الأمريكية عام ١٧٧٦ ، وإعلانها الحقوق العامة للانسان ، والجمهورية ، وشجر الحرية وجماعات الفضيلة . ومنذ عام ١٧٧٩ ، وما وليه من أعوام نشأت النوادى والجماعات السرية ، وانتشرت فى المملكة كلها ، وحاولت إشعال الثورة ، وأرسلت بزعامة الوزيرين شريدان وفكس إلى حكومة المؤتمر واليعقوبيين رسائل التهنئة والنصح ـ ولولا أن البلوتوقراطية الإنجليزية المسيطرة كانت أكثر همة من بلاط فرساى الخائر ـ لاشتعلت الثورة فى لندن فى وقت أكثر تبكيرا من ثورة باريز . أما فى ألمانيا فلم يحدث ذلك إذ لم يكن هناك حاضرة ألمانية مركزية بها يلحقها من المهيجين السياسيين وأدباء الأركان والمجرمين المحترفين الذين كانوا يقودونها . لم يكن ثمة أحد من هؤلاء ، أما المثاليون فقد كانوا هنالك . وفى باريز لم تكن النوادى ولا سيما نوادى الفويان واليعقوبيين ببرابجها وصورة دعايتها وشعبها المنتشرة فى أنحاء فرنسا ـ لم تكن إلا صورا للنوادى الإنجليزية ، التى استعارت من الأولى فى مقابل ذلك ـ اللفظ الفرنسى « مواطنا » Citoyen بعد أن ترجمته إلى الإنجليزية بـ Citizen وصاغت المؤنث الجديد Citizeness واستعارت إلى هذا عبارة الحرية والمساواة والأخوة ، وتسمية الملوك بالطغاة . ومنذ ذلك الحين إلى اليوم ظلت هذه العبارات صورة للاستعداد التمهيدى للثورات ، ونشأت المطالبة العامة بحرية الصحافة والاجتماع كوسيلة لذلك ، وهذا هو

المطلب الرئيسى لليبرالية السياسية ، لرغبة التحرر من القيود الخلقية للحضارة القديمة ، ولم تكن المطالبة بحرية الصحافة والاجتماع عامة مطلقا . وإن سماها كذلك الصارخون والكتاب الذين يرتزقون منها ، ويهدفون من ورائها إلى أغراض خاصة . أما أفراد المجتمع القديم الذين شغفوا بالذكاء ، وهم المتعلمون الذين يناظرون الطبقة المتوسطة الحضرية فى القرن التاسع عشر ، أى ضحايا هذه الحرية ـ فقد رفعوها إلى مرتبة المثل الأعلى الذى لا يقبل النقد فى دوافعه . وإننا اليوم ـ ونحن لانواجه آمال القرن الثامن عشر فحسب بل مخلفات القرن العشرين ـ لنجد الموقف أخيرا يسمح بالبحث والتساءل: ممن هذه الحرية ؟ ولأجل من ؟ ومن كان يرشو الصحافة ، وينفق على وسائل الدعاية والتهييج ؟ ومن كان الرابح ؟ لقد تبدت هذه الحريات فى كل مكان كما هى فى الواقع ، وسيلة للنيهليستية لتقصيب المجتمع ، ليتذرع به العالم السفلى إلى حقن جموع الدهماء فى المدن الكبيرة بالرأى الأكثر كفالة للنجاح ، وإنها لمستعدة للتأثر لما تراد عليه من رأى إذ ليس لها رأى خاص بها ، ويقول جوته : «لايطالب بحرية الصحافة إلا من يقصد إساءة استعمالها» ولهذا نجد تلك الحريات ـ بما فيها حق الانتخاب العام ـ تحارب وترد إلى نقيضها دائما بصفة مطردة حين تبلغ هدفها ، وتلقى بالسلطة فى أيدى مستغليها ، وبحسبنا أن ننظر إلى فرنسا اليعقوبية عام ١٧٩٣ ، وإلى روسيا البلشفية وجمهورية نقابات العمال فى ألمانيا منذ عام ١٩١٨ ، لنتساءل : فى أى العامين كان تعطيل الصحف أكثر وأشد : أفى عام ١٨٢٠ أم عام ١٩٢٠ ؟ . لقد كانت الحرية دائما حرية الذين يرغبون فى اغتصاب السلطة لا الذين يريدون القضاء عليها .

هذه الليبرالية النشيطة تخطو فى اطراد منطقى من اليعقوبية الى البولشفية .

ليس ذلك تضاد الفكر والإرادة . وإنما هما الصورتان المبكرة والمتأخرة ، البدء والنهاية لحركة واحدة . ولقد بدأت حوالى عام ١٧٧٠ بنزعات عاطفية اقتصادية اجتماعية ترمى إلى تدمير المجتمع القائم على نظام الطبقة والمرتبة ، فالإنسان يرغب أن يعود أدراجه إلى الطبيعة ، إلى القطيع المتماثل الوحدات ، يجب أن يستبدل بالطبقات ماليس بطبقة : المال ، والفكر ، المكتب التجارى ومنصة المحاضرة أو الخطابة ، الحسبة والكتبة ، وأن تحل الحياة الفاقدة الصورة محل الحياة الزاخرة بها ، فيقضى على آداب السلوك ، والواجبات وما يجب أن يستشعره الأدنى من تبجيل للأعلى . وحول سنة ١٨٤٠ تحولت هذه النزعة السياسية الاجتماعية إلى سياسية اقتصادية ، تجعل هدفها المالك من الزارع إلى صاحب العمل بعد أن كان هدفها من قبل رجال الطبقة الارستقراطية ، ولم يقتصر مايوعد به أتباع هذه الحركة على المساواة فى الحقوق بل تعداها إلى أن يُميّز المعدمون فيما يصيبونه من هذه الحقوق ، إن الحرية لم تعد للجميع إذ انتهى الوضع إلى دكتاتورية البروليت فى المدينة الكبيرة ، أعنى طبقة العمال . وليس فى ذلك فارق فى النظرة العالمية ، فقد ظل الأمر ماديا ونفعيا ، وإنما الفارق فى الطريقة الثورية فحسب ، فالديماجوجية المحترفة تعيء شطرا آخر فى الأمم لحرب الطبقات ، ففى عام ١٧٧٠ اتجهت مترددة صوب الزراع والصناع فى إنجلترا كما فعلت فى فرنسا . إن كراسات الشكاوى لنواب المدن الصغرى والريف عام ١٧٨٩ تلك التى كانت تمثل صرخة الأمة لم يكتبها إلا الصائحون المحترفون . أما جمهور الناخبين فلم يكن ليفقهها قط ، إذا كانوا على حظ من التقاليد المتأصلة حال بصفة مطلقة دون أن يستغلوا فيتخذوا وسيلة وسلاحا . ولولا غوغاء الضواحى الشرقية لاستحال

ظهور حكم الإرهاب فى باريس ، ولقد كانت الحاجة ماسة فى المدينة الكبيرة إلى استخدام القبضات المعدة فى غير انقطاع . وليس من الحق فى شىء أن يقال : إن العوز الاقتصادى كان متفشيا ومجهدا ، فالضرائب والمكوس كانت من حقوق السيادة ، وحق الانتخاب العام لم يكن غير ضربة مسددة إلى بناء المجتمع ، وإلى هذا كان فشل حكومة الوفاق ، إذ لم يكن ليؤمن جانب الزراع والصناع كأتباع للديماجوج المحترفين لما فيهم من احترام أصيل لفارق الطبقة : كانوا على وفرة فى الغريزة وفقر فى الذكاء الحضرى ، كانو مجدين وقد شدّوا من المعرفة شيئا ، كان همهم أن يخلفوا المزرعة أو المصنع لأولادهم ، ولم تجد البرامج والعبارات الأخاذة الشائعة سبيلها إلى نفوسهم لتحيدهم عن هذه الجادّة ، وتؤثر فيهم تأثيرا دائما .

وحول عام ١٨٤٠ لاقبل ذلك وجدت الديماجوجية الغرب أوربية الكاتبة الخطيبة التى انتهت فى تطورها إلى صورة واحدة ـ الوسيلة الناجعة إلى بلوغ أغراضها فى تلك الجموع المجذرة التى تجمعت حول الفحم فى شمال أوربة ، والتى تعد نموذجا لصنف العامل الصناعى .

يجب أن يدرك الإنسان فى جلاء حقيقة واقعة لم يخفها من أساسها غير ضباب المعارك السياسية الحزبية : تلك الحقيقة هى أن الشقاء الاقتصادى الذى أنزلته الرأسمالية بالبروليتارية لم يكن هو الذى أنشأ الاشتراكية ، وإنما أنشأتها الدعاية المهيجة التى خلقت هذا التصوير المتعمد للأمور كما حدث قبل عام ١٧٨٩ ، حين خدعت طبقة الزراع البائسين فأعطتهم صورة زائفة كل الزيف لتتخذهم أتباعا مخلصين . وآمنت بذلك البورجوازية المتعلمة ، ونصف المتعلمة ، ولاتزال تؤمن به إلى اليوم . لقد حفت بكلمة عامل منذ ١٨٤٨

هالة من القداسة ، دون أن يفكر الناس فى معناها وحدود تطبيقها . إن طبقة العمال لا وجود لها فى البناء الاقتصادى لأى شعب ، فما من علاقة تجمع عامل المنجم ، والبحار والحائك ، وعامل المعادن والنُّدُل ، وموظف المصرف وعامل المزرعة ، وكناس الشوارع ، وترّد هذه الأخلاط المتنافرة سياقا متجانسا . ولكنها على رغم ذلك قد أصبحت حقيقة سياسية ، حزبا مهاجما يشطر الشعوب البيضاء شطرين : يقوم أحدهما على إطعام جيش من موظفى الأحزاب وخطباء الجماهير ومحررى الصحف وممثلى الشعب ، وعليه أن يضحى بدمه لأغراض هؤلاء الشخصية . وهذا هو معنى وجوده . إن مقابلة الرأسمالية والاشتراكية ـ وهما كلمتان فشل فى تعريفهما فشلا ذريعا قدرُ عظيم من الأدب ، فالألفاظ الخلابة التى لها فرقعة فارغ البندق لاتحدد لأنها لاتشتق من أية حقيقة ، وقصاراها أن تكون مثيرة مهيجة ـ هذه المقابلة بين الرأسمالية والاشتراكية قد زج بها ماركس فى علاقات الصناعة الإنجليزية الآلية ، ولم يأخذها عنها ، ولم يتأت له ذلك الزج إلا بإغفاله كل الذين يعملون فى الزراعة والتجارة والنقل والإدارة . وكان مبلغ القلة من مطابقة هذه الصورة لعالم الحقيقة وسكانه فى ذلك الزمن أن الجنوب أصبح منفصلا عن الشمال نظريا ، ويقع الحد بينهما على التقريب فى خط تقريبى ممتد من ليون إلى ميلانو . ففى الجنوب الرومانى حيث يقل العمل وحيث مطالب الحياة محدودة ، وحيث لافحم ، وبالتالى حيث لاتقوم صناعة كبيرة . وحيث يختلف الجنس البشرى نفسه تفكيرا وشعورا ـ تنشأ النزعات الفوضوية والسنديكالية التى ترى مثلها الأعلى فى انحلال كتلة الشعب ذات الشبه الكبير بالكائن الحى إلى جماعات صغيرة فاقدة للتنظيم السياسى ومكيفة بذاتها . أى جماعات

بدوية لاتعمل شيئا .

أما فى الشمال حيث يستدعى الشتاء الصارم عملا أكثر صرامة ، عملا ضروريا لا يمكننا فحسب ، حيث ينضم الكفاح ضد البرد ، إلى الكفاح ضد الجوع منذ أقدم الأزمان ـ فينشأ من إرادة الحياة الجرمانية الموجهة إلى التنظيم الواسع . أنظمة الشيوعية المطلقة التصرف التى تستهدف الديكتاتورية على العالم أجمع .

ولقد أدت حقول الفحم فى هذه البلاد الشمالية فى أثناء القرن التاسع عشر إلى تجمع الناس والثروة القومية تجمعا لم يسبق له مثيل فصار للديماجوجية فيها وفيما وراء حدودها قوة أخرى بلغت الغاية فى قوة دفعها ، وانتصرت الأجور المرتفعة لعامل المصنع الإنجليزى والألمانى والأمريكى على أجور عمال الزراعة فى الجنوب ، لا لشىء إلا لأنها لم تكن أجور جوع بالذات ، وهكذا انتصرت الماركسية على نظريات فوريه ، وبرودون نتيجة لهذا التفوق الرأسمالى للوسائل الحزبية فحسب لم تعد الفلاحة محترمة من إحدى هذه النظريات ، إذ لم يبق لها باعتبارها سلاحا فى حرب الطبقات إلا قليل من القيمة ، لأنها ليست فى متناول اليد فى أى وقت ، فلا يلقى أهلها على بلاط الشوارع ولأن تقاليدها فى الملكية والعمل تناقض أغراض النظرية الماركسية ، ولذلك تتجاهلها مشيعات البرنامج الشيوعى ، « فالبرجوازية والبروليتارية » عبارتان أخاذتان تروجان فى سهولة ، وكلما كان المرء أدخل فى السذاجة قل إدراكه لما يخرج عن هذا البرنامج .

وتبنى كل ديماجوجية برنامجها على حسب ذلك الشطر من الأمة ، وهو الذى تعتمد عليه فى التعبئة لأغراضها . ففى روما منذ عصر فلايميوس إلى

ك. جراكس ، كان الفلاحون الذين رغبوا فى الأرض ليزرعوها هم ذلك الشطر ، لذلك كان توزيع المنطقة الغالية جنوب نهر « البو » بوساطة الأول ، والمطالبة بتوزيع الأراضى العامة بوساطة الثانى . وقد قضى على جراكوس أن الزراع الذين هاجروا إلى روما أفواجا للتصويت عادوا إلى أوطانهم لحصد المحصول . ومنذ ذلك الحين عولت الديماجوجية من أمثال سينا ، وكاتلينا على الرقيق ، وانصرفت عن الأجراء اليوميين المجدين ، كما حدث فى المدن اليونانية منذ عصر كليون ، عولت على الغوغاء المحترفين مهما يكن أصلهم ، الغوغاء الذين رغبوا فى أن يتخذوا من شوارع روما مجالا به يقيمون ويعلفون ويلهون ، شعارهم خبز ولهو . ولقد حوول طوال قرن اجتذاب هذه الجموع بالمغالاة فى بذل المال إذ أصبحت من الكثرة حتى بعد قيصر على حال ظلت معها مثار خطر دائم على الجمهورية العالمية . وكلما ازداد هؤلاء الأتباع تفاهة وهانت أقدارهم كانوا أسهل قيادا وأسلس انقيادا واستخداما ، ولهذا كانت محاولة البولشفية منذ الكومون الباريزى فى ١٨٧١ التأثير فى العامل المحترف المجد القانع الذى يفكر فى مهنته وأسرته أقل جدوى منها على حثالة المدينة الكبيرة التى تأنف من العمل وتجنح للنهب والقتل. لذلك اتخذت الأحزاب النقابية الحاكمة فى ألمانيا منذ ١٩١٨ إلى أشد سنى التعطل عن العمل ـ اتخذت حذرها لكى لاتمكن التفريق القانونى بين المتعطلين وغير الراغبين فى العمل من الظهور . ففى ذلك الوقت قامت إلى جانب مساعدة المتعطلين المزعومين الحاجة إلى العمال ولا سيما فى الريف . ولم يكن هناك من يرغب جادا فى منع ذلك ، وأسىء استعمال صندوق المرضى من الألوف المهاربين من العمل ، لقد قامت الماركسية فى صراحة على رعاية العطلة وتهذيبها

فى مبدأ أمرها . إن فكرة البروليتى فى حقيقتها لاتهيء للسرور بالعمل ، وإن العامل الذى يستطيع العمل ، والذى يفخر بما ينتج ليس أهلا لأن يكون بروليتيا ، إنه يقف حجر عثرة فى وجه الحركة الثورية ، لهذا يجب دفعه إلى الانحطاط الخلق وتحويله إلى بروليتى ليكون آلة طيعة فى يد هذه الثورة . هذه هى البلشفية الحقة التى وجدت فيها تلك الثورة أوجها ، والتى لم تصل بعد إلى خاتمتها .

إن من خصائص سطحية التفكير للعالم الأبيض كله أن تعتبر هذه البلشفية مخلوقا روسيا يهدد بالغزو غرب أوربة ، فلقد نشأت البولشفية على الحقيقة فى غرب أوربة ، وكان نشوءها نتيجة منطقية محتومة كالمرحلة النهائية لديمقراطية ١٧٧٠ الليبرالية ، وكالنصر الأخير للراسيونالية السياسية ، أى لحماقة الرغبة فى السيطرة على التاريخ الحى بالأنظمة الورقية والمثل العليا . إن الاندلاع الأول بنموذجها الكبير كان بعد معارك يونيه ١٨٤٨ متمثلا فى الكومون الباريزى عام ١٨٧١ الذى أوشك أن يكتسح فرنسا جميعها . ولم يمنع ذلك غير الجيش وغير السياسة الألمانية التى أيدته أدبيا ، فحينئذ لا فى عام ١٩١٧ بالروسيا نشأ عن الحقائق الواقعة لعاصمة محاصرة ، مجالس العمال والجنود التى أوصى بها ماركس منذ ذلك الوقت ـ وهو فى الأمور العملية مغفل غر ـ كصورة ممكنة لحكومة شيوعية . وفى ذلك الوقت تمت المذابح المروعة التى اجتاحت الخصوم وكلفت فرنسا من الأرواح مافاق جميع خسائرها فى حرب ألمانيا . فى ذلك الوقت لم يكن الحكام على الحقيقة هم العمال ، وإنما كان الحكام هم تلك الحثالة الكارهة للعمل ، المؤلفة من الهاربين من الخدمة ، والمجرمين ، والقوادين ، والأدباء ، والصحفيين ، وبينهم كثير من الأجانب

بولنديين ، ويهودا ، وإيطاليين ، وألمانيين أيضا . لقد كانت تلك صورة فرنسية صميمة للثورة ، لم يجر فيها ذكر لماركس ، ولا لأحد من برودون وفورييه ويعقوبي سنة ١٧٩٢ . كان على اتحاد مفكك العرا من المدن الكبرى، أعنى طبقاتها الدنيا ـ أن يسيطر على الأرض الزراعية والمدن الصغرى ويلزمها الخضوع لها ، وتلك فكرة نموذجية للفوضى الرومانية ، ولقد حاول القصاب « كابوش » مثل ذلك يؤازره الغوغاء الباريزيون المنظمون حربيا . وفى عام ١٩١٧ نقل ذلك إلى بطرسبورج نقلا دقيقا بأيدى غوغاء غربيين اتخذوا من طائفة مماثلة من العبارات الأخاذة المهيجة ذريعة إلى تحقيق ما نقلوا . على أن الناحية الأسيوية لهذه الثورة الروسية ـ وهى التى لم تكد تظهر فى ذلك الحين ، والتى لم يُقدَّر لها بعد النجاح فى التغلب على الصور الغربية الشيوعية للحكم السوفيتى ـ قد عبرت عن نفسها لأول مرة فى ثورة بوجاتشيف ١٧٧٢-١٧٧٥ الذى استولى على منطقة الفولجا وموسكو جميعها زمانا ، وهدد القيصرية . لقد قتل الفلاحون ذوو الحماسة الدينية ، وفيهم قبائل برمتها من القوزاق ـ كل من ظفروا بهم من ممثلى روسيا البطرسية المتبدية فى صورة أوربية ، لقد قتلوا ضباطا وموظفين ، وكانوا أشد ضراوة بالنبلاء من النوع الجديد . ولقد كان ذلك يكون مآل ممثلى البروقراطية السوفيتية ، وسوف ترحب ذريتهم اليوم أو غدا بالنهوض بذلك فى الواقع . إن بغض هذه الطبقة المسيطرة المعتنقة للأنظمة الأجنبية ممعن فى القدم يرتد إلى ثورات الشترلتزيين (١)

---

(١) Strelitzen حرس خاص أنشأه إيفان المرعب فى أواسط القرن السادس عشر ولقد كان جوهر الجيوش الروسية فى حربها فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ويمتاز بالشدة والقوة ، وقد قضى عليه بطرس الأكبر ، وقصته شبيهة إلى حد ما بأنشكارية الدولة العثمانية .

على بطرس الأكبر . وإنه لبعض لا يستطيع تفكير الديمقراطيين والاشتراكيين في الغرب مطلقا استشعاره وتذوقه . هنا يتضح التضاد بين البلشفية الحقة الراقدة في أحشاء الشعوب البيضاء وما يلحق بها من الديمقراطية والاشتراكية أنفسها ، وبين البغض الذي ينتظم كل سكان الأرض الملونين للمدنية في مجموعها ولتياراتها الثورية .

كيف تبدو تلك الطبقة الاجتماعية للمدنية الغرب أوربية التي تسمى نفسها في إنكلترا راضية مستريحة «بالطبقة الوسطى» وفي القارة «بالبورجوازية» لأنها نسيت الفلاح وأغفلته ، والتي منذ ١٧٧٠ ، ولاسيما منذ ١٨٤٨ صارت حقيقة واقعة لتلك الثورة السفلية الزاحفة ، والتي تسخر منذ زمن بمرحلتها التمهيدية الليبرالية وبما طالبت به الحركة التنورية الفكرية من حريات الصحافة والاتحادات والاجتماعات ، ومن حق الانتخاب العام ، بعد أن استغلتها إلى آخر حدود إمكانيات الانحلال ، أقول كيف تبدو تلك الطبقة الاجتماعية التي هذه حالها ؟ إنه لفصل من العار يتشوف إلى من يرويه من مؤرخي المستقبل ويرتقبه ، لقد تحملت الهجوم النيهليستي بعد أن بنتها الأمور الواقعة الإنشائية البدائية من السيادة والطبقة والملكية ، ثم فهمته ، ثم أشادت به وأيدته . وإن هذا لانتحار فكري ، عُدّ في القرن الماضي بدعة ذات شأن .

يجب أن أؤكد ماوسعني التأكيد أن هذا المجتمع الذي تم الآن فحسب انتقاله من الحضارة إلى المدنية مريض : مريض في غرائزه ، ومريض لهذا في نفسيته ، عاجز عن أن يدفع عن نفسه ، يجد لذة فيما يعانيه من إهانة وانحلال . ولقد استحرّ انحلاله منذ أواسط القرن الثامن عشر ، فانشق إلى دوائر ليبرالية وأخرى محافظة نهضت لمحض المعارضة ، للدفاع المستيئس ضد

الأولى . فى ناحية عدد قليل من الناس رزقوا غرائز صادقة تنير لهم سبل الحقيقة السياسية ، وتكشف مايقع أمامهم ومصيره ، فيحاولون منع الواقع أو تلطيفه أو توجيهه وجهة أخرى ، هؤلاء شخصيات من نوع محيط سيبيو فى روما ، وقد أوحت مواقفها الفكرية إلى بوليبيوس مؤلفه التاريخى ، ثم برك ، بيت ، ولنجتون ، ودزرائيلى فى إنجلترا ، ومترنيخ وهيجل وبعدهما بسمارك فى ألمانيا ، وتوكفيل فى فرنسا ، لقد حاول أولئك جميعا الدفاع عن القوى الصائنة للحضارة القديمة : الدولة ، الجيش ، الشعور بالطبقة ، الملكية ، الزارعين ، ووقفوا للاعتراضات حيث كانت ، ولذلك سُخِر بهم ، وهتف بسقوطهم ، وسموا رجعيين ، والرجعية كلمة ابتكرها الليبراليون ، ومن عجب أن يطلقها بعد عليهم الماركسيون الذين رضعوا لبانهم ونشئوا فى حجورهم ، وهم يحاولون منع العواقب الأخيرة لأعمالهم . فى ذلك الوقت يقع التقدم الممدوح . لقد كان هؤلاء فى ناحية ، وفى الناحية الأخرى كان على وجه التقريب كل من فيه ذكاء المدينة ، أو على الأقل من يعجب به كعلامة للتفوق فى الحاضر ، والقوة فى المستقبل ـ المستقبل الذى أصبح اليوم ماضيا .

وهنا تبدو الصحافة كتعبير مسيطر للعصر ، إنها حدة الذهن المشغوفة بالنكتة والدعابة تلك الحدة المأثورة عن القرن الثامن عشر بعد أن خففت وخلخلت لاستعمال ذوى الفكر العادى ، وهنا لن ننسى أن معنى كلمة نقد باليونانية Krinein الفصل والتقطيع والتفتيت . وهكذا تصبح الدراما ، والشعر الغنائى ، والفلسفة ، بل العلم الطبيعى وكتابة التاريخ ـ مقالات رئيسية وذيلية فى الصحف اليومية تخاصم فى تحد وقح كل ماهو محافظ . كل ما كان يدعو

يوما ما إلى التوقير ، ويصبح الحزب بديلا من الطبقة والدولة . وترتفع الثورة فى صورة معارك الجموع الانتخابية الدورية وبوسائلها من مال وفكر ، بل من قوة بدنية تنتهج الأسلوب الجراكى ـ إلى وضع دستورى يحارب الحكم باعتباره معنى ومهمة للوجود كدولة ، أو يسخر منه ويهوى به إلى عمل حزبى . ولكن عمى الليبرالية وجبنها يسيران قدما ، فالتسامح يفاض على قوى حثالة المدينة الكبيرة المدمرة ، وتمنحه منحا دون أن تبتغيه وتنشده . وفى عاطفية مقززة يعجب المجتمع الراقى فى غرب أوربة بالنيهلست الروسيين ، والفوضويين الأسبان ، وينتقل بهم من صالون إلى آخر . وفى باريز ولندن ، وفى سويسرا بخاصة لا يرعى نشاطهم الهادم فحسب بل يحمى وجودهم وتصان حياتهم فى عناية . وتقف الصحافة الليبرالية منهم موقف المظاهرة والمناصرة ، فهى تدوى باللعنات على السجون الذى يذوى فيها أنصار الحرية وشهداؤها على حين لا تخط كلمة واحدة فى العطف على أولئك الكثيرين الذين يبدءون بحماة نظام الدولة الذابين عنه ، وينتهون بالجنود العاديين والشرط الذين تتمزق أجسامهم أشلاء فى الهواء أو تشوه أو يذبحون .

إن فكرة البروليتارية التى خلقها القصد المصمم المتعمد من جانب النظريين الاشتراكيين ـ قد قبلتها البرجوازية ، وهى على الحقيقة ليست ذات اتصال ما بآلاف الأنواع من العمل الصارم ذى الخبرة : من صيد السمك إلى طبع الكتب ، من قطع الأشجار إلى قيادة القاطرات ، إنها فكرة يزدريها العمال المجدون ذوو الخبرة ، ويستشعرون فيها إهانة ، وليس لها من هدف إلا أن تمزجهم بغوغاء المدن الكبيرة ابتغاء هدم النظام الاجتماعى ، ولكن الليبرالية باستخدامها كفكرة ثابتة جعلت منها محورا للتفكير العام

السياسى . وفى ظل عنوان « الطبيعة » نشأ أدب متهافت وتصوير حقير رفعا القذارة إلى فتنة جماليـة ، والشعور والتفكير النازلين للمنحطين من الناس إلى نظرة عالمية شاملة ، وأصبحت كلمة «شعب» لاتطلق على الأمة جمعاء ، وإنمـا تطلق على ذلك الشطر من جموع المـدن الذى وقف فى وجه هذا الاجتماع . لقد ظهر البرولاتارى على مسرح الحضرية الضيقة الأفق بطلا ، يرافقه الهارب من العمل والمهيج والمجرم والداعرة البغىّ ، وأصبح النظر إلى العالم من أسفل من منظور مقاهى الأركان والأزقة المتهمة الموبوءة يعـــد عصريا متفوقا . وظهرت عبادة البروليتارى حينئـذ فى الدوائر الليبراليـة لغرب أوربة لافى الروسيا عام ١٩١٨ ..وملكت نفوس المثقفين وأنصاف المتعلمين صـــورة للأمور مثقـلة بالعواقب : نصفها كذب ونصفها غباء ، بهـا يصبح العامل هو الإنسان الحقيقى ، الشعب الحقيقى ، فيه معنى التاريخ والسياسـة وهدفهما . وهو مُـثار هم الرجال الرسميين وإشفاقهم ، وينسى إلى جانب هذا أن النـاس جميعهم يعملون ، وأن منهم من يقوم بعمل أكثر مما ينهض به العامل وأهم كالمخترع والمهندس ومنظم العمل . ولم يعد هناك من يجرؤ على التنويه بمرتبته وبطريقـة تأديتـه للعمل كمقياس لقيمتـه ، إذ أصبح العمل مقيسا بالساعات لامقوما بالجودة والبراعة . وصُـوِّر العامل بأنه الفقير البائس الجائع المستغل الذى حرم الميراث . وعليه قصرت كلمتا هم وضنك . فلا مـدلول لهما سـواه . ولم يفكر أحـد فى أرض الزارع القليلة الخصب ولا فى خيبـــة محصولاته ، وأخطار البرد والصقيع . وما يساوره من هم وخوف إبان بيع غلاته . ولافى الصناع البائسين فى المناطق التى تتكاثف فيهـا الصناعات الثقيلة . ولا فى مآسى صغار التجار ، وصيادى السمك فى عـرض البحار . والمخترعين . والأطبـاء

الذين يستبد بهم القلق وتخوف الخطر ، والذين عليهم أن يناضلوا فى سبيل كل كسرة من زادهم اليومى ، والذين يهلكون بالآلاف دون أن يعنى بهم أحد . لاينعم بالعطف الذين حرموه إلا العامل ، وهو وحده الذى يؤخذ بناصره وتناط به العناية ، ويؤمن ، بل هو الذى يقدس ويعبد فى هذا العصر ، إن الدنيا تدور حوله . إنه مركز الاقتصاد ، ومدلل السياسة ماوجد الناس وما تحقق لهم كيان إلا من أجله ، فعلى سائر الشعب أن ينهض بخدمته ، وللمتفكه الساخر أن يستهدف بسخريته الزارع الفدم . والموظف الكسول . والتاجر الغاش . وتلك نعوت أملتها السخرية المستهترة ودعك من جعل القاضى والضابط ومدير العمل الهدف المختار لبغيض النكات . أما العامل فأجل من أن يقتحم حماه بسخرية أو تعريض ، وناهيك من شأنه أنه لا يعد من سواه إلا متعطلين . فهو وحده العامل ومن عداه أنانيون أثرون . وحول هذا الشبح تهز البورجوازية جمعاء المباخر . وترى أن على كل من يعمل له شيئا فى حياته أن يخر له ساجدا . إن حياته فوق مستوى النقد . تلك نظرة قامت البورجوازية بتحقيقها فى نجاح . كما أصبح ممثلو الشعب المحنكون يتطفلون على مائدة هذه الأسطورة . ولقد ثابروا طويلا على روايتها للعمال حتى آمن هؤلاء بها وأحسوا أنهم أشقياء تساء معاملتهم . وفقدوا كل معيار لإنتاجهم وأهميته : فالليبرالية تجاه النزعات الديماجوجية ليست إلا الصورة التى فيها ينتحر المجتمع المريض . فى هذه اللوحة تسلم نفسها . وسيجدها نضال الطبقات الذى ثار فى وجهها وشن عليها فى مرارة وقسوة - مستعدة للتسليم السياسى بعد أن ساعدت بفكرها فى صنع أسلحة الخصوم وتطريقها . ولن يتهيأ درأ الخاتمة فى المستقبل لغير العنصر المحافظ على ما كان عليه من ضعف

فى القرن التاسع عشر ، ولسوف ينهض بذلك .

- ١٤ -

من الذى أهاج إذن ، ونظم جموع هؤلاء الأجريين فى المدن الكبيرة والمناطق الصناعية ، وأثارهم وغذاهم بتلك العبارات البراقة الخلابة ، ثم دفعهم بالدعاية القذرة إلى إعلان حرب الطبقات على أكثرية الشعب ؟ إن ذلك لم يفعله العامل المجد المدرب ، أو « الوبش » كما ذكرته فى ازدراء بالغ الرسائل المتبادلة بين ماركس وانجيلز . يتحدث انجيلز فى رسالته فى ٩ مايو ١٨٥١ عن غوغاء الديمقراطية الحمراء والشيوعيـــة . وفى ١١ ديسمبر ١٨٥١ يكتب إلى ماركس : ماذا تكون حال الغوغاء إذا فقدوا المقدرة على العراك . إن الصانع ليس إلا مجرد وسيلة للأغراض الذاتية للثوريين المحترفين ، يجب أن يعـارك ليرضى حقدهم على القوى المحافظة ، ويشبع نهمهم إلى السلطـة . ولو أريد أن يقصـر تمثيل العمال على العمال أنفسهم لشغرت مقاعد الشمال فى جميع البرلمانات. ليس بين مؤسسى البرامج النظرية وقادة الأعمال الثورية من أثر عنه أنه عمل بضع سنين فى مصنع ما . وتتألف بوهيمية غرب أوربة التى نمت فيها الشيوعية منذ منتصف القرن التاسع عشر من العناصر نفسها التى تألفت منها الليبرالية الثورية منذ ١٧٧٠ ، وسواء أخدمت ثورة فبراير ١٨٤٨ الرأسمالية أم أضرت بهـا فى معارك يونية بعدها ، وسواء أكانت الحرية والمساواة للطبقة الوسطى فى ١٧٨٩ ، أم للطبقات الدنيـا فى ١٧٩٣ ، ١٩١٨ . فإن أهداف مشعلى هذه الحركات ودوافعهم الأخيرة هى فى الحقيقة نفس الأهداف والدوافـع الأولى . وإن الحال فى أسبانيا اليوم لاتختلف عن ذلك فى شىء ما ، وقد تصير

فى الولايات المتحدة غدا كذلك . إنها الغوغاء الفكرية وعلى رأسها محطمو المهن الأكاديمية ، وفاقدو الجدارة الفكرية والمصدومون فى أرواحهم بأية طريقة ، أولئك الذين ينشأ منهم أل Gangsters : رجال العصابات للثورات الليبرالية والبولشفيكية . فديكتاتورية البروليتارية أى ديكتاتوريتهم أنفسهم بمساعدة البروليتارية يجب أن تجعل انتقامها من السعداء وذوى الرخاء آخر وسيلة لإطفاء الغرور المريض ، والشراهة الوضيعة إلى السلطة ، وكلاهما وليد الاحترام المضطرب للذات ، وآخر تعبير للغرائز التالفة التى أسىء توجيهها .

ولقد تعود الناس حين يذكرون كل هؤلاء المحامين والصحفيين والمدرسين والفنانين والصناعيين أن يغفلوا طرازا هو أكثرهم قدرية ، أعنى القسيس الغارب . يجب ألا ينسى الفارق بين الدين والكنيسة . فالدين هو العلاقة الشخصية بقوى العالم المحيط كما تعبر عنه النظرة العالمية ، والعرف التقى ، وموقف الزهد الشخصى ، أما الكنيسة فهيئة نظامية من القسس تجاهد فى سبيل سلطانها الزمنى . وفى ظل لواء سلطانها هذا تجتمع صور الحياة الدينية ومن يتبعها من الناس . ولهذا كانت العدو اللدود لكل الصور الأخرى للسلطة ، للدولة ، للطبقة ، للأمة . وفى أثناء حرب الفرس قام كهنة ديلفى بدعاية خدمت أجزرسيس وكانت حربا على الدفاع القومى . واستطاع كيرش فتح بابل والقضاء على حكم نابونيد آخر ملك كلدانى ، لأن كهنة مردك تواطئوا معه . والتاريخ القديم لمصر والصين مشحون بأمثلة من هذا النوع ، وفى الغرب قلما كانت هدنة بين الملكية والكنيسة ، بين التاج والمذبح ، بين النبالة والكهانة ، وما كان يقع هذا التهادن القليل إلا حين يجدان غنما أكثر فى تحالفهما على خصم

ثالث . « إن مملكتى ليست فى هذا العالم (١) » هذا تعبير ينطبق على كل دين وإن خانته كل كنيسة . إن كل الكنائس تخضع بحكم وجودها لشروط حياتها التاريخية : فهى تفكر على أساس من القوة السياسية والاقتصاد المادى ، وتخوض الحروب باللونين السياسى والحزبى ، ويعرض لها مايعرض لصور القوة الأخرى من أحداث الشباب والهرم ، والارتفاع والسقوط ، وهى فوق كل شىء تعجز عن الاستمساك بما يستدعيه الشرف تجاه السياسة المحافظة والتقاليد فى الدولة والمجتمع لا لشىء إلا لأنها كنيسة !!

فكل المذاهب الحديثة تكن عداء صميما للدولة والملكية ، للطبقة والمرتبة ، وشغفا عظيما بالمساواة العامة . على حين أن سياسة الكنائس الشيخة المسنة ـ على أية حال ـ محافظة فى ذاتها ، تنزع دائما إلى أن تكون ليبرالية ديمقراطية اشتراكية حيال الدولة والمجتمع ، وسرعان ماتتحول إلى التقصيب والهدم حينما تبدأ المعركة بين التقاليد والدهماء .

ولما كان الكهنة بشراً فقد توقف مصير الكنيسة على المادة البشرية المكونة لهيئة أشخاصها السريعة التغيير فى اطراد . وإن الانتقاء الصارم نفسه ، وهو بالغ حد الكمال على وجه العموم ـ لايستطيع أن يمنع الغرائز المنحطة والتفكير الساقط من أن يتكاثرا ويسيطرا فى أوقات السقوط الاجتماعى والانحلال الثورى للصور القديمة . ففى هذه الأزمنة تظهر دهماء قسيسية تنحط بوقار الكنيسة وعقيدتها إلى حمأة المصالح الحزبية السياسية وتتحد مع قوى الانهيار وتساعد العالم السفلى على الانطلاق لهدم النظام الاجتماعى بالعبارات العاطفية لحب الغير وحماية الفقير ، ذلك النظام الذى ترتبط به الكنيسة نفسها

---

(١) من كلام المسيح فى الانجيل

ارتباطا قدريا لارجوع فيه . فالدين هو ذلك الذى يكوّن النفس المؤمنة . أما الكنيسة فتقاس قيمتها بما فى بنائها من مادة قسيسية .

ولقد قام فى مستهل الثورة الفرنسية إلى جانب قطيع الأدباء المنحطين الذين سخروا سنين فى مقالاتهم وخطبهم من الملكية والسلطة والطبقة ـ الراهب الهارب فوشيه ، والأسقف الخارج تاليران ، وهما دوقان نابليونان خائنان لبلادهما ، هذا إلى أنهما من قتلة الملوك ولصوص الملايين من الأموال . ومنذ ١٨١٥ أخذ القس المسيحى يتجه فى سرعة تتكاثر ـ إلى أن يكون ديمقراطيا واشتراكيا وسياسيا حزبيا . ولم تقم اللوثرية التى توشك ألا تكون كنيسة ، والبوريتانية التى ليست كنيسة أصلا ـ بوصفيها هذين بأية سياسة هدامة . ولقد انضم القس لحسابه الخاص باعتباره فردا ـ إلى الشعب ، وإلى الحزب السياسى ، وخطب فى الاجتماعات الانتخابية والبرلمانات وكتب فى المسائل الاجتماعية ثم انتهى ديماجوجيا أو ماركسيا . أما القس الكاثوليكى ـ وهو أكثر تقيدا ـ فقد جر الكنيسة من ورائه فمضت فى طريقه تقفو أثره ، فاشتبكت فى الدعاية الحزبية أولا على أنها وسيلة فعالة لهذه السياسة وأخيرا انتهت إلى أن صارت ضحية لها . ولقد كان فى فرنسا إبان حكم نابليون الثالث حركة نقابية كاثوليكية ذات نزعات اشتراكية سنديكالية ، ولم تظهر اول صورة منها فى المانيا إلا منذ ١٨٧٠ ، وقد بعثها الخوف من استشار النقابات الحمراء وحدها بالسلطان على الجموع فى المناطق الصناعية ، ولكن سرعان ما اتفقا . فكل احزاب العمال تشعر فى خفاء وغموض بتضامنها جميعا مهما يكن تباغض جماعات الزعماء شديداً جارفا .

لقد انصرم زمن طويل منذ أحرزت وجهه نظر البابا ليو الثالث عشر

فى السياسة العالمية أنصارا كثرا ، ومنذ حكم رجال الإكليروس فى ألمانيا أمير كنسى صميم كالكردينال كوب . لقد كانت الكنيسة فى ذلك الحين تشعر بأنها قوة محافظة ، وتعرف معرفة عميقة أن مصيرها منوط بمصير القوى الأخرى المحافظة : سلطة الدولة ، الملكية ، النظام الاجتماعى ، ونظام الملكية وأنها تقف فى حرب الطبقات على «اليمين» من غير ماشرط ولاقيد ضد القوى الليبرالية والاشتراكية ، وأن المستقبل مرهون بتخطى العصر الثورى كقوة . كل ذلك قد تغير . لقد ارتج التهذيب الروحى وتحكمت العناصر الدهمائية بين القسس فى شئون الكنيسة بما تبذل من نشاط ، ومضت سيطرتها صُعُدا حتى طوت من يشغلون أعلى المناصب الكنسية ، فكان عليهم أن يؤثروا الصمت حتى لا يكشفوا عن عجزهم الستار ، فيبدو للعالم . على حين كانت الدبلوماسية الكنسية فيما مضى تساس من عل بطريقة ممتازة وتحكم فى سموها على الأمور من الوجهة التاكتيكية بحنكة عقودا من السنين . ثم أخلت الميدان فى بقاع واسعة للأساليب المنحطة لسياسة اليوم ، للدعاية الحزبية الديمقراطية فى الطبقة السفلى بحيلها المزدراة وحججها الكاذبة . فأصبح تفكيرها وفعلها فى مستوى العالم السفلى فى المدينة الكبيرة وانحطت الجهود التقليدية فى سبيل القوة الزمنية إلى طمع ضئيل قائم فى النجاح فى الانتخابات وألوان التحالف مع أحزاب الدهماء كهدف لأنواع النجاح المادى . إن الدهماء من القسس الذين كانت أزمّتهم فى يد تمسك بها فى صرامة قد أصبحوا يسيطرون بتفكيرهم البرولتيارى على الشطر القيم للاكليروس . ذلك الذى يعتبر النفس الإنسانية أجل وأهم من صوته فى الانتخاب ، ويهتم جديا بالمسائل الميتافيزيكية ، ويحتفل بها أكثر من صنوف

التدخل الديماجوجية فى الحياة الاقتصادية . وما كانت لتقع منذ عقود من السنين الأخطاء التاكتيكية ، كما حدث فى أسبانيا حيث خيل إلى القوم أن من المستطاع التفريق بين العرش والكنيسه فى المصير . ومنذ نهاية الحرب العالمية انحطت الكنيسة فى ألمانيا أكثر من كل شيء ، وهى تلك القوة القديمة ذات التقاليد التليدة الجامدة . وكان عليها لهذه الصفة أن تدفع غاليا ثمن الانحدار إلى مستوى الزقاق . ولم يكن هذا الثمن الذى بذلته إلا ضياع هيبتها بين أتباعها المؤمنين بها أنفسهم ، فلقد أثارت أتباعها ذوى القيمة القليلة إلى عراك الطبقات وإلى التعاون مع الماركسية . ففى ألمانيا بولشفيه كاثوليكيه ، وهى أخطر من البلشفية المحاربة للمسيحيه . لأنها تتستر بقناع الدين .

ولقد نشأت جميع الأنظمة الشيوعيه الغربية على الحقيقة عن الفكر المسيحى اللاهوتى . فمن ذلك « طوبى » مور ، والدولة الشمسية لكامبانيلا الدومنيكى ، وتعاليم كارلشتات وتوماس مينتزر من أتباع لوثر ، واشتراكية الدولة لفيخته . وإن كل ما اشترك فى الحُلم به والكتابة عنه فورييه ، وسان سيمون ، وأوين ، وماركس ، ومائة غيرهم ـ من مُثل المستقبل ليرجع إلى ثورة النفس الكهنوتية الخلقية ، وآراء الفلسفة المدرسية التى أدت دورها فى سرية تامة فى الفكر الاقتصادى القومى ، وفى الرأى العام فى المسائل الاجتماعية . فما أكثر ما نجد من الحق الطبيعى وفكرة الدولة لتوماس إكويناس فيما كتبه آدم سمث ـ ولكن بعنوان مقلوب ـ فى البيان الشيوعى! إن اللاهوت المسيحى جد الشيوعية . إن الاستغراق المجرد فى الآراء الاقتصادية ، البعيد عن كل خبرة اقتصادية يؤدى بنوع ما إذا ما سار فى شجاعة وصدق ـ إلى أحكام فكرية ضد الدولة والملكية . وإن عوز النظر إلى الأمور هو وحده

الذى يمنع هؤلاء المدرسيين الماديين من إدراك أن سلسلة تفكيرهم إذا ما بلغت نهايتها تعود أدراجها إلى مبدئها : الشيوعية المتحققة ليست غير البيروقراطية الطاغية . فلتحقيق المثل الأعلى لامناص من الديكتاتورية ، حكم الإرهاب ، القوة المسلحة ، عدم المساواة بين السادة والرقيق ، بين الآمرين والمطيعين ، ونوجز فنقول : نظام موسكو . ولكن ثمة لونين من الشيوعية : أحدهما شيوعية مؤمنة يتملكها جنون التعاليم ، والعاطفية النسوية وهى فى موقفها البعيد عن العالم والمعادى له تطعن فى ثروة السعداء الذين يقارفون الخطايا والآثام . وقد تطعن أحيانا فى فقر البائسين الشجعان . وهذه إما أن تنتهى «بطوبيات» مبهمة أو بالانزواء فى التقشف بالدير ، فى البوهيمية «والأفاقية» داعية إلى تسخيف كل جهد اقتصادى ، وإلى جانب هذه الشيوعية المؤمنة شيوعية «دنيوية» سياسية واقعية ، تريد بوساطة أتباعها أن تحطم الطبقة الرفيعة حسدا وانتقاما منها أن تسامت بفضل شخصيتها ومواهبها ، تاركة إياها فى مرتبة منخفضة ، وقد تسعى بوساطة برنامج ما إلى أن تحشد الجموع وراءها إشباعا لرغبتها فى السلطان . وإن هذه الشيوعية الدنيوية لتنزع أيضا إلى التستر بقناع الدين .

والماركسية هى الأخرى دين ، لا كما عناه مؤسسها الأصلى . ولكن بما نسبه إليها الأتباع الثوريون . لها أولياؤها ورسلها وشهداؤها وآباؤها الكنسيون ، لها أناجيلها وإرساليتها ، لها عقائدها ، ومحاكمها التى تقتص من الزنادقة ، ومذهبها الأصيل (أرثوذكسيتها) وفلسفتها المدرسية ، وإلى كل ذلك لها قانون أخلاقها الشعبى ، أو على التحقيق قانوناها ـ للمؤمنين والملحدين ـ كسائر الكنائس . وهل يحدث فرقا أن تكون تعاليمها مادية

فى الصميم ؟ وهل يعد جميع القسس الذين يتدخلون فى المسائل الاقتصادية بإهاجة وإثارة ـ أقل مادية ؟ ما النقابات المسيحية إذن ؟ إنها بولشفية مسيحية، هذه حقيقتها فحسب . فمنذ بدأ عصر الراسيونالية فى عام ١٧٥٠ وجدت مادية باصطلاحات مسيحية ، ومادية من دونها . وإن الإنسان ليكون ماديا حينما يخلط فكر الفقر والجوع والبؤس والعمل والأجر بالنغمة القرارية الخلقية فى الكلمات غنى وفقير ، حق وباطل ، فيقف بذلك فى صف المطالب الاجتماعية والاقتصادية البروليتارية ، أى مطالب المال . وإذ ذاك تحل عن ضرورة عميقة السكرتارية الحزبية محل المذبح المرتفع ، وصندوق الانتخاب محل صندوق الإحسان ، وموظف النقابة محل القديس فرنسيس .

هذه المادية للمدن الكبيرة المتأخرة صورة للحكم والعمل العمليين مهما تكن العقيدة بجانبها . إنها لون النظر الاقتصادى إلى التاريخ وإلى الحياة العامة والذاتية ، وفهم الاقتصاد لاعلى أنه حرفة ، ومغزى للحياة بل على أنه الطريقة التى بها يغنم الإنسان أكثر ما يستطاع من المال والاستمتاع بأقل جهد ممكن أى على أنه «خبز ولهو» . إن أكثر الناس اليوم قد فقدوا الشعور بمقدار مادية كيانهم وافكارهم ، قد يصلى الإنسان ، ويعترف متحمسا ، ولا يفتر لسانه عن ذكر الله ، بل قد يكون قسيسا فى مهنته وعقيدته ، ولكنه برغم ذلك كله يكون ماديا ، إن قانون الأخلاق المسيحى ككل قانون خلق ، لا يتمثل إلا فى الزهد فحسب فمن لم يحس ذلك كان ماديا ـ « بعرق جبينك تأكل خبزك » ـ لابد من إحساس هذا المعنى القاسى للحياة كشقاء ، وعدم تلافيه بالسياسة الحزبية . ولكن هذا القول لا يجدى بحال فى الدعاية الانتخابية البروليتارية . ان المادى ليسعده ان يأكل الخبز الذى اصابه آخرون بعرق جبينهم : خبز الفلاح

والصانع والمخترع والمدير الاقتصادى . ولكن سنّم الخياط ـ وكم من جمل ولج فيه ـ ليس ضيقا على الغنى فحسب بل على من يغتصب رفع الأجور ، وخفض مدة العمل بالاضراب والإتلاف والانتخابات ، وعلى من يوجه هذا النشاط فى سبيل سلطانه . إنه القانون الخلقى النفعى لنفوس الأرقاء ، ولا أعنى الأرقاء من حيث وضع حياتهم فحسب ـ فنحن بهذا الاعتبار نعد جميعا من غير استثناء أرقاء بسبب المصير المرتهن بالمولد فى زمن ومكان ما ـ وإنما أعنى إلى هذا الأرقاء من حيث الطريقة الوضيعة التى بها يُنظر إلى العالم من أسفل . وإن الأمر ليتوقف على نوع النظر إلى الثروة ، فبأى عين ينظر إليها الإنسان : أبعين الحسد أم بعين الازدراء ؟ وبأى عين ينظر الإنسان إلى من بلغ مرتبة القيادة بفضل ميزاته الذاتية : أبعين الغبطة والتقدير أم بعين البغض والتحقير ؟ ما شعوره إزاء صبى صانع أقفال ارتفع إلى مخترع وصاحب مصنع ؟ إن هذه المادية التى لاتفهم الزهد ، وترى فيه هزلا ـ ليست إلا أنانية أفراد أو طبقات ، الأنانية الطفيلية لذوى القيمة القليلة ، الذين ينظرون إلى الحياة الاقتصادية لغيرهم وللمجتمع على أنها هدف يُعتصر منه بأقل جهد ممكن أكثر متاع مستطاع : «خبز ولهو» . وهنا يعد التفوق الذاتى ، الجد ، النجاح ، السرور بالعمل فى ذاته ـ شرا وخطيئة وخيانة . إنه القانون الخلقى لحرب الطبقات ، يضم كل ذلك وينظمه تحت عنوان «الرأسمالية» الذى لم يقصد منه أول الأمر الا المعنى الخلقى ، ثم ينصبه هدفا لبغض البروليتيارى . هذا الى أنها تحاول من جهة أخرى مزج الأجريين بالعالم السفلى للمدن الكبيرة فى جبهة سياسية .

لايجوز لغير «العامل» أن يكون أنانيا ، لايجوز ذلك للفلاح ولا للصانع .

إن العامل وحده هو الذى يملك حقوقا دون أن يكلف واجبات . أما غيره فلاحقوق له الى جانب ماعليه من واجبات ، انه الطبقة الممتازة ، الطبقة التى على غيرها أن يعمل فى سبيل القيام على خدمتها ، ان الحياة الاقتصادية للأمم لم تكن الا لتوفير الخير له وحده ، وما وجب تنسيقها الا لتقوم على رفاهيته دون سواه ، ان على الحياة الاقتصادية أن تُسرفه عيشه ، ولا عليه بعد أن تهلك هذه الحياة او ان تبقى . هذه هى النظرة العالمية التى تطورت على يد طبقة تمثلى الشعب ، والحثالة الأكاديمكية من الأدباء والأساتذة إلى القسس . والتى بها يحطون من روح الطبقات السفلى للمجتمع ليستطيعوا تعبئتها إشباعا لشهوة بغضهم ونهمهم إلى القوة . لذلك لم ينظر ماركس بعين الارتياح إلى الاشتراكيين العظماء المحافظين فى تفكيرهم من أمثال لاسال المتعلق بالملكية ، وجورج سوريل الذى كان يرى أن أسمى واجب للبرولتيارية يتمثل فى الدفاع عن الوطن والأسرة والملكية . والذى قال عنه موسولينى : إنه مدين له بأكثر مما هو مدين به لنيتشه ، لم ينظر ماركس إلى هؤلاء بعين الارتياح ولم ينقل قط نص رأيهم الحقيقى .

ولقد انتصر من بين الأنواع الكثيرة للاشتراكية النظرية ، أو الشيوعية أحطها وأقلها استهدافا للشرف ، أعنى النوع الذى نسق بأشد مايمكن من الاستهتار رغبة فى إلقاء السلطة على الجوع - إلى الثوار المحترفين . سواء أسمى الماركسية أم لم يسم . والذى لايعنيه أية نظرية تغذى الدعاية بالعبارات الثورية الخلابة ، ولا التنكر وراء أى ستار من النظرات العالمية اللاثورية ، وكل ما يعنيه ليس غير التفكير والإرادة العمليتين . فكل من كان وضيعا أو كان يفكر أو يشعر أو يعمل فى ضعة فلن يغير منه شيئا أن يلبس مسوح

الكهنة أو بهز الأعلام الوطنية : إن كل من يؤسس اليوم أو يدير نقابات او إضرابا للعمال فى اية بقعة على سطح الأرض يكاد يخضع حتما وفى سرعة شديدة للفكرية الماركسية ، التى تخون وتضطهد كل قيادة سياسية واقتصاديه ، كل نظام اجتماعى . السلطة والملكية ، لأنها تضم كل هؤلاء إلى كلية الرأسمالية، وسرعان مايجد بين اتباعه الفكرة التى اصبحت تقليدا ، فكرة اعتبار الحياة الاقتصادية على انها حرب طبقات ، فعليها يعتمد إذا ما اراد استبقاء زعامته . لقد اصبحت الأنانية البروليتارية ـ فى ضربة واحدة ـ فى اهدافها ووسائلها الصورة التى تحققت فيها الثورة « البيضاء » منذ وقت يناهز قرنا من الزمان . ولن يحدث فرقا كبيرا ان تسمى حركة اجتماعية او اشتراكية ، وان يتشبث زعماؤها برغبة المحافظة على مسيحيتهم او ان يطرحوا عن انفسهم التشبث بها .

إن عصر ازدهار النظريات الاصلاحية للمجتمع يستغرق القرن الأول الصاعد للراسيونالية من «العقد الاجتماعى» لروسو ١٧٦٢ الى «البيان الشيوعى» ١٨٤٨ لقد اعتقد الناس وقتئذ كما اعتقد سقراط والسوفسطائيون من قبل سلطان العقل البشرى المطلق واستطاعته السيطرة على المصير والغرائز وتنظيم الحياة التاريخية وتوجيهها ، وان نظام لينيه (العالم الأحيائى الشهير) لينتظم ايضا الإنسان كـ Homo Sopiens . لقد نسى الناس الحيوان فى الإنسان ، وهو الذى ذكرنا بحيوانيته تذكيرا قويا عام ١٧٩٢ . لم يكن الإنسان ابعد قط عن «شكاكية» العارف بالتاريخ والحكماء الحقيقيين فى كل العصور الذين عرفوا ان «الإنسان شرير منذ نشأته» . لقد امل الناس تنظيم الشعوب طبقا للبرامج المذهبية بقصد سعادتهم النهائية . ولقد آمن القارئون ـ على الأقل ـ بها ، اما مدى إيمان كاتبى مثل هذه الطوبيات المادية بها فمسألة اخرى .

ولكن ذلك قد انتهى منذ ١٨٤٨ ، وقد أصبح نظام ماركس أكثرها تأثيرا لأنه آخرها . فكل من يرسم اليوم برامج سياسية أو اقتصادية لإنقاذ « الإنسانية » يأتى بدعة قديمة مملة ، ويستثير الضحك . ولكن الأثر التهييجى لمثل هذه النظريات فى الرءوس الغبية ـ ويقدرها لينين بـ ٩٥ فى المائة من العالم كله ـ لايزال قويا ، وهى تزداد فى كل مكان حتى فى إنجلترا وأمريكا ، اللهم إلا موسكو حيث يدعى القوم لأغراض سياسية بحت أنهم يؤمنون بها .

إن الاقتصاد السياسى الكلاسيكى لعام ١٧٧٠ ، والمادى المماثل له فى قدمه ، أى الادراك الاقتصادى للتاريخ ـ وكلاهما يرد مصير آلاف السنين إلى ألفاظ السوق والثمن والسلعة ـ تابعان لذلك فى الصميم ، وكثيرا مايتماثلان ويؤديان بالضرورة إلى أحلام رايخ ثالث ، يحاول الايمان بتقدم القرن التاسع عشر أن يهدف إليه بأية وسيلة ويتمثله غاية للتاريخ ، ولقد كان هذا الرايخ المحلوم به ـ التحريف المادى لفكرة المسيحيين الغوط العظماء ، فكرة المملكة الثالثة ليواقيم فون فلوريس ، فلقد كان غرضها تأسيس السعادة النهائية على سطح الأرض لتكون جنة الفقراء والبائسين ، أولئك الذين طابق الانسان بينهم وبين العامل فى تأكيد متصاعد . إنها ستقضى على كل همّ ، وستحقق الراحة الحلوة والسلم الدائم ، وستمهد حرب الطبقات الطريق إلى ذلك بإلغائها للملكية وقضائها على عبودية الربا ، والاشتراكية الدولية وإبادتها للسادة والأغنياء . لقد كانت « أنانية الطبقة » هى المنتصرة ، وأطلق عليها « سعادة الانسانية » وأشيد بذكرها فى الناحية الخلقية ورفعت إلى عنان السماء .

وقد ظهر المثل الأعلى لحرب الطبقات أولا فى المذكرة الشهيرة الزاخرة بالدعاية للأسقف سايس عام ١٧٨٩ ـ وهو أيضا قس كاثوليكى ـ وقد كان

موضوعها الطبقة الثالثة التى يجب أن تقصب الطبقتين العاليتين إلى مستواها، وقد تطور منطقيا من هذه الفكرة الثورية الليبرالية المبكرة - إلى الصورة البلشفية المتأخرة لعام ١٨٤٨ ، التى نقلت المعركة من الميدان السياسى إلى الاقتصادى ، لامن أجل الاقتصاد ، ولكن لبلوغ الهدف السياسى عن طريق تدميره ، وإذا ماوجد الفكريون البورجوازيون فرقا بين المثالية والمادية فإنهم لاينظرون إلى ماوراء حرم ساحة الشائعات الخلابة ، إلى صميم الأهداف النهائية . وإنها لنفس الأهداف هنا وهنالك تماما . إن كل النظريات لكفاح الطبقات لم توضع إلا رغبة فى تعبئة جموع المدن الكبيرة . يجب خلق «الطبقة» التى بها تدور الحرب . لقدحدد الهدف عام ١٨٤٨ كديكتاتورية البرولتيارية بعد أن تخطيت التجارب الأولى للثورات . ولقد كان يصح أن تسمى ديكتاتورية البورجوازية لأن الليبرالية لاتريد شيئا آخر . ذلك هو المعنى النهائى للدساتير والجمهوريات والبرلمانية ، فما كان يقصد فى الحقيقة إلا ديكتاتورية الديماجوجيين التى كانت ترمى من ناحية إلى إبادة الأمم جميعا : تبيد بعضها عن طريق الانتقام بوساطة الجموع المنحطة فى مستواها الخلق ، وتبيد بعضها الآخر عن طريق الرغبة فى إشباع الشره إلى السلطة باسترقاقه . وينشأ كل مثل أعلى عن شخص يحتاج إليه . فكل المثلين العاليين لحرب الطبقات الليبرالية والبلشفية إنما هو من خلق أناس أخفقوا فى محاولتهم اللحاق بطبقة أعلى ، أو أناس آخرين من طبقة لم يبلغوا مستواها فى مبادىء الأخلاق - فماركس بورجوازى مخفق - وهذا سر بغضه للبرجوازية . وينطبق ذلك على جميع المحامين والأدباء والأساتذة والقساوسة الآخرين ، فلقد تخيروا مهنة ليسوا على استعداد لها . ذلك هو الأساس النفسى

للثورى المحترف .

إن المثل الأعلى لحرب الطبقات هو أن تَـركس الأشياء ، إنه ليس بناء شيء جديد . وإنمـا هو قضاء على مايكون ثمة من بناء ، إنه هدف من غير [illegible] ، إنه إرادة العدم ، والمناهج الطوبية لم تكن إلا لرشوة الجموع رشوة نفسيه ، رشوة تستهدف خلق طبقة تكون قوة محاربة عن طريق الهدم الخلق المصمم ، وهذا الذى تهدف إليه الرشوة هوغرضها الجدى الواحد ، لاوسيلة للالحام والإلصاق المحكم أقوى من البغض . ولـكن الأفضل أن يتناول الكلام هنـا حسد الطبقات لابغض الطبقات . فى البغض يكمن التقـــدير الصامت للخصم ، أما الحسد فهـو النظرة المنحرفة من أسفل إلى شيء أعـلى يستعصى فهمـه وبلوغه ، ولذلك يروم الحاسد إنزاله إلى أسفل ، الى جعله مساويا له ، الى توسيخه واحتقاره . ومن أجله لايلحق بالمثل الأعلى للمستقبل البروليتيارى سعادة الأكثرية فحسب ، التى تتكون مـن التعطل الهنىء ـ ومرة أخـرى خـــبز ولهو ـ بل السلام الأبدى المقيم للتنعم به خاليا من شوائب الهموم والتبعات على النحو الذى يمليـه الذوق الثورى الصميم فوق كل شيء ، الذوق الثورى الذى يتوق أن يجـــرع أولئك القليل الذين كانوا فيما مضى أرباب السلطة والحكام ، والعظماء والأغنياء أنفاس الشقاء ، لتقر عين تلك الأكثرية بالتطلع اليهم . كل الثورات تثبت ذلك : لن يظفر خـدم الأمس اذا جلسوا الى مائدة سيـدهم ينعمون ويقصفون ويَزيطون بغير نصف المتعة ، ولن تتم متعتهم الا اذا جلسوا تلك الجلسة وقام السيد على خدمتهم .

ان هـــدف حرب الطبقات الذى كان حول ١٧٨٩ «الطغاة» ـ الملوك ـ الأشراف البروسيين الزراعين ، القسس ـ صار فى ١٨٥٠ «الرأسمالية» وذلك

بانتقال المعركة السياسية إلى الميدان الاقتصادى ، وإن الرغبة فى تعريف هذه اللفظة الشائعة محاولة ميئوس منها لأنها ليست ثمرة خبرة اقتصادية ، ولكنها تعنى معنى إلا يكن نصف مسيحى ، فهو خلق - إنها تعنى جوهر الشر الاقتصادى ، خطيئة التفوق العظمى ، إبليس المتنكر فى ألوان النجاح الاقتصادى. لقد أصبحت فى دوائر بورجوازية معينة كلمة سخرية تتناول كل من لايطاق، من يتمتع بالمرتبة العليا ، صاحب العمل الناجح والتاجر والقاضى والضابط والعالم . ولقد تناولت الفلاحين أيضا ، إنها تعنى كل من ليس « عاملا » أو زعيم عمال . كل من لم تحق عليه الخيبة بسبب مواهبه الضئيلة ، إنها تضم كل من يبدون أقوياء أصحاء فى أعين الساخطين جميعا ، أى الغوغاء فى روحهم. ليست الرأسمالية بحال صورة للاقتصاد ، ولاطريقة بورجوازية لتحصيل المال . إنها نوع من النظرة للأشياء . هناك من بين الاقتصاديين من عثر بها فى زمن شارلمان فى أكثر القرى بدائية . وينظر الاقتصاد القومى منذ ١٧٧٠ إلى الحياة الاقتصادية - وما هى فى الواقع إلا صفحة من الكيان التاريخى للشعوب - ينظر اليها بعين التاجر الإنكليزى . لقد كانت الأمة الإنجليزية وقتئذ فى الحقيقة - على وشك احتكار التجارة العالمية لنفسها . وإلى ذلك تعود شهرتها باعتبارها شعبا من أرباب الحوانيت . وليس التاجر إلا وسيطا ، إنه يرسم الحياة الاقتصادية على أساس محاولة جعل نشاطه مركز الثقل لها ، ثم يُتبع كل من عداه لمركزه باعتبارهم منتجين ومستهلكين . ذلك الوضع للقوة قد وصفه آدم سميث . وذلك هو «العلم» الذى وضعه . ومن أجل هذا يقوم بناء الاقتصاد القومى إلى يومنا هذا على فكرة الثمن ، فنرى بديلا من الحياة الاقتصادية ، ومن العاملين من الناس - سلعا وأسواقا فحسب . ومنذ

الآن فصاعدا يعتبر العمل سلعة ، والأجر ثمنا ، ولا سيما من النظرية الاشتراكية ، فى هذا النظام لامحل لعمل القيادة الذى يقوم به صاحب العمل ، ولا للمخترع ، ولا لعمل الفلاح ، ولا ينظر فيه إلا الى سلع المصانع والشوفان والخنازير ، ولن يمضى زمن طويل حتى يُنسى الفلاح والصانع تماما وحتى يتمحض تصنيف البشر عن فرقتين فحسب - كما فعل ماركس - هما الأجريون فى ناحية ، ومن عداهم أى المستغلون فى ناحية أخرى .

وهكذا ينشأ التقسيم الصناعى للانسانية الى منتج ومشتر . وقد تحول هذا التقسيم على يد أصحاب نظرية الكفاح بين الطبقات الى تضاد خبيث : الى رأسماليين وبروليتاريين ، بورجوازيين وعمال ، مستغِلين ومستغلين . أما التاجر - وهو الرأسمالى الأصيل - فقد تكتمته . فليس العدو الظاهر الا صاحب المصنع ، والمالك الزراعى لأن كلا منهما يتسلم عمل الأجير ويدفع الأجر . هذا كلام لامعنى له ، ولكنه على رغم ذلك ذو تأثير شديد ، وفعل قوى فى النفوس ، فما كانت سخافة نظرية ما لتعوق فاعليتها وتأثيرها ، فالنقد من خصائص مؤلف كل نظام ، أما المؤمن فلا يعرف النقد مطلقا .

«الرأسمالية والاشتراكية» كلاهما قديم ، وبينهما قرب فى الصميم ، لقد نشأا عن تنفس النظرة الى الأمور وحملا نفس النزعات .

ليست الاشتراكية الا رأسمالية الطبقة الدنيا : ان نظرية كوبدن المانشسترية لحرية التجارة ، ونظام ماركس الشيوعى قد نشأا معا فى انجلترا عام ١٨٤٠ . ولقد بلغ الأمر بماركس أن رحب بالرأسمالية المتصلة بحرية التجارة .

فالرأسمالية من أسفل ترغب فى بيع السلعة المسماة «عملا» بأكثر ما يمكن من ثمن من غير اهتمام بمقدرة المشترى الشرائية ، كما ترغب ألا تعطى من هذه

السلعة إلا أقل قدر ممكن .

وهذا هو سبب بغض الأحزاب الاشتراكية للعمل الممتاز والعمل بالمقطوعية وسر جهودها بما تتسع له القدرة والاستطاعة فى سبيل القضاء على التمييز الأرستقراطى بين العمال المحنكين وغير المحنكين . إنها ترغب بوساطة الإضراب ـ وكان أول إضراب عام ١٨٤١ فى إنكلترا ـ فى رفع ثمن العمل اليدوى ثم فى ترك تحديده لبيروقراطية العمال التى تكون آنئذ قد سيطرت على الدولة بعد نزع ملكية المصانع والمناجم . ذلك هو المعنى الصميم للتأميم . تسمى « الرأسمالية من أسفل » ما يحصل عليه الموهوبون والمتفوقون بجدهم من ملكية « سرقة » لتستطيع اغتصابها دون عمل أكثر من استغلال قبضاتهم . وهكذا تنشأ نظرية « حرب الطبقات » التى صيغت اقتصاديا لإحراز صوت العامل ، على حين أن القصد السياسى منها منفعة زعيم العمال ، وإنه لقصد لا بقاء له ، فالعقول الضئيلة فى نظرتها إلى المستقبل لاتستطيع أن تتجاوز الغد إلى ما وراءه ، وهى تعمل على هذا الأساس . وإذن فلم يكن لحرب الطبقات بدٌّ من أن تتمخض عن التدمير لا عن شىء سواه ، وأن تقضى على قوى التقاليد السياسية والاقتصادية لتمكين قوى العالم السفلى من الانتقام المنشود والسيطرة . على أن هذه الدوائر لم توجه أى حظ من تفكيرها إلى مايمكن أن يتأتى عن هذا الانتصار حين يصبح كفاح الطبقات من حديث الماضى البعيد .

هكذا بدأ منذ ١٨٤٠ هجوم ساحق على الحياة الاقتصادية الحقيقية المعقدة إلى النهاية للشعوب البيضاء من ناحيتين : الأولى من أعلى . وهى جماعة تجار الأموال والمضاربين ويتغلغل فيها كبار الماليين بالأسهم والقروض

ومجالس الإدارة . ويعمل هـــؤلاء على أن يخضعوا الأغـراضهم ومصالحهم النشاط الإدارى لمـديرى العمل الإخصائيين ، وكم بينهم من صناع سابقين رفعهم عن جدارة جدهم وعبقريتهم . وبهذا يهوى صاحب العمل الاقتصادى الفعلى فيكون عبدا للرجل المالى : قد يكـون موفور النشاط والإنتاج حريصا على نجاح المصنع فى الوقت الذى تدهمه فيه إحدى المضاربات وهـو لايدرى من الأمر شيئا فتقوضه وتزهق مابذل فى سبيل نجاحه من جهود . هـذه إحدى الناحيتين اللتين ثار منهما الهجوم الساحـق ، أما الأخـرى فنقابة زعماء العمال وهى تهدم من أسفل فى بطء وعزم وثقة بناء الاقتصاد الحى . ولكل من هذين الفريقين سلاح ، فسلاح أحدهما النظرى علم الاقتصاد القومى الليبرالى الذى يبنى الرأى العام فى المسائل الاقتصادية ، ويتدخل فى التشريع بمداولاته وقراراته . وسلاح الفريق الآخر البيان الشيوعى الذى تتدخل مبادئه أيضا فى التشريع عن طريق أحزاب الشمال فى كل البرلمانات .

وكلاهما يمثل مبدأ الدولية ، وما هى إلا نيهلستية نقية سلبية . إنها توجـه نشاطها ضد الصور التاريخية التى تضع الحدود ـ فكل صورة وكل شكل تحديد للأمة ، للدولة ، لأنواع الاقتصاد القومى التى يجمعها الاقتصاد العالمى . ولما كانت هذه جميعا تقف فى طريق أغراض المالية الكبرى والثوريين المحترفين ـ وجب إنكارها وتدميرها .

ولقد أصيب اليوم هذان النوعان من النظريات بالشيخوخة ، فكل مايمكن أن يقال قد فرغ منذ حين من قوله ، وبلـغ من تعرية كل منهما نفسه منـذ عام ١٩١٨ بنبوءاتهما ـ سواء فى اتجاه نيويوك أم موسكو ـ أن أصبح لايؤمن أحد بهما ، وإن كان اقتباسهما وذكرهما لايكادان ينقطعان . لقد بدأت الثورة

العالمية فى ظلالها ، وقد تكون اليوم فى أوجها ، ولكن لايزال أمام انتهائها وقت طويل وفى أثناء ذلك تتشكل فى صور طليقة من كل تمشدق نظرى .

- ١٥ -

يمكن الآن نهائيا تعيين الوان النجاح التى بلغتها الثورة الاجتماعية اليوم ، لأنها قد بلغت هدفها . وانتهى تهديدها ، وأحرزت النصر . فإذا ما أنكر أتباعها ذلك أمام غيرهم أو أمام ضمائرهم المشدوهة المأخوذة فإنما يتكرر فى ذلك المصير الأبدى للتاريخ الإنسانى ، الذى يثبت فى جلاء قاس للمقاتل إذا ما أدرك هدفه ـ أن الهدف شىء آخر مغاير تماما لما أمّل وأنه لم يكن ليستأهل ذلك العناء .

إنه نجاح عظيم شاذ ، إنه على درجة من الرعب للشعوب البيضاء لاتهيء لواحد منها أن يرى أو يجسر على أن يرى كل ما فيها . وليس هناك من الشجاعة ما يدفع محركيها إلى الاعتراف بأنهم محركوها ، ولا ما يدفع فضلات الطبقة العليا القديمة الباقية خلال الطبقة البورجوازية الحالية إلى تحديد أولئك على انهم محركوها . ولقد تم قطع المسافة بين الليبرالية والبلشفية وبخاصة فى المعركة ضد السلطات السياسية . فلقد حُطمت وافترست ومزقت إربا إربا . لقد ثبت مرة أخرى ـ كما حدث فى عصر الجراكيين فى روما ـ أن كل ماخلقته فى قرون الحيوانات المفترسة القوية القليلة العدد . أى الساسة والغزاة ـ تستطيع جميع الحشرات البشرية الضئيلة أن تقرضه فى وقت قصير . لقد أصبحت الصور القديمة المهيبة للدولة حطاما ، وحلت محلها البرلمانية الفاقدة الصورة ، وما هى إلا كومة الفضلات القديمة من السلطة وفن الحكم

والحكمة السياسية . وفى سبيل الظفر بهذه الفضلات اعتركت الأحزاب ، وهم أرهاط من السياسيين المشتغلين بالأعمال الحرة . إن السيادة الموروثة قد أغفلت لتحل محلها الانتخابات التى ترفع إلى أعمال الدولة كل يوم جموعا من ذوى الضآلة والقيم التافهة .

وبين هذه الأحزاب تختفى أحزاب العمال فى كل مكان بنقاباتهم التى تعمل بوسائل اقتصادية لإدراك الأهداف السياسية ، وبوسائل سياسية لبلوغ الأهداف الاقتصادية ، وقد أصبحت هذه الأحزاب بتركيب قيادتها وبرامجها وأساليبها فى الدعاية مثلا يحتذيه غيرها .

كلها تحاول اكتساب الجموع فى المدن العظمى فتلهيها بالآمال الفارغة والتهم المثيرة . وليس من بينها حزب واحد يجرؤ على التصريح بأنه يمثل من الأمة ناحية غير «العامل» . فكلها من غير استثناء يعامله كما تعامل طبقة ممتازة ، وتصد فى ذلك عن جبن أو عن امل فى نجاح انتخابى ، ولقد تم فى نجاح إفساد العامل فى جميع البلدان . ليسخط فى عنف ، وليغالى فيما يطالب ، وقد أريد بإثارته إلى السخط والمغالاة ان يصبح ابأس مخلوق ، ويمتزج بغوغاء الأزقة فى وحدة لامعنى لها ، فى «الطبقة» ويتخذ طراز البروليتى الروحى الذى يكفل محض وجوده النجاح الثورى . والذى ينظر بعين الاحتقار إلى الجد والإنتاج ويراهما خيانة للقضية ، والذى ينحصر اعلى اطماعه فى ان يكون قائد جموع وحاملا للثورة .

وليس ثمة فارق إذا اتخذت هذه الجبهات لعراك الطبقات شكل الأحزاب البروقراطية او النقابات كالماركسية ، والكاثوليكية والقومية فى المانيا ـ كما فى إنكلترا ، او اتخذت الصورة الرومانيسكية لنوادى الفوضويين

والاشتراكيين كما فى برشلونة وشيكاجو ، أو كانت قائمة كحركات سفلية كما كانت سابقا فى الروسيا ، وكما هى اليوم فى أمريكا ، لتتجمع حينما يأزف وقت الفعل فقط . ليس هناك فارق وإن تعددت هذه المظاهر ، فكلها تتألف من جماعات مسيطرة من الديماجوج المحترفين ، وأتباع مسوقين من غير إرادة إلى غاية عليهم أن يضحوا أنفسهم فى سبيلها ، وإن كانوا لا يكادون يفهمون منها شيئا . وقد أصبحت الحكومة الأداة المنفذة لهذه الجماعات إما لأن قادتها أنفسهم يملكون السلطة البرلمانية ، وإما لأن الخصوم الذين سحرتهم مثالية العمال تعوزهم شجاعة التفكير والفعل الذاتيين .

إنهم يحكمون الاقتصاد ايضا بوسائل سياسية لغرض سياسى ، لا يفتأ ماثلا لأنظارهم على الدوام ، لقد كانت حرب الطبقات موجهة إلى السلطات العضوية وصور الحياة الاقتصادية التى سميت «رأسمالية» . وكانت إبادتها الهدف الأخير منذ عام ١٨٤٨ ، وقد تحقق فى النهاية . إن الكارثة الاقتصادية المتوقعة فى نشوة منذ زمان يناهز قرنا ـ قد حلت . ليست الأزمة الاقتصادية لهذا العام وللأعوام الكثيرة المقبلة نتيجة عابرة للحرب ، للثورة ، للتضخم المالى وتسديد الديون كما يفهم العالم أجمع . إنها ثورة مقصودة ، إنها فى جميع خصائصها الجوهرية نتيجة صنع متعمد من جانب زعماء البروليتارية . إن جذورها لتمتد إلى أعمق مما يتصوره المفكرون بكثير ، ولن يُتغلب ثانية على آثارها إلى حد كبير إلا فى معارك طويلة قاسية تشن على كل ما هو اليوم قومى . وأول شرط أساسى لذلك أن يجد الإنسان فى نفسه الشجاعة على أن يرى ما أمامه . وإنى لأخشى أن يكون أكثر هذه الشجاعة قد درس ومحى . فلم يحدث قط أن بلغ الجبن والاستخذاء أمام الرأى العام للبرلمانات

والأحزاب والخطباء والكتاب ما بلغـــه الآن . لقد خر الجميع سجدا أمام «الشعب» ، أمام الجموع ، البروليتيارية ، أو سمها ماشئت ، أمام ما استخدم فى عمى وغير إدراك سلاحا صالت به يد زعماء الثورة العالمية . إن وجه كل سياسى ليربدّ اليوم فرَقا إذا ما رمى بأنه «معاد للعمال» .

ومن ذلك الذى ربح الحرب العالمية فى الواقع ؟ ليس الرابح دولة ما على التحقيق : لافرنسا ولا إنكلترا ، ولا أمريكا ، بل إن جبهة العمال البيضاء لم تربحها وهى التى دفعت الثمن أولا من دمائها فى ميادين القتال ، وأخيرا من مستوى حياتها فى الأزمة الاقتصادية . فقد كانت أعظم ضحية لزعمائها . لقد دُمرت فى سبيل أغراضهم . إن الزعيم العمالى هو الذى ربح الحرب

إن احزاب العمال والنقابات ـ نقابات موظفى الحزب ، بيروقراطية الثورة . هى التى انتزعت السيادة ، وهى التى تحكم اليوم المدنية الغربيـــة ، وتدفـــع البروليتيارية من إضراب إلى إضراب ، ومن معركة شوارع الى معركة شوارع ، وتتقدم من قرار برلمانى مدمر الى آخر ، بقوتها الذاتية او بالخوف الذى تنطوى عليه البرجوازية المقهورة . لقد اصبحت كل حكومات العالم منذ ١٩١٦ متوقفة عليها بقدر يتزايد فى سرعة ، وعليها اذا شاءت البقاء فى الحكم ان تطيع اوامرها . عليها ان ترضى بألوان العدوان الوحشى على بنائها ومعنى حياتها الاقتصادية ، او ان تقوم هى نفسها بتنفيذها ، ولقد ثارت الوان هذا العدوان الوحشى لخدمة احط انواع العمل ، اعنى العمل اليدوى المحض ، ثارت فى شكل ارتفاعات لا حد لها فى الأجور ، وتقصيرات فى وقت العمل ، وفى شكل قوانين الضرائب المهلكة لمناهضة القيادة ، والأملاك القديمة للأسرة والصناعة ، والفلاحة . ان نهب المجتمع قد تم انجازه ، ولقد كان ذلك هو المكافأة

التى نالها مأجورو حرب الطبقات . إن مركز الثقل الطبيعى للبناء الاقتصادى، للفكر الاقتصادى للخبراء ـ قد حل محله فكر مصنوع غير عملى ، فكر حزبى سياسى . لقد فقد التوازن وانهار البناء . وكان ذلك هو الهدف الصريح الناطق للبلشفية الغربية منذ عشرات السنين . لقد عدت الكارثة الاقتصادية بذلك نجاحا تكتيكيا على قلة توقع جبهة العمل وإرادتها له ، هـذا الانهيار للرأسمالية ، هو الحكم الفاصل على البرجوازية ، ولقد بينه «بيبل» قبل أن يحدث ، ومدحه متحمسا منذ ١٨٤٨ ـ هذا الانهيار كان من اللازم اللازب أن يتلوه بالطبيعة ديكتاتورية البرولتيارية المنشودة أى زعماؤها ومبدعوها .

أليس ذلك هو الواقع ؟ لنصرف النظر عن موسكو ، ولنتساءل اكانت جمهوريات النقابات فى ألمانيا شيئا آخر ؟ ألم تكن الاشتراكية الاقتصادية المدارة بيروقراطيا هى المثل الأعلى المتحكم فى أحزاب العمال القومية لا فى ألمانيا وإنجلترا فقط بل فى إيطاليا ؟ ألم يُبرم بين حطام الاقتصاد القومى بذوى المواهب الاقتصادية المبدعة ، وحاملى لواء الجهود الفردية فى الاقتصاد ؟ ألم تذهب بهم هذه الديكتاتورية كضحايا ، لقد دفع الزعيم السياسى الذى لايدرى عن الاقتصاد شيئا ـ بالزعيم الاقتصادى الخبير فى عنف وقوة إلى الخارج ، ولكن الزعيم السياسى الذى لايفقه الاقتصاد ولايدريه يعرف الكثير من أساليب الدعاية الديماجوجية . إنه يحكم كبيروقراطى فى التشريع الاقتصادى الذى حل محل التصرف الحر للمفكر الاقتصادى . كمدير لكثير من اللجان ومجالس التحكيم والمؤتمرات والمصالح الوزارية وسائر الصور الديكتاتورية مهما تكن أسماؤها ، إنه فى وزارة التعاون الفاشية أيضا يريد اشتراكية الدولة الاقتصادية ومحو الابتكار الشخصى ، يريد الاقتصاد المرسوم،

وكل ماهو مماثل فى الصميم ، أى «الشيوعية» ، لكن العامل نفسه ضحية إلى جانب صاحب العمل ، لقد استولى الزعيم العالى المحترف على السلطة المنشودة ، [illegible] نهائيا على كل طريق يفضى إليها ، وأصبح قادرا على أن يصب جام [illegible] على كل من يراه جديرا بالنظر فى الأمور وتدبيرها من علٍ بفضل ما منحه المصيرُ من رفعة الأصل ، أو المواهب والتفوق .

إنى أعرف ذلك معرفة صادقة ، ستنكر الأكثرية ذلك فى رعب ، ستأبى الاعتراف بأن هذا الانهيار الذى لن تقوم له قائمة ـ الانهيار لكل ماشيدته قرون من الزمان ـ كان مقصودا كنتيجة لعمل شاعر بالهدف . ولكن ذلك هو الواقع ، وإن إثباته لسهل يسير . وقد بدأ هذا العمل حينما أدرك الثوار المحترفون من جيل ماركس أن الصناعة المرتبطة بالفحم فى شمال غرب أوربة قد أصبحت أهم ناحية فى الحياة الاقتصادية ، وأن على ازدهارها تتوقف الحياة العادية للأمم المتحولة إلى جموع . لقد كان ذلك حال إنكلترا . وفى ألمانيا كان الناس ينشدونه ، وقد افترض التعاليميون الذين نظروا الى العالم كمجموع من بورجوازية وبروليتارية ـ أن ذلك سيحدث فى كل الأنحاء حتما وبالبداهة . ولكن كيف كانت الحال فى أسبانيا وايطاليا حيث لافحم ، وكيف كان فى فرنسا اذا تجاوزنا الروسيا تجاوزا تاما ؟ ان مما يثير الدهشة ما اتصف به أفق هؤلاء اللاهوتيين فى حرب الطبقات من ضيق . وما اقل ما لوحظ ذلك الى اليوم . هل جرّوا يوما ما افريقية وآسيا وامريكا الجنوبية الى ميدان نقدهم الاقتصادى وتنبؤاتهم ؟ هل جادوا ببذل فكرة واحدة توجه الى العمال الملونين فى المستعمرات الاستوائية ؟ ا كانوا يشعرون بسبب انعدام ذلك ووجوب انعدامه ؟ لقد كانوا يتكلمون عن مستقبل الإنسانية ولكنهم لم

يشملوا الكوكب الأرضى كله بانظارهم ، واكتفوا بالتحديق فى بضعة بلدان أوربية أرادوا هدم دولتها ومجتمعها .

وهنا رأوا أن من الممكن بلوغ ذلك بالقضاء على حيوية الصناعة ، فبدأ الهجوم المصمم على أساس محاولة تعجيز عملها المنظم . وقد حدث ذلك فقصّرت بالعنف مدة العمل الجسمانى المأجور اليومى فى المصانع . أما العمل الإدارى لأصحاب العمل والمخترعين والمهندسين فلم يظفر بشىء من ذلك .

لقد كانت المدة اليومية له فى القرن الثامن عشر ، بالتطبيق على العادة التى كانت شائعة فى العمل بين الزراع والصناع فى الشمال ـ أكثر من اثنتى عشرة ساعة دون أن يحددها قانون ما . وفى مستهل القرن التاسع عشر حددت فى إنكلترا باثنتى عشرة ساعة ، ثم انقصت إلى عشر فى ١٨٥٠ بقانون عشر الساعات الذى كافحه العمال أنفسهم فى شدة بالغة . وما أقر هذا القانون نهائيا حتى احتفلت به دوائر العمال وعدته نصراً لها . وإنه على التحقيق ليعد «تكميما للصناعة» ، وأعتقد أنهم بذلك قد أصابوها بضربة قاضية . ومنذ ذلك الوقت أخذت نقابات العمال فى كل البلدان على عاتقها فى اهتمام بالغ أن تعمل على تحقيق كل ما يستطاع من تقصير لمدة العمل اليومية ، وألا تختص بالتقصير العمال وحدهم بل تتعداهم إلى كل من يأخذ أجرا . وقد بلغت فى آخر القرن الماضى تسع ساعات ، وفى آخر الحرب العالمية ثمانى ساعات واليوم ونحن نقترب من منتصف القرن العشرين أصبح الحد الأدنى للمطالب الثورية ـ أسبوع الأربعين ساعة . وإذا راعينا أن منع العمل فى أيام الآحاد يزداد تطبيقه دقة بتوالى الأيام تجلى لنا أن الفرد أصبح لا يقدم من « بضاعة العمل » إلا نصف الكمية الأصلية الممكنة الطبيعية . وبهذا صار العامل وهو

الوحيد الذى يعمل فى نظر تعاليم الديانة الماركسية ـ برغم إرادته وإلى حد كبير يقوم بأقل عمل . فأى مهنة أخرى تتفق مع مثل هذا العمل الضئيل ؟

لقد كان ذلك الإضراب وسيلة حربية فى صورة مقنعة بطيئة الفعل . ولم يصر لها أهمية إلا بالأمر الواقع : بأن ثمن هذه «البضاعة» أى الأجر ـ برغم ـ لم يكتف بأنه لم ينخفض بل ثابر على ارتفاعه . ولكن «القيمة» أى الإنتاج الحقيقى للعمل المنتج ليست بكمية مستقلة بذاتها ، إنها تتأتى من الكل العضوى للعمل الصناعى الذى يكون فيه نصيب الفكرة المنفذة : عمل الرياسة فى الإدارة وتنظيم الإجراءات ، نقل المواد ، تصريف الإنتاج ، تقدير النفقات والأرباح ، التأسيس والتأثيث ، الإمكانيات الجديدة ـ يكون نصيب هذه الفكرة فيه أكثر فصلا . فالإنتاج فى مجموعه يتوقف على مرتبة الرءوس وعملها لا على الأيدى . وإذا لم يكن ثمة ربح ، أو لم يكن الانتاج قابلا للتصريف ـ أصبح العمل الدائر فاقد القيمة ولم يتأت بصفة عامة دفع ثمنه . وهذه حال الفلاح والصانع . ولقد فصل بفضل نشاط النقابات أجر الساعة للعامل عن وحدة الكائن الحى (الوحدة الحية) . لقد حدده الزعيم الحزبى ولم يقدره الزعيم الاقتصادى ولم يحسبه . فإذا لم يقره هذا الزعيم أو لم يستطع إقراره أخذ قسرا بالاضراب ، بالاتلاف ، بالضغط على الحكومات البرلمانية . ولقد أصبح الأجر فى مائة عام بالقياس إلى أجر العامل الزراعى واليدوى اضعاف ما كان عليه . إن كل شخص يعمل فى الحياة الاقتصادية يتوقف ربحه على الحالة الاقتصادية إلا الأجرى . إنه يطالب بالأجور العالية التى حددت بطريقة غير عضوية ، والتى نالها بكفاح حزبه السياسى ، ولا ضير ان تنحط المؤسسات فى سبيل المحافظة على هذه الأجور او ان يمحى الربح بصفة عامة ، او ان يُقذف بالانتاج

إلى الأسواق فى خسارة تودى بالمصانع وتقضى عليها . وإذ ذاك تدوى صيحات الانتصار الشامتة من بين صفوف زعماء العمال . لقد أحرزوا من جديد نصرا وهم فى سبيلهم إلى الهدف النهائى !

واليوم وقد مضى على نشوء نظرية حرب الطبقات مايقرب من قرن ، ولم يبق من يؤمن بها فى الواقع - أصبح من المشكوك فيه كون هؤلاء الزعماء لايزالون يشعرون بالغاية التى من أجلها طالبوا فيما مضى بهذا العمل الهادم وشرعوا فيه . ولكنهم مازالوا يملكون وسيلة أصبحت تقليدا قديما ، وبها لاينقطعون عن التأثر لافلال العمل ورفع الأجور : تلك هى الدليل على كفايتهم أمام الحزب . فإذا ما نُسى اليوم المعنى الأصلى المسلم به ، وفقد الضمير الحى للمؤمن فإن الأثر لايزال هناك ، الأثر الذى يحيلونه إلى «أسباب أخرى» كوسيلة جديدة للدعاية ، كإثبات لخطيئة جديدة تراد بالعمال ، خطيئة ينسبونها إلى الرأسمالية .

لقد كانت « نظرية القيمة الفائضة » فيما سبق مسيطرة على الفكر غير المنظور للجموع . لقد كانت قيمة الانتاج الصناعى كله مساوية لما دخل فيه من عمل يدوى فعلى . أما ما يأخذه المدير الاقتصادى منه لصيانة المصانع ودفع أثمان المواد الأولية والمرتبات والفوائد أى « القيمة الفائضة » - أما هذا كله فيعد سرقة . ثم إن المدير والمخترع والمهندس لم يعملوا شيئا ألبتة . وليس فى العمل العقلى مهما يكن - أية قيمة عالية ، بل إنه ليس إلا نوعا من البطالة . إنها نفس النزعة الديموقراطية التى ازدرت كل ألوان الجودة ، وحاولت إبادتها ، ولم تخدم إلا الكم . وكذلك فعلت مع العمل اليدوى نفسه . يجب القضاء على الفارق الارستقراطى بين العمال المدربين وغير المدربين

يجب أن تتساوى أجورهما . لقد وصم العمل بالمقطوعية والعمل المتفوق بأنهما خيانة « للقضية » . لقد تم ذلك عام ١٩١٨ ولا سيما فى ألمانيا : لقد قُضى على المنافسة بين العمال وخُنق طموح المقدرة الممتازة ، وقلل بذلك مرة أخرى مجموع الانتاج . ولقد كان ذلك كله نيهلستية وإرادة للهدم ذلك ما تنبه طريقة موسكو الراهنة فقد أعيد بناء الحال لعام ١٨٤٠ من كل ناحية حين أدرك الهدف : مدة العمل الطويلة ، الأجور المنخفضة ، أكبر هوة فى العالم ـ بين العامل المدرب وغير المدرب ـ وإن هذه الهوة التى بين هذين العاملين لأعمق مما فى امريكا نفسها ـ ثم استيراد المهندسين الأجانب ليسدوا فراغ المهندسين الوطنيين الذين ذبحوا لأنهم طبقا لتعاليم البيان الشيوعى لا يريدون إلا استغلال العامل دون ان يؤدوا هم شيئا . ولم تعرف قيمتهم إلا بعد ان اوقع بهم .

ولقد ظل الرأى القائل بأن للعامل الحق فى كل قيمة عمله الذى يساوى جميع الانتاج ـ وعلى ذلك لا تزال فضلة من النظرية ـ ظل هذا الراى محترما إلى نهاية القرن . وبه وضع حد طبيعى على الأقل لمطالب الأجور . وبجانبه وبالاضافة إليه نشأت على وجه التقريب منذ عام ١٨٧٠ الطريقة غير المنظورة لاغتصاب الأجور بوساطة الضغط السياسى لأنظمة العمال . وبهذا لم يعد الأمر امر حدود وضعتها الحياة الاقتصادية لهذا السلب لمصلحة طبقة ما ، وإنما اصبح امر حدود للقوة السياسية البرلمانية الثورية . فى كل البلدان البيضاء إبان ملتقى القرنين قام إلى جانب الحكومة ذات الوضع الدستورى حكومة إضافية غير قانونية ولكنها قوية . وقد تجلى ذلك فى المانيا منذ عام ١٩١٨ . وكان قوام هذه الحكومة الاضافية كل لون من النقابات ، ومهمتها الرئيسية تغذية ناخبيها

بالأجور ، وشراء الحق لذلك من السلطات البورجوازية عن طريق تمكينها من الحكم ، وكانت أصوات العمال التى عالج أمرها زعماء الحزب فاصلة فى كل ما أقدمت الحكومات البرلمانية على تقريره ، وهكذا أصبحت الأجور السياسية التى لم يعد لها حدود طبيعية اقتصادية أمرا واقعا . لقد عين الحزب الأجور المحددة ولم يحسبها على أساس اقتصادى ، وقد التزمت الدولة بحمايتها وأصبحت سيادة النقابات فى تحديد الأجور حقا لايجرؤ حزب بورجوازى أوحكومة بورجوازية على المساس به أو الشك فيه . لقد ارتفع الأجر السياسى بأكثر سرعة ممكنة «فوق القيمة الكاملة للعمل» ودفع بصناعة البلدان البيضاء متأثرا بغرائز الدفاع عن النفس وصيانة الذات ـ دفع بها إلى تطور تظهر نتيجته واضحة أمام أعيننا اليوم فى كارثة الاقتصاد العالمى . ولقد كان دفعه بالصناعة إلى هذا التطور أبرز مما كان للمنافسة والإغراق فى الإنتاج من من دفع فى هذا المضمار . لقد انتزعت بولشفية الأجور بالإضراب والإتلاف العمد والانتخابات والأزمات الحكومية من حياة الأمم الاقتصادية ـ لامن ألمانيا وحدها ـ دماً بلغت من الكثرة أن اضطرت إلى تعويضها بمحاولات حُمّية وبكل مايمكن تخيله من طرق .

ينبغى أن يعلم الإنسان كل ما يتضمنه معنى الأجور السياسية ليقيس مقدار ضغط تلك الأجور على حياة الشعوب الاقتصادية جمعاء : إنها تشمل فوق المدفوع من المال هم الكيان الكلى «للعامل» الهمّ الذى يؤخذ منه ليلقى على كاهل غيره ، لقد صار على المجتمع والأمة أن يعولا «العامل» على حين أن كل إنسان أو حيوان ملزم أن يحمى نفسه من صروف القدر غير المقدرة ، أو أن يتحملها ، كل إنسان له همومه الشخصية ، وعليه مجابهة كل

الأخطار فى سبيل نفسه وأغراضه وتصرفاته الذاتية إنه محاسب حسابا كاملا عن شخصه . ليس هناك من يفكر فى القضاء على عواقب خيبة المحصول [illegible] البهائم ، والحريق والضوائق التى يثيرها عدم تصريف المحصولات ، ولا على أخطار الخراب الاقتصادى ، وفقدان الكفاية المهنية بسبب الفقر فى المواهب ، ولا على المرض والنوازل التى ترهق الصانع والطبيب والمهندس والتاجر والعالم . على كل إنسان أن يناجز هذه الأمور على حسابه الخاص ، بما يراه من وسائل ، أو أن يتحمل عواقبها ويتكفف الناس ، أو أن يهلك على النحو الذى يروقه . هذه هى الحياة . ولكن النزعة الراغبة فى التأمين على النفس ـ ومصدرها ألمانيا ـ قد استقرت فى تفكير الشعوب البيضاء كلها ، وتجلت فى مظاهر وطرق شتى : فتكون ضد الشيخوخة ، أو الكوارث ، أو المرض ، او العجز عن الكسب بل ضد القضاء فى كل مظاهره المحتملة ! كل من ينزل بساحته الشقاء يصرخ مستغيثا بغيره دون ان يرغب فى استنقاذ نفسه بنفسه . ولكن ثمة فارقا يميز انتصار الفكر الماركسى على الغرائز الانفرادية الجرمانية الأصل التى تلد السرور بالتبعات والكفاح الذاتى ضد القضاء ، والترحيب بالواقع . كل الناس إلا العامل يحاولون مستقلين بآرائهم ، وبقوتهم الذاتية تلافى الواقع او لقاءه . إن العامل وحده هو الذى يعفى من هذا الموقف . هو وحده الذى يستطيع ان يعتمد على غيره ليفكر له ويعمل . وإن لهذا التحرر من الهموم الكبيرة لأثرا يهوى بالنفوس ، نلمحه جليا فى اطفال الأسر المغرقة فى الغنى . وقد اصاب هذا الأثر السيء العمال جميعا فى المانيا على التخصيص . فما يبدو ضيقٌ ما حتى يستغاث بالدولة ـ بالحزب ، بالمجتمع ، اى « بالغير » لقد تنوسيت المقدرة على اتخاذ قرار ما ، وعلى توطين النفس على

العيش مع ضغط الهموم الحقيقية .

وهذا يعنى زيادة العبء الذى يتجشمه العمل الراقى لمصلحة العمل المنحط فى الأمة . لأن هذا الشطر من الأجر السياسى ، التأمين فى مختلف أنواعه ضد القضاء ، وبناء المساكن للعمال ـ وما خطر لأحد أن يطالب لمساكن المزارعين بهذا الإجراء ـ وتنظيم ميادين الألعاب ، وبيوت النقاهة ، والمكتبات ، والعناية بوضع أسعار تفضيلية للأغذية وللسفر بالسكك الحديدية ، والملاهى ـ لأن كل ذلك سيدفع الآخرون ثمنه إما مباشرة أو على هيئة ضرائب تجبى منهم لمصلحة العمال . ذلك شطر حيوى من الأجر السياسى لم يتعود الناس التفكير فيه . وفى خلال ذلك تكون الثروة القومية التى يعوّل على مقدارها بالأرقام المعطاة ـ وهما اقتصاديا . إنها تحسب « كرأسمال » من إنتاج المنشآت الاقتصادية أو من سعر الأسهم المتوقف على الفائدة ، والذى يسقط معها حينما تصبح قيمة المصانع العاملة مشكوكا فيها بسبب ارتفاع أعباء أجورها . إن المصنع الذى يقف عن العمل يفقد قيمته ، ولن يساوى أكثر من ثمن مخلفاته بعد هدمه . ولقد تحمل الاقتصاد الألمانى تحت ديكتاتورية النقابات من أول يناير سنة ١٩٢٥ إلى أول سنة ١٩٢٩ أى فى مدى أربعة أعوام زيادة سنوية فى الأعباء نشأت عن رفع الأجور والضرائب والنفقات الاجتماعية مبلغا قدره ١٨٢٢٥ مليونا من الماركات ، وهو ثلث الإيراد القومى كله وقد انتقل إلى جانب واحد . وبعد ذلك بعام بلغ عشرين مليارا . فهل نعد مليارى التعويضات إلى جانبها شيئا ؟ لقد عرضت مالية الريخ وعملته للأخطار ، ولكن ضغطها على الاقتصاد إذا قيس إلى تأثيرات البولشفية فى الأجور ـ لا يعد شيئا مذكورا . لقد نزعت ملكية الاقتصاد كله

- ١٦ -

هنـاك عمل أعلى ، وآخر أدنى : ذلك مما لايمكن إنكاره ولاتغييره . إنه التعبير عن الحقيقة الواقعـة بوجود حضارة . فكلما ارتفع تطور حضارة ما وقويت مقـدرتها على التشكل ـ اتسع الفارق فى العمل بأنواعـه بين المسيطر منهـا والمنحط . سواء أكان العمل سياسيا أم اقتصاديا أم فنيـا . ذلك لأن الحضارة حياة مشكلة ومشبعة بالفكـر ، وصـورة ناضجة مكتملة يقتضى امتلاكها مرتبة أعلى فى الشخصية على الدوام . هناك من الأعمال مايجب أن يكون الإنسان أهلا له فى الصميم ، وآخر لا مفر له كى يعيش ـ من القيام به لأنه لايستطيع القيام بأحسن منه . من الأعمال ما اشتدت قلة ذوى المرتبـة الذين هم أهل له ، ومنها ما تنحصر كل قيمته فى مـدته ، فى مقداره . ولقـد ولد الإنسان مستعدا لهذا أو لذاك . هذا هو القضاء المحكم الذى لا يرضى لنفسه أن يتبدل ويتغير . إن الإنسان مفطور على القـــدرة على عمل بعينه ، ولن يستفيد القدرة بالحديث الراسيونالى عن المساواة أو بالحديث العاطفى الرومانتيكى .

إن مجموع مايبذل من العمل الذى تتطلبه الحضارة الغربية ـ وما هو على التحقيق إلا هذه الحضارة نفسها ـ يزداد كثرة على مر القرون ، ولقـد كان مقـداره فى عصر الإصـلاح الدينى اضعـاف ما كان عليـه فى زمن الحروب الصليبية ، وفى القرن الثامن عشر جاوز فى نموه حد المعقول . وذلك بالتناغم مع ديناميكية عمل القـادة المبدع ، تلك التى جعلت الحاجـة إلى العمل الأدنى ، عمل الجموع تزداد كل يوم بالضرورة ، ولذلك يريد الثورى البروليتارى الذى

يرى الحضارة من أسفل ولا يفهمها لأنه لم يحط فى نفسه بشىء منها. يريد هذا الثورى إبادتها للاستغناء عن العمل المحتاز بل عن العمل إطلاقا. فإذا ما امحى الإنسان الحضارى الذى يعتبره هذا الثورى ترفا فإن العمل يقل، هذا إلى أن ينحط فى نوعه حتى ليستطيع أى فرد القيام به. وقد قرأت يوما فى إحدى الصحف الاشتراكية أنه بعد القضاء على أرباب الملايين من المال يجب القضاء على أرباب الملايين الذهنيين أيضا. يثور الإنسان حين يعاين العمل البديع، ويكره ما فيه من تفوق ويحسد ما فيه من نجاح، سواء أتجلى هذا النجاح فى القوة أم فى الثروة: إن القَّامة (١) بالمستشفى أهم لديهم من الطبيب المدير، والأجير المرتبط (٢) بالمزرعة أكثر قيمة من صاحبها الذى ينتقى أنواع القمح ويهذب فصائل الحيوان، والوقاد أكثر من مخترع الآلة. لقد تم انقلاب القيم الاقتصادية - بحسب اصطلاح نيتشه، وبما أن كل قيمة تنعكس فى أعين الجموع كمال وكدفع للمال، وجب أن يدفع لعمل الجموع الأدنى من الثمن أكثر مما يدفع للعمل الأعلى للشخصيات المديرة، وإن ذلك ليتحقق الآن.

وقد كان لذلك نتائج لم يدركها أحد فى الحقيقة. إن العامل «الأبيض» قد صار حيوانا مترفا، وما بلغ به ذلك المبلغ إلا جبن البورجوازية، وتنافس زعماء أحزاب العمال فى تدليله وتملقه. علينا أن نسقط من الاعتبار تلك الموازنة السخيفة التى تعقد بينه وبين الميّلين الذين يعيشون فى رخاء، فليس الأمر أمر أناس يقطنون القصور، ويملكون الخدم والحشم، ولنوازن مستوى نفقة عامل صناعى حديث بمستوى فلاح صغير: ففى عام ١٨٤٠

(١) المرمطونة (٢) التملى

لم يكن ثمة بين حياتيهما غير فرق هين يسير . واليوم يعمل الأول أقل بكثير من الثانى . ولكن لون المسكن والطعام والكساء للزارع سواء أكان فى بوميرانيا أم فى يوركشير أم فى كانزاس إذا ووزن بما يقوم بأود المشتغل بصناعة المعادن من وادى الرور إلى نحو بنسلفانيا وبما ينفقه فى ملاهيه على التخصيص ـ يبلغ من الحقارة حدا يحمل العامل على الإضراب من فوره إذا ما طلب إليه مرة ثانية أن يقبل هذا المستوى لحقارته هذا إلى ما فيه من عمل مضاعف ، وهمّ دائم يثيره فى نفسه تلف الغلة وأعباء تصريفها وكثرة الديون المرهقة . فما يعتبر حدا أدنى لمطالب الحياة ، وبؤسا فى المدن الكبيرة فى الشمال يعد إسرافا فى قرية على بعد منها يقطعه الراجل فى ساعة واحدة ، بغض النظر عن أسلوب الحياة فى منطقة الشيوعية الزراعية فى جنوب أوربة حيث القناعة بين الشعوب الملونة لاتزال خليقة من خلائق الطبع . إن الترف بين العمال قائم ماثل ، وهو أثر للأجور السياسية المترفة . فمن الذى يحمل عبء هذا الترف وينهض به ؟ إن العمل المُستنجز لن يحتمل النهوض بتحقيق هذا الترف ، فقيمته اقل جدا من ان تهيئه لذلك . وإذن وجب ان يعمل آخرون ليُترف العمال ، وجب ان يعمل سائر الأمة فى سبيل ذلك . وكم هناك من مآفين حمق !! وإن فورد ليُعدّ احدهم لو كان جادا فيما قال وما كتب هؤلاء المآفين يعتقدون ان مقدرة شراء العامل المتصاعدة تُعلى من شأن الاقتصاد (المصنع او العمل) فهل قامت بذلك الجموع المتعطلة فى روما منذ عصر الجراكيين ؟ يتكلمون عن السوق الداخلية دون ان يفكروا فى معنى ما يقولون . ليقوموا بتجربة لهذه الخرافة الجديدة المسلم بها من النقابات العمالية « البيضاء » فيدفعوا اجور العمال من إنتاج عملهم ذاته لا من النقد : لتكن الأجور قاطرات

أو آلات كيمائية ، أو بلاط شوارع . وعلى العامل حينئذ أن ينهض ببيعها .

لن يدرى العامل ماذا يصنع بها . وسيستولى الرعب على العمال حين يعلمون قلة قيمتها . وسيتبين لهم إلى جانب ذلك أن إنفاق المال بدرجة ممتازة يتطلب نفس المرتبة فى الحضارة ، نفس التشبع الروحى بالذوق الذى يقتضيه ربح المال بأعمال متفوقة . هناك ترف ممتاز وآخر منحط . تلك سنة لن يغيرها أحد . ويتمثل فرق ما بينهما فيما يتجلى من بعد شديد بين إحدى أوبرات موتزارت ، وأغنية شائعة لأوبرا فكاهية . وما من حاجة الآن إلى الترف المهذب تقابل الأجور المترفة . وليس هناك مايُسبق الصناعة الرفيعة ممكنة غير قوة الشراء للطبقة الرفيعة . أما الطبقات الدنيا فإنها لا تغذى إلا صناعة اللهو . وتلك حال كحال روما القديمة ! !

ولقد كان لهذا الترف الخسيس للمدن الكبيرة ، الترف المتمثل فى العمل القليل والمال الكثير واللهو الأكثر ـ كان له أثر محتوم على سكان الأرض المسطحة (الفلاحين) ، ذوى العمل الشاق المطبوعين على القناعة . فتعلموا أمورا لم يحلم بها آباؤهم ، ونشدوا حاجات لم تدرلهم فى خاطر ، فليس أثقل على النفس من زهد يلزم به الإنسان نفسه فى دنيا تنزع إلى الترف وتتهالك عليه . إن النفس لتبرم بهذا الزهد وتنفر منه . ومن أجل هذا بدأ الهرب من الأرض (هجرة الريف) فهرب الأجراء (الأنفار) أولا ثم أولاد الزراع ، وأخيرا هربت أسر بأجمعها لم تدر كيف تستطيع المحافظة على ميراث الآباء أمام هذا التشويه للحياة الاقتصادية . ولقد حدثت هذه الظاهرة نفسها فى جميع الحضارات فى تلك المرحلة عينها . وليس من الحق فى شىء أن يقال : إن إقفار إيطاليا من السكان بعد عهد هانيبال كان بسبب

الملكية الأرضية الكبيرة ، فما أحدث ذلك الإقفار إلا « الخبز واللهو » بالمدينة العالمية أعنى روما . وقد أدى هجران الأرض التى فقدت قيمتها بسبب ذلك إلى تطور فلاحة الملكية الواسعة بوساطة الرقيق ، ولولا هذا التطور لأصبحت الأرض صحراء . ولقد بدأت التعرية من السكان فى القرى الإنجليزية عام ١٨٤٠ ، وفى المانيا عام ١٨٨٠ ، وفى الغرب الأوسط للولايات المتحدة عام ١٩٢٠ . لقد مل الفلاح العمل من دون اجر فهرول الى المدينة التى لوحت له بأجر من غير عمل . لقد هرب الى المدينة واصبح بروليتاريا .

وإن وزر ذلك لا يقع على العامل نفسه ، فهو لم يحس قط ان مستوى حياته قد اترف ، بل إنه ليحس عكس ذلك ، لقد اصبح بائسا ، ساخطا لا يرضى ككل متمتع بامتياز من غير استحقاق . إن ما كان بالأمس هدفا لرغائب متطرفة قد اصبح اليوم بديهيا ، وقد يبدو غدا كشقاء يحمل على المطالبة الصارخة بالإقالة منه . لقد افسد زعيم العمال العامل حين ساواه بالخاصة فى حرب الطبقات . فى ايام البيان الشيوعى كان من الواجب ان يُعدّ العامل نفسيا كبروليتارى لهذا الغرض . واليوم وللغرض نفسه يُغذى بالأمل بأنه لن يصبح كذلك فى المستقبل . وقد ادى الارتفاع غير المكسوب للأجر السياسى هنا وهناك الى ان تكون الزيادة المستمرة فيه امرا لا مناص منه .

ولكن ، هل يمكن ان يصبح هذا الأجر كمية مستقلة بجانب الاقتصاد ! ايمكن ان يدفع إطلاقا ؟ وبأى شىء ؟ ومن ؟ إن التأمل الدقيق يثبت ان فكرة الربح الاقتصادى قد اعتورها التغير بطريقة غير ملحوظة تحت ضغط الوان اغتصاب الأجور . لا يمكن ان يثمر غير الحياة السياسية السليمة . ان الربح الطبيعى

من غير إكراه يتحقق حين يكون أجر العمل المنفذ متوقفا عليه كوظيفة. فإذا أصبح هذا الأخير كمّا سياسيا مستقلا أى نزيفا غير منقطع لا يحتمله أى جسم حى - بدأ لون وحساب مصطنعان مريضان فى الإدارة الاقتصادية، منافسة بين المقطوعية التى يجب أن تحافظ على قمة ارتفاعها كى لا يهلك الجميع ، وبين الأجور المتوائبة مع الضرائب والنفقات الاجتماعية التى ليست إلا ضرائب غير مباشرة . إن التوافق الزمنى الحمّى لزيادة الإنتاج يعود معظمه إلى هذا الجرح الخفى فى الحياة الاقتصادية . إن التحريض على الاستهلاك بكل أساليب الدعاية ينتشر ، إن المقطوعية فى البلاد البعيدة بين الشعوب الملونة تتسع وتفرض فرضا بكل الوسائل الممكنة . إن الأمبريالية الاقتصادية للدول الكبرى الصناعية التى تكفل ميادين المقطوعية بوسائل حربية وتبذل جهدها فى إبقائها كذلك - قد أصبحت نزعة المحافظة على الذات لزعماء الصناعة تكشف فيها أيضا ، هؤلاء الزعماء الذين يحملهم على أن يقفوا موقف الدفاع - ما يحسونه من ضغط الأحزاب السياسية ضغطا مثابرا لا يفتر فى سبيل الأجر السياسى . فما يحدث انتعاش حقيق أو وهمى فى الصناعة بأية بقعة فى العالم « الأبيض» حتى تعلن النقابات مطالب فى الأجور لتحقق لأتباعها أرباحا لا وجود لها . وحينما وقفت ألمانيا دفع التعويضات لم يتأتّ إلى النفوس إثرَ ذلك من معنى إلا أن هذه الوفور يجب أن يعطاها العالمُ وقد كانت النتيجة الطبيعية للأجور المترفة إرهاق نفقات الإنتاج ، وبعبارة أخرى تخفيض قيمة النقد . وهنا حدث تدخل سياسى لضمان المقدرة الشرائية للأجور فحرفظ على مستوى أثمان البيع أو خفض بحكم القانون . لذلك ألغيت ضرائب القمح فى إنجلترا عام ١٨٥٠ ، وهذا الإجراء رفع مقنع للأجور . وبه ضحى

بالزارع فى سبيل العامل ، وهذا ما حوول أوحقق فى كل مكان منذ ذلك الحين على الأساس السخيف الذى أخذ به المصرفيون ومن يماثلهم من الخبراء بأن العالم يجب أن يقسم إلى أقطار زراعية وأخرى صناعية للوصول إلى تنظيم للصناعة العالمية يتفق مع هذه الأغراض . ولم يعن أحد بالأحداث التى لابد ان تنزل بساحة المزارعين فى الأقطار الصناعية . لقد كانوا محض موضوع للسياسة العالية ، والخصم الحقيقى لاحتكار مصالح العمال ، فجميع التنظيمات العمالية تعادى الزارع سواء اسلمت بذلك ام تحدته . وعلى هذا الأساس نفسه ثبّت ثمن الفحم والحديد تحت وطأة الضغط البرلمانى من غير اعتبار لنفقات النقل ، وما روعى غير اعتبار الأجور ، واغتصبت اثمان تفضيلية من كل نوع لمصلحة العمال ، وكان من الحتم لإمكان تسويتها أن ترفع الأثمان العادية « للغير » . ولقد طوّقت الإدارة الاقتصادية من جراء ذلك مشكلة اعتُبرت خاصة بها ، تلك هى ان المقطوعية قد تتأثر بسبب ذلك او تصبح مستحيلة . وحين يضطرب مركز الإدارة الاقتصادية يزداد شعور النقابات بالانتصار .

وكانت إحدى نتائج هذه التأثيرات لحرب الطبقات ـ ان اشتدت حاجة الاقتصاد المنتج إلى « القرض » و « رأس المال » اى إلى قيم نقدية خيالية لاتدوم إلا بدوام الإيمان بها ، وتمّحى فى الحال إذا ما اصطدمت بأقل شك على صورة انهيار فى البورصة . لقد كان استبدال قيم وهمية بالقيم الحقيقية المدمرة محاولة يائسة . لقد بدأ عصر ازدهار لنوع جديد ماكر من المصارف يمول المشروعات لتصبح له السيادة عليها . ولم يُقتصر على إعطاء القروض فتعداه الى انتاج هذه القروض كرأسمال وهمى هائم بلا موطن . وفى معدل

سرعة دائم التوائب يحول ملك الأسرة القديم إلى شركات مساهمة ، أى يجعل متحركا (منقولا) لتسد بهذا المال الثغرات بين الإنفاق والاكتساب فى الدورة التعاملية . إن إثقال الاقتصاد المنتج بالدين ـ وليست الأسهم أخيرا إلا دينا ـ قد نما إلى حد لا يتصور . وحينما بدأ احتساب الفوائد إلى جانب دفع الأجور يبدو ككم مشكوك فيه من هذه الأخيرة ـ حينما بدأ ذلك ظهرت طفرة الوسيلة الأخيرة فى حرب الطبقات ، المطالبة بأن تنزع الدولة ملكية المصانع : وبذلك وجب انتزاع الأجر من الحساب الاقتصادى نهائيا ، وجعله مرتبات حكومية يجرى تحديدها وفق هوى أحزاب العمال الحاكمة ، وقد حمل هذا الأجر بلشفية الضرائب على الحصول على وسائله من سائر الأمة . ومنذ عام ١٩١٠ أخذت تتوالى سريعا العواقب الأخيرة الحاسمة لجنون هذه الأجور المترفة : لقد دفع الجدب المطرد للأرض الزراعية جموعا لا تفتؤ تتكاثر إلى ميدان « الخبز واللهو » فى المدن الكبيرة ، وأضل الصناعة فجنحت إلى توسع دائم الازدياد فى المصانع على حين لم يُؤمَن بضرورة بذل أى جهد أو عناية فى سبيل تصريف منتجاتها . لقد هاجر خمسة عشر مليونا من الزراع من جنوب أوربة وشرقها فى الأعوام من ١٩٠٠ إلى ١٩١٤ إلى الولايات المتحدة على حين نقص فى الواقع عدد السكان فى المزارع (١) ، وفى شمال أوربة حدثت هذه الهجرة الداخلية نفسها وفى هذا المدى عينه من الاتساع ، فى منطقة

---

(١) لم يزد عدد السكان الزراعيين الخلص فى أمريكا عام ١٩٠٠ ، وفى عام ١٩١٠ كان النقص السنوى فى عددهم ١٠٠٠٠٠ ، ومن عام ١٩٢٠ ارتفع النقص السنوى إلى نصف مليون ، ومنذ عام ١٩٢٥ بلغ مليونا فى السنة .

(شبنجلر)

مناجم برى بفرنسا كان عدد الذين يعملون عام ١٩١٤ من البولنديين والإيطاليين أكثر من عدد الفرنسيين . ولكن قضى على هذا التطور من ناحية لم يدخلها زعماء حرب الطبقات فى دائرة حسابهم بل لم يلحظوها .

لقد أعجب ماركس بالاقتصاد الصناعى للأقطار « البيضاء » فى الشمال ، وأبغضه كأسمى إنتاج للبرجوازية . لقد اتجهت نظرته دائما إلى موطنه ، إلى إنجلترا وفرنسا وألمانيا . ولم يبرح هذا الأفق الأقليمى عند خلفائه الأساس القويم لكل الاعتبارات التكتيكية . ولكن الدنيا أكثر اتساعا إنها ، شىء يختلف عن هذا الأفق ، إنها أكثر من منطقة ، منطقة استنفدت فى صمت واستسلام صادرات شمال أوربة الصغير . إن حياة جموع العمال البيض لم تقم أبدا على الصناعة ، وإنما قامت على الاحتكار الصناعى للدول العظمى الشمالية ـ وعلى أساس هذه الحقيقة الواقعة فحسب كانت الأجور السياسية تدفع دون أن تؤدى فى الحال إلى الكارثة . ولقد ارتفعت اليوم فوق حرب الطبقات الناشبة بين العمال والمجتمع داخل الشعوب البيضاء ـ ارتفعت حرب أخرى هى حرب العناصر ، ومضت فى اتساع مباين كل المباينة ، اتساع لم يقع فى حسبان أى زعيم من زعماء العمال . انها حرب لم يتوقعها واحد من هؤلاء وليس ثمة اليوم من يفهمها أو يجد الجرأة على فهمها فى قسوتها التى لاتلين ، فى قسوتها المثقلة بالمصير . قد قضى نظام النقابات والأجور المحددة على أن تتنافس الشعوب البيضاء . ولم يمنع الضرر الذى يثيره الفرق الآخذ فى الازدياد منذ ١٨٤٠ بين مستوى حياة العامل الصناعى وحياة الفلاح الا أن الأمور الاقتصادية السياسية الفاصلة ـ العوائد الجمركية ، الضرائب والقوانين ـ قد قام بوضعها جانب العمال مستهدفين مناهضة الفلاحة . وهنا ظهرت منافسة

مستوى حياة الملونين للأجور المترفة للعمال البيض .

إن الأجور الملونة كمّ من نظام وأصل مختلفين عن الأجور البيضاء . لقد فرضت فرضا ولم يطالب بها ، وحوفظ على انخفاضها بقوة السلاح حين لم توجد مندوحة عن استعماله . ولم يسم ذلك رجعية أو سلب حقوق البروليتارية وإنما سمى سياسية استعمارية . ولقد اطمأن العامل الإنجليزى إلى هذا الوضع وفهمه وأساغه ، ولا عجب فقد تعلم أن يفكر على أساس إمبراطورى . قد حاول ماركس بمطالبته بقيمة نفقات الإنتاج الكاملة ـ كأجر للعمال ـ أن يخفى حقيقة واقعة كان عليه أن يلحظها ويدخلها فى حسابه لو آثر حظا أكبر من النزاهة : هذه الحقيقة هى أن من بين نفقات الإنتاج للصناعات الشمالية ـ أثمان الخامات الاستوائية : القطن ، المطاط ، المعادن ، ثم إن هذه النفقات قد بنيت على الأجور المنخفضة التى يتقاضاها العمال الملونون . فرفع أجور العمل الأبيض يرتكز على خفض أجور العمل الملون .

إن ما أعلنته روسيا السوفيتية كأسلوب للكفاح ضد الاقتصاد الأبيض للقضاء على حيويته بقطع الأثمان : وبعبارة أخرى أخذها فى إعادة عمالها أنفسهم من حيث مستوى الحياة ومدة العمل إلى مثل ما كانت عليه الحال عام ١٨٤٠ ، متذرعة بكل وسيلة ، ولو أدى الأمر إلى الموت جوعا أو إطلاق المدافع ـ كما حصل فى موسكو ١٩٢٣ ـ إن هذا الأسلوب الكفاحى الذى أعلنته روسيا قد أخذ فى الظهور منذ زمن فى غير إكراه فى جميع أنحاء العالم . وقد اتجه ذلك بتأثير مروع ضد حياة العمال البيض أكثر مما اتجه ضد درجة هذه الصناعة . أفلم يدرك السوفيت ذلك بسبب افتتانهم بتعاليمهم

أم كان ذلك إرادة الإبادة تتحفز من جانب الشعور الأسيوى المستيقظ الذى يرمى إلى استئصال شعوب الحضارة الغربية ؟

فى مناجم جنوب افريقية يعمل البيض والكافير جنبا إلى جنب ، ويتناول الأبيض شلنين عن كل ساعة ومدى عمله اليومى ثمانى ساعات على حين يعمل الكافير اثنتى عشرة ساعة بأجر يقارب شلنا واحدا عن هـذه الساعات جميعها وتدعم نقابات العمال البيضاء هـذه النسبـة الصارخـة وتؤيدها ، وتحـرم على الملونين أى محاولة تهدف إلى أن ينتظموا فى جماعـة ـ كما تمنع بطريق الضغط السياسى على الأحزاب طرد العمال البيض بقضهم وقضيضهم ، وإن كان ذلك هو الإجراء الذى تحتمه طبيعـة الأشياء . وفى ذلك المثل ما يكشف العلاقـة العامة بين العمل الأبيض والملون فى جميع أنحاء العالم ، إن الصناعة اليابانيـة تكتسح المنافسة البيضاء من الميـدان فى جنوب آسيا وشرقها ، تكتسحها برخص أجورها ، وهاهى ذى بدأت تظهر فى الأسواق الأوربية والأمريكية . ثم هاهى ذى المنسوجات الهندية تجد سبيلها إلى لندن . وفى أثناء ذلك حدث أمر يثير الرعب : لقـد عرفت اليوم مناجم الفحم فى جميـع أنحـاء الأرض وأثيرت للاستغلال ، وفى عام ١٨٨٠ لم تكن هناك مناجم فحم مستغلة إلا فى شمال أوربة وشمال أمريكا . وبذا انتهى احتكار العمال البيض للفحم ، هذا إلى أن الصناعة قد تحررت إلى حد كبير من الارتباط بالفحم ، لقد حررتها القوة المائية ، الزيت الأرضى ، نقل القوى الكهربيـة . ان الصناعة تستطيع الهجرة ، وهى تقوم بها ، انها تهاجر فى كل مكان من ميدان دكتاتورية نقابات العمال البيضاء ميممة صوب الأقطار ذات الأجور الدنيا . ان تشتيت الصناعة الغربية يسير سيرا حثيثا منذ عام ١٩٠٠ . لقد أسست مصانع الغزل فى الهند

على أنها فروع للمصانع الإنجليزية ، لتقرب من المستهلك ، ذلك ما عنى وقصد أولا ، ولكن الأجور المترفة فى غرب أوربة قد أحدثت أثرا مختلفا كل الاختلاف . وفى الولايات المتحدة تهاجر الصناعة على صورة أوسع مدى من شيكاجو ونيويورك إلى مناطق الزنوج فى الجنوب . ولا تقف عل حدود المكسيك . لقد نشأت مناطق صناعية فى الصين وجاوة وجنوب أفريقية وجنوب أمريكا وإنها لتسير فى طريق النمو قدما . إن الأساليب الصناعية البالغة حدا عاليا فى تكوينها لتسرع الخطو فى هربها إلى الملونين ، وقداخذت الأجور المترفة البيضاء تتحول إلى وضع نظرى لأن العمل الذى تأتى به لم تعد هناك حاجة إليه .

- ١٧ -

وما حل عام ١٩٠٠ حتى كان الخطر قد استفحل وهال .لقد تقوض بناء الصناعة الغربية . وأخذ ينذر بالانهيار تحت ضغط الأجور السياسية ، وانخفاض مدة العمل الفردى ، وتشبع أسواق التصريف الأجنبية ، ونشوء مناطق صناعية أجنبية مستقلة عن أحزاب العمال البيضاء . ولم يحافظ على الوهم المتسلط أمام الكارثة الشديدة السريعة فى اقترابها إلا السلم غير الطبيعى ، السلم الذى نشره منذ عام ١٨٧٠ خوف الساسة من حواسم الأمور للشعوب « البيضاء » ، تلك الحواسم التى ليس من الهين تقديرها .

إن النذر التى تورث الانقباض والضيق لم تلحظ ولم تقدر ، لقد سيطرت على زعماء العمال والاقتصاد - ودعك من الساسة - تفاؤلية قدرية سطحية تكاد تكون إجرامية - إيمان بتقدم ثابت الخطا يعبر عن نفسه

بالأرقام ـ ودعمُ هذ التفاؤل بالتضخم العليل لرأس المال الصورى ، الذى عدّته الدنيا كلها ملكية حقة ، وقيما مالية حقيقية غيرقابلة للتدمير . وحين حل عام ١٩١٠ ارتفعت أصوات فردية تذكر بأن العالم يوشك أن يُتخم بمنتجات الصناعة بما فيها الزراعة الصناعية الكبيرة . واقترحت هنا وهنالك اتفاقات بين الدول على نظام الحصص الاختيارى للانتاج . ولكن ذلك كان نفخة فى رماد . لم يكن هناك من يؤمن بأى خطر جدى ، ولا من يرغب فى الإيمان به . لقد كان مؤسسا على الوهم من أصحاب نظرة اقتصادية مصوبة من جانب واحد ، لم يروا فى الاقتصاد إلا كمّا مستقلا فلم يلحظوا السياسة العظمى فى قوتها للثورة العالمية المتسللة ، تلك التى ضُغطت ودُفعت فى صور واتجاهات كاذبة . إن الأسباب لأعمق وأبعد من أن تتأثر بالتفكير فى مشكلات الهزات الاقتصادية . ولقد فات أوان ذلك منذ بعيد . وكل ماحدث هو السماح بفترة قصيرة من الانخداع الذاتى : الإعداد للحرب العظمى ، وهو يتطلب ايديا لا حصر لها ، ايديا تُنتزع من الإنتاج ليكون اربابها جنودا فى الجيوش العاملة ، وعمالا لصنع العتاد الحربى .

ثم اتت الحرب العظمى يصاحبها الانهيار الاقتصادى للعالم الأبيض ، ذلك الانهيار الذى لم تكن الحرب سببا فيه ، والذى لم يعد فى الاستطاعة منعه . لقد وجب ان يكون ولا مفر من حدوثه فى بطء ، وفى صور اقل رعبا . ولقد اذكت إنجلترا الشعلة الأولى من نار هذه الحرب ، فعلت ذلك وهى موطن الاشتراكية العالية العملية لتبيد اقتصاديا احدث الدول العظمى : المانيا ، الوحدة الاقتصادية التى تسير قدما فى اقوى سرعة ممكنة إلى الأخذ بأساليب افضل وامثل ، فعلت ذلك لتبيدها ، ولتقصيها مدى الدهر عن ميدان المنافسة

العالمية ،وكلما غاض فى فوضى الحوادث التفكير السياسي واختفى ، وكلما تحكم فى الموقف فى كل مكان محض النزعات الحربية والاقتصادية الخشنة زاد أمل إنجلترا الغامض فى أن تنقذ مركزها المالى والصناعى ، وتنقذ عمالها أنفسهم تبعا لذلك ـ بإنزال الخراب بألمانيا ، ثم روسيا ، ثم دول الاتفاق . ولكن ذلك لم يكن مطلقا البدء الحقيقى للكارثة التالية فلقد تطورت عن الأمر الواقع . فمنذ عام ١٩١٦ تحققت فى جميع الأقطار البيضاء : ما اشترك منها وما لم يشترك فى الحرب ـ تحققت فيها ديكتاتورية العمال أمام قيادة الدولة جهرا أو سرا ، فى صور ودرجات جد متباينة وإن سادتها النزعة الثورية نفسها . لقد أسقطت كل الحكومات أوسيطرت عليها ، وكانت سوسا دب فى كل الجيوش والأساطيل فأوهاها ، لقد خشى بأسها أشدما خشيت الحرب نفسها ، وبحق كان ذلك . لقد دفعت بعد انتهائها بأجور عمل الجموع الأدنى إلى ارتفاع شاذ ، وحققت اليوم ذا الساعات الثمانية . وحين عاد العمال إلى مساقط رءوسهم بعد الحرب نشأت فى كل مكان على وجه البسيطة أزمة المساكن المشهورة ـ على الرغم من الخسائر الهائلة فى النفوس البشرية . وتُردّ هذه الأزمة إلى أن البروليتارية أرادت أن تسكن على نمط البورجوازية ، وقد حققت ذلك فعلا ، لأنها رأت فيه الرمز الحقير إلى انهيار كل القوى القديمة للطبقة والدرجة . ومن هذه الناحية فهم على حقيقته أولا التضخم العام لمالية الدول والقروض الاقتصادية ، فهم على أنه إحدى صور البلشفية الفعالة التى نزعت بوساطتها ملكية الطبقات السائدة فى المجتمع ، وهدمت وتحولت إلى بروليتارية ، وترتب على هذا أن أقصيت عن السياسة المحركة . ومنذ ذلك الحين تولى حكم العالم الفكرُ المنحط ، القصير

النظر ، فكر الرجل الوضيع الذى استحال فجأة رجلا قويا . هذا هو النصر! لقد تمت الإبادة ، وأوشك اليأس من المستقبل أن يستحكم ، وأطفئت غلة الانتقام من المجتمع الراقى . وفى أثناء ذلك تبدو الأمور كما هى : ينتقم المنطق القاسى للتاريخ من المنتقمين ذوى الفكر الخسيس ، الحاسدين ، الحالمين ، المتحمسين ، الذين عموا عن الأمور الواقعة للحقيقة العظيمة القاسية .

إن ثلاثين مليونا من العمال البيض لاعمل لهم اليوم على رغم الخسائر العظيمة فى الحرب ، وإلى جانبهم ملايين أخرى بعمل بعضهم فحسب ، وقد ضربنا عنهم صفحا ، وليس ذلك من عقابيل الحرب لأن نصفهم يعيش فى أقطار لم تشترك قط فى الحرب أو لم تُبْعِد فيها ، ولا هو نتيجة لديون الحرب ، أو مناورات فاشلة فى العملة كما يظهر فى الأقطار الأخرى . إن تعطل العمال يتناسب فى جميع الأنحاء مع ارتفاع الأجور السياسية تناسبا دقيقا . إنه يصيب مختلف البلدان فى دقة بنسبة عدد العمال البيض فى الصناعة . وفى الولايات المتحدة كان الأنجلو أمريكانيون أول من أصيبوا بالاستغناء عن عملهم ، ثم أصيب به المهاجرون من شرق أوربة وجنوبها ، وبعد ذلك بوقت طويل اصيب به الزنوج ، ومضت الحال وفق ذلك فى امريكا اللاتينية وفى جنوب افريقية . وفى فرنسا يقل عدد المتعطلين بالقياس إلى ما سلف لأن النواب الاشتراكيين - فوق كل شىء - يفهمون الفرق بين النظرية والواقع ، فيبيعون انفسهم للمالية الكبرى فى سرعة بالغة ، مؤثرين نفع انفسهم على ان ينفعوا ناخبيهم باغتصاب الأجور لهم . وفى الروسيا واليابان والصين والهند لاتجد نقصا فى العمل لأن الأجور المترفة لم تعرف سبيلها إليها . إن الصناعة تهرب

إلى الملونين ، وفى الأقطار البيضاء لاتجد المخترعات والأساليب التى توفر من عمل اليد وتقتصد فيه ـ لاتجد من يدفع فيها مالا ، لأنها تخفف ضغط الأجور. ومنذ عشرات السنين كان الإكثار من الإنتاج مع المحافظة على عدد العمال بالتحسين الفنى الوسيلة الأخيرة لاحتمال هذا الضغط . ولقد أصبح احتماله اليوم مما لا تنهض به القدرة لأن التصريف صار مفقودا . لقد كانت الأجور فى برمنجهام وإسن ، وبتسبورج يوما ما المقياس للعالم ، أما اليوم فقد أصبحت أجور الملونين فى جاوة وروديسيا وبيرو هى ذلك المقياس . ويضاف إلى ذلك تقصيب أفراد المجتمع الراقى فى الشعوب البيضاء بثرواتهم الموروثة ، وذوقهم الذى بنته السنون على مهل ، وحاجتهم إلى الترف الحق الأصيل الذى يرسم لغيرهم المثل . إن بولشفية ضرائب التركات والإيراد التى أملاها الحسد، والتى بدأت فى إنكلترا قبل الحرب ، ثم ألوان التضخم المالى المذيبة للثروات قد قامت بعمل أساسى فى إنجاز التقصيب . ولكن هذا الترف الأصيل كان قد خلق العمل الممتاز وحافظ عليه ، وغذى الصناعات الممتازة وهيأ لها أن تنمو . كان قد هذب الطبقات الوسطى وأغراها بأن تكون لها مطالب ممتازة . وكلما عظم هذا الترف ازداد ازدهار الاقتصاد . ذلك ما فهمة نابليون يوما ما فلم ترضه النظريات القومية الاقتصادية إذ كان أحسن فهما للحياة الاقتصادية : فمن بلاطه انبعث ثانية الاقتصاد الذى كان قد قوضه اليعقوبيون ، انبعث حين تألف من جديد مجتمع رفيع احتذى النموذج الإنجليزى ، لأن نظام الفرنسى القديم كان قد فتك به ودمر وأصبح ما تخلف منه باليا حقيرا . إذا ما أبيدت الثروة المتجمعة فى الطبقات الرفيعة بهجوم الدهماء ، وإذا ما أصبحت مناط اشتباه ومصدر اضطهاد وخطر على مالكيها فإن الإرادة النورديكية

لحيازة الملكية ، وإدراك السلطة عن طـــريقها تقف عن الإبداع ، يموت الطموح الاقتصادى النفسى ، وتصبح المنافسة غير مربحة . يجلس الإنسان فى زاوية ، قصاراه الزهد والادخار ، «وبالادخار» الذى هـو دائما ادخار لعمل الغير ـ يهلك كل اقتصاد واسع التقدم بالضرورة . وكل أولئك أسباب تعمل معا . قد أصبح العمل الأجير الأبيض فاقـد القيمة ، وأصبحت جموع العمال حول الفحم الشمالى تزيد على الحاجة . لقد كان ذلك الهزيمة الأولى للشعوب البيضاء أمام مجموعـة الشعوب الملونة فى العالم أجمع ، وهى التى تضم الروسيين والأسبانيين الجنوبيين ، والإيطاليين الجنوبيين ، والأمم الإسلامية ، كما تشمل الزنوج فى أمريكا الإنجليزية والهنود الحمر فى أمريكا الأسبانية . كان العلامة الأولى المنذرة بأن السيادة العالمية «البيضاء» تواجه احتمال السقوط بين يدى القوة الملونة كنتيجة لحرب الطبقات تشن عليها من وراء ظهرها .

وعلى الرغم من ذلك لايجرؤ أحد على مواجهـة الأسباب الحقيقية لهـذه الكارثة ، ورؤية أعماقها السحيقة . إن العالم الأبيض يحكمه الاغبيـاء بصفـة مسيطرة ـ وإن الانسان ليشك فى أن هذا العالم الابيض محكوم فى الواقـع ـ ويقف حول سرير مرض الاقتصاد الابيض سلطات هزليـة لاترى ماوراء السنة التالية ، وتتنـاطح حـــول التافه من المسائل يسبب الآراء الاقتصادية الضعيفة التى شاخت منذ بعيد : «الرأسمالية» و «الاشتراكية» . واخـيرا ـ والجبن يعمى ـ لا يتحدث احد عن عواقب هذه الثوره التى يبلغ عمرها اكثر من مائة عام ، والتى اندفعت من اعماق المدن الكبيرة لتهدم الحياة الاقتصادية بل لتهدم غيرها ايضـا . هـــذه العواقب لايراها احـد بل لايجـــرؤ احـد على رؤيتها .

إن العامل اليوم كما كان بالأمس - معبود العالم أجمع ، و زعيم العمال، معنى من كل نقد احتراما للنزعة التى قضت بوجوده ، ومهما يدو الطعن فى الماركسية فإن كل حرف من تلك العبارات الطاعنة ينطق بالماركسية نفسها، إن أكثر خصومها صخبا قد استحوذت عليهم الماركسية وهم لايشعرون . يكاد كل منا يكون فى إحدى زوايا قلبه اشتراكيا او شيوعيا . إلى ذلك يعود النفور العام من التسليم بالأمر الواقع ، بحرب الطبقات المسيطرة ، واستخلاص ماله من نتائج . إنهم ينصرفون عن مكافحة أسباب الكارثة فى غير رحمة وبكل ما يتسع له الذرع من جهد يستغرق أمد الإمكان ، ويحاولون إزالة النتائج ، الأعراض ، وإنهم فى محاولتهم هذه لا يرتفعون إلى إزالتها ، فيقنعون بتغطيتها ، إخفائها ، إنكارها . وهنا نجد أسبوع الأربعين ساعة هو المطلب الثورى الجديد بدلا من البدء ببحث ارتفاع الأجور الثورى ، إن هذا المطلب خطوة جديدة فى الطريق الماركسى ، إنه إنقاص آخر لعمل العمال البيض مع المحافظة على الإيراد نفسه ، أى إغلاء آخر للعمل الأبيض ، فلقد أصبح عدم جواز تخفيض الأجور السياسية أمرا مقررا ، إذ افترض أنه بديهى ، وسُلم بذلك . لا يوجد من يجسر على مجابهة جموع العمال بالقول بأن انتصارهم ليس على التحقيق إلا أكبر هزيمة حاقت بهم وأن زعماء العمال وأحزاب العمال قد جروهم إلى ذلك ليشبعوا نهم أنفسهم إلى الشعبية ، إلى القوة ، وإلى المناصب التى تدر الربح ، ولن يفكروا قبل انقضاء أمد بعيد فى أن يتركوا فرائسهم تفلت من أيديهم حتى لايختفوا هم أنفسهم وشيكا . هذا حال العمال البيض على حين يعمل الملونون عملا رخيصا وطويلا ، عملا يستغرق غاية استطاعتهم : يؤدى الملونون العمل على هذه الشاكلة فى روسيا تحت ظل العصا ، وفى غيرها

فى ظل الشعور الصامت بأنهم يملكون التصرف فى سادة اليوم المكروهين ـ أو سادة الأمس على التحقيق ! !

هذا معنى العبارة الخلابة الخاوية عبارة « القضاء » على تعطل العمال ، أى إيجاد عمل ، عمل زائد على الحاجة ، عمل لاهدف له ، إذ لم يعد هناك فى هذه الظروف عمل مربح ذو أهداف ـ ولا من يحدث نفسه بأن نفقات هذا الإنتاج الذى لاتصريف له ، هذه القرى البوتمكينية (١) فى صحراء اقتصادية ـ يجب أن تسدد ثانية ببولشفية الضرائب ، تلك التى تشمل خلق وسائل دفع وهمية من بقايا الفلاحية السليمة والمجتمع الرفيع الحضرى . هنا سياسة اغراق الأسواق بالتخفيض المصمم لقيمة العملة ، وبذلك التخفيض يحاول كل قطر انقاذ تصريف انتاجه على حساب غيره . وهو فى أساسه احتساب مغلوط مستسهل للأجور الحقيقية ونفقات الإنتاج التى يخدع بها المشترى والتى يتحمل عبئها من جديد ما فضل من ملكية لبقية الأمة عن طريق تخفيض القيم . ولكن انهيار الاسترلينى ـ وهو تضحية هائلة من جانب الكبرياء الإنجليزية ـ لم ينقص عدد المتعطلين فردا واحدا . لايكون اغراق الأسواق مكفول النجاح الا اذا قام على أساس طبيعى فى الحياة الاقتصادية ، أساس من الأجر الأرخص والعمل الأكثر . وعلى هذا الأساس ، تعتمد النزعة المدمرة للصادرات الروسية ، والتفوق الواقعى لميادين الإنتاج «الملونة» كاليابان ، سواء أكان ذلك التفوق فى ميدان الصادرات أم فى الزراعة ، وسيان فى ذلك القضاء على الانتاج الأبيض بالصادرات الذاتية ، أو بمنع

---

(١) سياسى روسى وإدارى قدير ، بنى أسطول البحر الأسود وأكثر موانيه عرف بالاسراف الشديد ، وكان أقرب المقربين إلى كاترين الثانية .

الواردات بتموين البلاد بإنتاجها الذاتى الأرخص .

وأخيرا تظهر الوسيلة الأخيرة اليائسة لألوان الاقتصاد القومى المُحتضرة : الأوتاركية (سياسة الاكتفاء) أو أى لفظ كبير يطلق على هذا الموقف للكائنات الحية فى موتها ، هى العزل الاقتصادى المتبادل عن طريق السياسة بوسائل المكوس الحربية ، وحظر التوريد ، والمقاطعة ، والحواجز أمام الحوالات النقدية ، وسائرما اخترع ، وما سيخترع للوصول إلى حال الحصون المحاصرة : تلك الحال التى تكاد تطابق الحرب الحقيقية ، والتى سوف تذكريوما ما الدول المتفوقة فى القوة الحربية ـ تذكرها بالمطالبة بفتح الأبواب والتسليم الاقتصادى وهى تشير إلى دباباتها وأسراب حاملات قنابلها . يجب ألا نمل تكرار القول ، بأن الاقتصاد ليس مملكة منطوية على نفسها ، إنه مرتبط ارتباطا وثيق العرا بالسياسة الكبرى ، ولا يستطاع تصور وجوده من غير سياسة خارجية قوية ، وهو من أجل ذلك ولهذه الغاية يتوقف على قوة البلاد الحربية التى يعيش فيها أو يموت .

ولكن ، أى معنى للدفاع عن الحصن إذا كان العدو بداخله ، وإذا كانت الخيانة على هيئة حرب الطبقات تدفع إلى الشك فيمن وفيما يدافع عنه فى الواقع ؟ هنا تقوم مشكلات العصر الحقيقية الثقيلة . تقوم المشكلات الكبيرة كى يُنْضِى التفكير فى معالجتها الرءوس الكبيرة حتى لتفلق نفسها بيدها كدا وبحثا . أما إذا رأى الإنسان كيف ينحط التفكير إلى تناول مشكلات صغيرة وهمية ، يُقترف الكذب فى سبيلها ، ليظهر على المسرح أشخاص ذووضآلة بآراء ضئيلة ، ووسائل ضئيلة ، وأما إذا كان وزر الكارثة الاقتصادية لايبحث عنه إلافى الحرب ، وفى ديون الحرب ، وفى التضخم المالى وصعوبات

العملة ، وكانت عبارات « عودة الرواج » و « انتهاء البطالة » تدل على انتهاء عصر هائل فى تاريخ العالم ، ولا يخجل منها الإنسان - إما إذا كان هذا وكان ذلك فالمستقبل إذن ميئوس منه . إننا نعيش فى عصر من أكثر عصور التاريخ جبروتية ، على حين لا يرى ذلك أحد ولا يدركه أحد . إننا نعانى انفجارا بركانيا لا ضريب له : لقد أقبل الليل ، واقشعرت الأرض ، وانسابت سيول الحمم تكتسح أمامها بأجمعها . والناس يستغيثون بفرقة المطافىء . ومن لهم بها ؟ إنها الدهماء فى كل ناحية ، الدهماء الذين أصبحوا سادة ، لا الأفراد النادرون الذى يحرزون « العنصر » إن التاريخ لا يصنعه الا الأفراد العظماء . أما ما يبدو على هيئة الجموع فليس الا موضوعا له .

- ١٨ -

هذه الثورة العالمية لم تنته : سوف تتخطى أواسط هذا القرن ، وربما آخره . انها تخطو قدما دون توقف صوب أمورها الحاسمة النهائية . مقترنة بالقسوة التاريخية لمصير عظيم لم تفلت منه أية مدنية فى الماضى . وستخضع لحتميته جميع الأمم البيضاء فى الحاضر . ولم يفهمها بحال ذلك الذى ينادى بنهايتها ، أو يؤمن بانتصاره عليها . ان عقودها الجبارة لتستهل الآن . وليست كل شخصية متزعمة فى عصر الثورة الجراكية : سيبيو وخصمه هانيبال على السواء ، وسلا كاريوس ، ولا كل حادثة عظيمة : كسقوط قرطاجنة ، الحروب الأسبانية . ثورة الحلف الإيطالى ، ثورة الرقيق من سيسليا الى آسيا الصغرى - ليست كل هذه ولا تلك الا صورا تدنو فيها من نهايتها هذه الأزمة العميقة للمجتمع ، أى للبناء العضوى لأمم الحضارة . لقد وقع ذلك

فى مصر الهكسوسية ، وفى الصين على عهد الدول المتناطحة ، وفى كل مكان آخر فى المراحل التاريخية «المعاصرة» مهما تكن قلة علمنا به : إننا الآن جميعا فى غير استثناء عبيد لإرادة التاريخ ، أدوات تتعاون على تنفيذ حدث عضوى.

فى هذا النزال الهائل بين النزعات القوية ، النزال الذى تدور رحاه فى العالم الأبيض متمثلا فى حروب وانهيارات وفى شخصيات قوية مشحونة بالهناءة والمأساة ، وفى ألوان الإبداع الجبارة ذات التكوين العابر . فى هذا النزال لا يزال يتلو الهجوم الذى تشنه من أسفل جموع المدن ـ دفاع من أعلى وإن يكن ضعيفا ، غير شاعر بحتميته . ولن تبدو النهاية إلا إذا انقلبت الأوضاع ويوشك ذلك أن يقع .

فى مثل هذه الأوقات يقوم حزبان طبيعيان ، جبهتان لحرب الطبقات ، قوتان واتجاهان داخليان . سمهما ما شئت من أسماء ، فهما اثنان فحسب مهما يكن عدد الأنظمة الحزبية الموجودة ، وسواء أكانت قائمة أم لا . تدل على ذلك البلشفية المطردة فى التقدم ، بلشفية الجوع فى الولايات المتحدة ، الطراز الروسى فى فكره وأمله ورغبته . هذا هو «الحزب» . لم ينهض بعد فى هذه البلاد مركز مقاومة له . إنها بلاد لا أمس لها ، وقد تفقد الغد أيضا . إن مرحلة سيادة الدولار اللامعة وبناءها الاجتماعى تلك التى بدأت بحرب الانفصال عام ١٨٦٥ ـ لتبدو أمام نهايتها . فهل تصبح شيكاجو موسكو العالم الجديد ؟ وفى إنجلترا قد اتخذت جماعة اتحاد أكسفورد ـ وناديها أكبر ناد لطلبة أسمى جامعة فى البلاد ـ اتخذت القرار الآتى بأكثرية ساحقة : « هذا المجلس لن يحارب فى أى ظرف دفاعا عن الملك والوطن » . ومعنى هذا انتهاء الفكرة التى كانت مسيطرة إلى ذلك الوقت على جميع تشكيلات الأحزاب.

ليس بمستحيل أن تكون الدول الأنجلوسكسونية على وشك الذبول . ولكن ما مصير القارة الغرب أوربية ؟ إن أنظف مكان من هذه البولشفية البيضاء هو روسيا ، لم يعد بها شيء اسمه حزب ، وإن انطوى بها تحت هذا الاسم فئة حاكمة من النوع الأسيوى . ولم يبق بها أى إيمان ببرنامج ما ، وإن بقى بها الخوف من الموت ، يسحب بطاقة المواد الغذائية ، أو الجواز أو بالإرسال إلى معسكر الاعتقال . أو برصاصة مودية ، أو بحبل خانق. إن جبن طبقات بأجمعها ليبذل جهده عبثا للعب دور «وسط» بين النزعات «اليمنى» و «الشمالية» الراديكالية . فالوقت الحالى نفسه راديكالى . ولا يحتمل مصالحة ما . لا يمكن القضاء على الأمر الواقع بالسلطان القائم للشمال والإرادة الآخذة فى اليقظة لحركة يمنى لاتجد لها فى هذا الوقت مستقرا إلا فى دوائر معينة ، وبين بعض الجيوش ، وفى مجلس اللوردات الإنجليزى دون غيره من الهيئات . ولذلك اختفى حزب الأحرار الإنجليزى ، وسيمضى فى أثره وارثه حزب العمال فى صورته الراهنة . واختفت أحزاب الوسط الألمانى من غير مقاومة . إن النزعة نحو الوسط رغبة فى الدعة بأى ثمن ، وإنها لرغبة واهنة كهرمة ، تنزع إلى سَوْسَرة (١) الأمم ، إلى أن تنزل كل منها عن عرشها التاريخى ، رغبة يتخيل بها الانسان القدرة على الهرب من ضربات التاريخ. إن التضاد قائم ماثل بين نظام المراتب الاجتماعية والجموع الحضرية ، بين التقاليد والبولشفية ، بين الكيان المتفوق للعمل اليدوى القليل . وعمل الجموع الأدنى . بين هاتين الناحيتين اللتين لاثالث لهما ، ولك أن تسميهما بما تشاء .

ولكن من الخطأ كذلك الايمان بإمكان وجود حزب واحد . فما الأحزاب

---

(١) أى أن تكون كل أمة سويسرا أخرى

إلا صور ليبرالية ديمقراطية للمعارضة . إنها تفترض وجود معارضة حزبية . إن الحزب الواحد مستحيل الوجود فى الدولة، كما يستحيل وجود دولة فى عالم ليس فيه غيرها . إن الحد السياسى ـ لقطر أو فكرة ـ يفصل دائما قوتين إحداهما عن الأخرى . إنه المرض الطفلى لكل الثورات ، الإيمان لوحدة منتصرة ـ على حين تتطلب مشكلة العصر التى نشأت هى نفسها عنها ـ الانشقاق . إن أزمات التاريخ العظيمة لاتحل بهذه الطريقة . إنها تنزع إلى النضج لتتحول إلى مشكلات معارك جديدة . إن «الدولة الكلية» وهى عبارة خلابة مما أشاعته إيطاليا قد أصبحت بدعة دولية ، حققها اليعقوبيون فى سنتى حكم الإرهاب ، فلما أبادوا السلطات المتداعية للحكم القديم ، وأسسوا الديكتاتورية انشقوا هم أنفسهم إلى جيروندبين وجبليين ، وقد شغل الأولون المحل الشاغر ، ثم سقط زعماؤهم فرائس لليسار وقد ثأر لهم خلفاؤهم من بعد فجرعوا اليساريين الكأس نفسها . وبحلول ترميدور حل أوان ارتقاب القائد المنتصر . قد يستطاع القضاء على حزب كنظام وبروقراطية لذوى المرتبات ولكن القضاء عليه كحركة ، كسلطة روحية فكرية مما لايقع فى الذرع بحال. إن العراك الذى تحتمه الطبيعة سوف ينتقل إلى من بقى من الحزب ، وهنا تتكون جبهات جديدة لاستمرار العراك . وسيحاول فى هذا العراك أن ينكر نفسه ، أو أن يتنكر . ولكنه على أية حال قائم ماثل فيه .

ينطبق هذا على الفاشية ، وعلى كل الحركات الكثيرة التى تحتذى حذوها ، والتى نشأت ، أو لاتزال تنشأ ، كما فى أمريكا مثلا . كل منها أمام خيار لامفر منه . على الإنسان أن يعرف بصفة حاسمة أين يقوم أ إلى اليمين أم إلى اليسار ؟ وإلا فإن مجرى التاريخ سيفصل فيه ، والتاريخ أقوى من كل نظرية

أو أحلام فكرية . إن المسألة اليوم مستحيلة بقدر استحالتها فى عصر الجراكين .

إن البولشفية الغربية تحيا فى كل مكان ماخلا الروسيا . اذا ماقضى على أنظمتها الكفاحية حيت فى صور أخرى ، كجناح شمالى للحزب الذى خيّل اليه أنه قد قضى عليه ، كفكرة قد ينخدع آحاد وجموع انخداعا تاما فى وجودها فى أفكارهم أنفسهم ، كحركة تنبثق فجأة ذات يوم فى صور منظمة .

ماذا يعنى « اليسار » ؟ ان الألفاظ الخلابة التى اشاعها القرن الماضى كالاشتراكية والماركسية والشيوعية قد شاخت وهرمت انها لم تعد تعبر عن شىء ما . والناس يستعملونها حتى لايلزموا بأن يقدموا حسابا لأنفسهم عن موقفهم . ولكن العصر يتطلب الوضوح . ان « اليسار » ـ وهو ما هو ـ «حزب» ، وكل من يؤمن بحزب ، لأن ذلك صورة ليبرالية للكفاح ضد الطبقة الراقية ، لكفاح الطبقات منذ ١٧٧٠ ، للشوق الى الأكثريات ، للجرى مع « الجميع » ، اللكتّم قبل النوع ، القطيع قبل اليسد . ولكن القيصرية الحق لكل الحضارات المنتهية تعتمد على أقليات قوية صغيرة . ان اليسار ـ وهو ما هو ـ برنامج لأن ذلك هو الاعتقاد الفكرى الراسيونالى بقهر الحقيقة بالمجردات . اليسار هو الدعاية المهيجة الصاخبة على بلاط الشوارع ، وفى الاجتماعات الشعبية ، هو فن اثارة جموع المدينة بعبارات قوية وعلل علدية : ولقد وصل النثر اللاتينى على عهد الجراكين فى تطوره الى ذلك الأسلوب البليغ الذى لايجدى الا فى البلاغة الممعنة فى التدقيق كتلك التى يصطنعها شيشرون . اليسار هو التحمس للجموع دائما كأساس للسلطة ، هو ارادة تقصيب الممتاز ، وتسوية الصانع بالشعب بنظرات جانبية تقتحم الفلاحين

والبورجوازيين وتزدريهم .

ليس الحزب صورة هرمة فحسب ، فهو يستند أيضا إلى مثالية الجموع التى انتهت إلى الشيخوخة ، إنه يرى الأشياء من أدنى ، ويجرى وراء تفكير الأكثرية . « واليسار » أخيرا وقبل كل شيء ـ الافتقار إلى احترام الملكية. ولن تجد عنصرا يحوى غريزة الملكية قوية قوتها فى نفس الجرمانى ، لا لشيء إلا أنه أقوى الأجناس التاريخية فى نزعته الإرادية . إن إرادة للملكية هى فى الحقيقة ـ المعنى النورديكى فى الحياة . إنها تسيطر على تاريخنا كله ، وتشكله بادئة بغزوات الملوك نصف الأسطوريين ومنتهية إلى صورة الأسرة الراهنة، التى لابد أن تموت إذا امحت فكرة الملكية . من لم يُرزق هذه الغريزة فليس من « عنصر » .

هذا هو الخطر العظيم لمنتصف هذا القرن : أن يتابع الإنسان ما يرغب فى محاربته . إنه عصر أنصاف الحلول وألوان الانتقال . ولن تنتهى الثورة طالما كان ذلك ممكنا . إن قيصرية المستقبل لن تقنع ، بل لن تنتصر بالسلاح ولن تغلب الثورة إلا إذا صار ذلك بديهيا : عند ما تحس الأكثرية كحجة مبررة

وتحتقر ، عند ما يرى البعض الجموع ، الحزب بكل معنى الكلمة ، كل البرامج والأنظمة ـ عند ما يراها دونه ، حتى فى الفاشية يقوم الأمر الواقع الجراكى لجبهتين : اليسرى لجموع المدينة الدنيا ، واليمنى للأمة المشكلة من الفلاحين فصاعدا حتى الطبقات السائدة فى المجتمع ـ ولكن تكبحها الهمة النابليونية لفرد . إن التضاد لم يمنع ، ولا يتأتى منعه . ولسوف يظهر فى صورة حرب بين الحلفاء إذا ما أطلقت هذه اليد الحديدية دفة الأمور . إن الفاشية انتقال أيضا . لقد نشأت بين جموع المدينة كحزب للجموع متذرعة بالدعاية المثيرة

الصاخبة وخطب الجماهير . وليست نزعات الاشتراكية العالمية غريبة عليها . وإن الديكتاتورية حين يكون لها مطمع اشتراكى ، وحين ترى أنها ما قامت الا من أجل العامل ، فتذهب تلتمس الرضا عنها والحب لها فى الأزقة ـ إنها حينئذ تعد صورة عابرة . إن قيصرية المستقبل تجاهد فى سبيل القوة فحسب ، فى سبيل إمبراطورية ، وتناجز كل لون من الحزب .

كل حركة مثالية تؤمن بنهائية أعمالها . انها ترفض الفكرة بأن التاريخ سيتابع سيره « بعدها » ، ولا يزال يعوزها الشكاكية القيصرية والنظرة الازدرائية الى الناس ، والعلم العميق بوقتية جميع المظاهر . لقد كانت فكرة موسولينى المبدعة عظيمة ، وكان لها أثر دولى : لقد رؤيت صورة ممكنة لمكافحة البولشفية . ولكن هذه الصورة نشأت عن تقليد الخصم ، ولذلك كانت مليئة بالأخطار : الثورة من أدنى ، وأكثرها من صنع الإنسان الأدنى ومشاركته ، الميليشيا الحزبية المسلحة ـ كان يوازنها فى روما القيصرية عصابات كلوديوس وميلو ـ الميل الى جعل العمل الرئيسى الفكرى والاقتصادى دون العمل المحض اذ قد فقد فهمه ، والى الإقلال من احترام ملك الغير ، الخلط بين الأمة والجموع . وبالاختصار المثالية الاشتراكية للقرن السابق .

كل هذا أصبح مما طواه الماضى . ما يشير الى المستقبل ليس كيان الفاشية كحزب ، بل صورة مبدعها فحسب . ليس موسولينى زعيما حزبيا على الرغم من أنه كان زعيم عمال ، ولكنه سيد بلاده . من المحتمل أن يقدر لـ «لينين» وهو الصورة المثالية التى احتذاها موسولينى ـ أن يكون كذلك لو أرخى له فى الأجل وطال عمره . انه يملك عدم المبالاة المتفوقة تجاه حزبه ، والإقدام على الانسحاب من كل مثالية . ان موسولينى رجل سياسى فوق كل شىء ، هادىء

كالثلج ، وشكاكى واقعى ، ودبلوماسى . إنه يحكم وحده على التحقيق . إنه يرى كل شىء ـ وتلك أشد المواهب ندرة لدى الحاكم المطلق . إن نابليون نفسه كان فى عزلة عن محيطه ، إن أصعب الانتصارات التى ينتزعها حاكم ما ، وأكثرها ضرورة ما يكسبه من أتباعه البريتريانيين لا من خصومه . ذلك ما يتميز به الحاكم الأصيل . ومن لا يعلم ذلك ولا يستطيعه ولا يجرؤ عليه يطفو طفوّ غطاء الفلين على سطح الأمواج : يُرى عاليا ولكن فى غير سلطان . إن القيصرية المكتملة ديكتاتورية ، ولكنها ليست ديكتاتورية حزب . بل ديكتاتورية رجل واحد يناجز الأحزاب كلها ولا يباليها وفى مقدمتها حزبه نفسه . وتبلغ النصر كل حركة ثورية لطلائع من البريتريانيين ، تستنزف جهودهم وتستغل ، ثم يستغنى عنهم إثر ذلك ويعتبرون مصدر خطر يجب استئصاله . إن السيد الحق يبدو فى الطريقة التى يتخلص بها منهم فى غير مبالاة ، أو إقرار بالجميل ، مرسلا نظره إلى هدفه الذى فى سبيله يبحث عن الرجال اللائقين ، ويعرف كيف يجدهم . وقد بدت الثورة الفرنسية فى أوائلها على نقيض ذلك ، فلم يملك السلطة يومئذ أحد ، كل يريدها وكل يأمر وما من مطيع .

إن موسولينى رجل خلق للسيطرة ، إنه أشبه بزعماء العصابات المأجورين (الكوندتييرى) فى عصر النهضة ، أولئك الذين سرى فيهم مكر الجنس الجنوبى ، فقدروا الملائمة التامة بين مسرح حركتهم وطبيعة إيطاليا ـ موطن الأوبرا ـ ولم تفتنهم أنفسهم تلك الفتنة التى لم يستطع نابليون أن ينجو منها تماما ، والتى أدت إلى هلاك رينيزى (مثلا) . إن موسولينى يصيب كبد الحقيقة إذا ما أشار إلى أنه يتوخى المثل البروسى ويحتذيه . إنه أدنى الى

فردريك العظيم بل إلى أبيه من نابليون .

وهنا مجال كلمة فاصلة عن « البروسية » و « الاشتراكية » . ولقد وازنت بينهما عام ١٩١٩ . إن الأولى فكرة حية ، أما الأخرى فكلمة شائعة خلابة مسيطرة لقرن كامل . ولكننى يوم وازنت بينهما لم أفهم ، ولا بد من أن أعلن ذلك وأقوله . فلقد أصبح الناس لا يفهمون كيف يقرأون . لقد مات ذلك الفن العظيم منذ عصر جوته . إنهم يتصفحون المطبوعات (بالجملة) ومن عادة القارىء أن يحط من قدر الكتاب ـ لقد أبنتُ يومئذ أن الجيش الضخم من العمال ، الذى صاغه بيبل بما يسوده من نظام يتمثل فى الوفاء للتبعية والزمالة ، والترحيب بأقصى غاية التضحية ـ ان ذلك الجيش ليس الا استمرارا لحياة ذلك الطراز البروسى القديم ، الذى ظهر أول مرة فى معارك حرب السنين السبع . لقد كان المعوّل على الفرد الاشتراكى باعتباره خلقا ، على أوامر ضميره الخلقية ، لا عليه بالنظر الى ما فى رأسه من اشتراكية مطروقة . ليست الا خليطا بروسيا من مثالية غبية ، وطموح خسيس . ولقد أبنت أيضا أن هذا الطراز من الوجود على صورة تلقاء الواجب ـ يعود بأصله التقليدى الى وقت تنظيمات الفرسان الألمان ، التى قامت فى القرون الغوطية على حراسة حدود الحضارة الفلوسقية تجاه آسيا . وان هذه التنظيمات لتنهض بهذا العبء فى يومنا هذا مرة أخرى . وفى أغسطس ١٩١٤ ظهر هذا الموقف الخلقى غير الواعى موفيا على غاية بهائه . وهو فى هذا ككل طراز أصيل للحياة ، ولذا فلم توقظه ولم تهذبه الخطابة والكتابة ، وانما اثاره المثل الحى وصقله . لقد ربى الجيش المانيا ، الجيش الذى خانته الأحزاب عام ١٩١٨ حين انطفأت الدولة . ومنذ يومئذ انتصبت قامة الإرادة المنظمة فى الحركة القومية ثانية ،

فى موقفها الخلقى للصفوة لا فى براجها وأحزابها . وعلى هذا الأساس قد تتأتى تربية الأمة الألمانية لمهام مستقبلها الثقيل على مهل وفى مثابرة . وما لنا عن ذلك مَعْدَى إذا أردنا ألا نهلك فى المعارك المقبلة .

ولكن ذوى الأذهان السطحية لايستطيعون فكاكا من التفكير الماركسى للقرن الماضى . إنهم فى كل أنحاء العالم لايفهمون الاشتراكية على أنها صورة خلقية للحياة بل يفهمونها على أنها اشتراكية اقتصادية ، اشتراكية العمال ، مثالية الجموع بأهداف مادية . ليست اشتراكية البراجم إلا تفكيرا من أدنى ، قائما على غرائز خسيسة إنها أوج الشعور القطيعى الذى يختفى اليوم فى كل مكان وراء الشائعة الخلابة : « قهر الفردية » إنها عكس الشعور البروسى الذى مارس ضرورة التفانى المنظم على يد زعماء مثاليين ، يملكون من أجل ذلك الحرية العميقة فى أداء الواجب، الحرية التى هى أمر النفس ، حكم النفس ، أمام هدف عظيم .

إن اشتراكية العمال فى مختلف صورها ـ على العكس ـ من أصل إنجليزى صميم . ولقد أثبتّ ذلك من قبل . نشأت عام ١٨٤٠ كالصورة المنتصرة لرأس المال الذى لا وطن له عن طريق سيادة السهم كلاهما تعبير عن مبدأ حرية التجارة المانشسترية : هذه البلشفية « البيضاء » رأسمالية من أدنى ، رأسمالية الأجور . كما أن رأس المال المضارب طبقا لطريقته ـ اشتراكية من أعلى ، من البورصة . كلاهما نشأ عن أصل فكرى واحد ، من التفكير فى المال ، من التجارة بالمال فى شوارع المدن العالمية . وإن من المسائل الثانوية أن يبدو ذلك فى الصورة الأولى ارتفاعا فى الأجور . وفى الأخرى ربحا فى سوق المضاربة .

لاتضاد بين الليبرالية الاقتصادية والاشتراكية . فسوق العمل بورصة

البروليتارية المنظمة . ونقابات العمال اتحادات لاغتصاب الأجور تنتهج فى نزعتها وطريقتها منهج اتحادات الزيت والصلب ، والمصارف المطابقة للنموذج الأنجلو أمريكانى والتى تتخلل اشتراكيتها المالية مشروعاتها الفردية المدارة فنيا ، تتحللها وتخضعها وتمتصها وتسيطر عليها إلى أن تنتزع ملكيتها بتصميم اقتصادى. لم تعط بعد لمدة طويلة حقها من الاعتبار الصفة المدمرة المغتصبة التى لرزم الأسهم وسائر ألوان المساهمات ، الفصلُ بين الملكية بالمعنى المالى الحديث ، والعمل القيادى المسئول الذى ينهض به صاحب العمل ، ذلك الذى لم يعد يعرف من صاحب المصنع فى الواقع .

إن الاقتصاد المنتج ليس آخر الأمر إلا شيئا لا إرادة له لمناورات البورصة . ولم تحرز البورصة قوة الفصل فى الحياة الاقتصادية بعد أن كانت محض وسيلة مساعدة للاقتصاد ـ إلا بسيادة السهم . إن هؤلاء الاشتراكيين الماليين ، وسادة الاتحادات كمورجان وكرويجر ـ يوازيان بدقة زعماء الجموع لأحزاب العمال ، والقوميسياريين الاقتصاديين فى الروسيا : طبائع تجارية يتجلى فيها ذوق محدثى النعمة . الفريقان يحاربان القوى المحافظة للدولة ، للجيش ، للملكية ، للزارعين ، لأصحاب العمل ، فما أشبه يومنا هذا بعصر الجراكين!

ولكن الطراز البروسى لايتطلب أسبقية السياسة العظمى على الاقتصاد فحسب ، وتنظيمه وتهذيبه بدولة قوية ، مما يتطلب المقدرة الابتكارية الحرة فى روح قيادة العمل الخاصة . وليس فيما ينشده الطراز البروسى من تنظيم الاقتصاد شىء من التنظيم الحزبى البرنامجى والغلو فيه إلى أن تزول فكرة الملكية التى تعنى بين الأمم الجرمانية بالذات حرية الإرادة الاقتصادية والتصرف المطلق فى الملكية الفردية .

« التنظيم » هو ترويض جـــواد أصيل بفارس خبير لا ضغط الجسم الاقتصادى الحى فى مِشدّ مصمم على أساس اقتصادى أو تحويله إلى آلة مصفقة فى إيقاع متزن . بروسى يعنى التنظيم الأرستقراطى للحياة على حسب مرتبة العمل . بروسى يعنى السبق المحتوم للسياسة الخارجيـــة ، أى للقيادة الناجحة للدولة فى عالم من الدول ـ على السياسة الداخليـة التى عليها أن تحصر مهمتها فى المحافظة على إعـداد الأمـــة للحرب ، تلك السياسة التى تؤدى إلى الاضطراب والإجرام إذا كانت بالاستقلال عنها تتبع أغراضا خاصة مثالية. فى هـــذا يتمثل ضعف معظم الثورات التى ارتفـع زعماؤها عن طريق الديماجوجية فلم يتعلموا شيئا آخر ، ولم يعرفوا كيف يهتدون إلى الطريق الذى ينقلهم من التفكير الحـزبى إلى التفـكير السياسى ـ كدانتون وروبسبيير . لقد مات ميرابو ولينين فى سن مبكرة جدا ، ونجح موسولينى . إن المستقبل لرجال الأمور الواقعة بعد أن تبختر زهوا على مسرح التاريخ العالمى ـ المثاليون منذ عصر روسو ، أولئك الذين درجوا ولم يتركوا وراءهم أثرا ثابتا .

وبروسى ـ أخيرا ـ يعنى خلقا ربى ونظم نفسه ، الخلق الذى تمثل فى فردريك الأكبر ، وصاغـه فى عبارته عن نفسه : « الخادم الأول لدولته » . مثـل هذا الخادم ليس خادما « بالمعنى الحرفى » ، ولـكن بيبـل كان مصيبا فيما يخص الأكثرية حين قال : إن الأمة الألمانيـــة ذات روح خادمية . وقد أثبت حزبه ذلك المعنى الذى عناه عام ١٩١٨ . إن خدم النجاح فى ألمانيا أكثر منهم فى أى بلد آخر ، وإنهم ليمثلون القطيع الإنسانى فى كل الأزمان والشعوب. لافرق أن قامت البيزانطية بعربدتها أمام كيس النقود ، أو السعادة السياسية،

أو اللقب أو أمام قبعة جيسلر (١) . عندما نزل شارل الثانى إلى البر فى إنجلترا لم يعد بها فجأة أى جمهورى . خادم الدولة يعنى فضيلة أرستقراطية لا يحرزها إلا القليل . فإن كان « اشتراكيا » فإنما هى اشتراكية متشامخة مقصورة على أناس ذوى عنصر ، أى على الصفوة فى الحياة . البروسية شىء كله سمو ، وعظمة ، شىء مناجز لكل لون من الأكثرية وسيادة الدهماء . ولا سيما سيادة الصفات الجموعية . لقد كان كذلك مولتكه المربى العظيم للضابط الألمانى ، والمثل الأعظم للبروسية الصافية فى القرن التاسع عشر . ذلك الذى جمع الكونت شاليفن شعار شخصيته فى : كلام قليل ، إنتاج كثير ، مخبر أجل وأسمى من مظهر .

ومن هذه الفكرة للكيان البروسى سوف ينطلق التغلب النهائى على الثورة العالمية . ليس ثمة احتمال آخر . وقد سبق ان قلت عام ١٩١٩ : « ليس بروسيا كل من ولد فى بروسيا » فهذا الطراز يتأتى وجوده فى كل مكان فى العالم الأبيض . وهو موجود فى الواقع وإن فى قلة . إنه موجود فى كل مكان كأساس للصورة العابرة للحركات القومية ـ هذه الصورة التى ليست شيئا نهائيا ـ والمسألة هى : إلى اى مدى ينجح فى فصل هذا الطراز عن العناصر القومية الليبرالية الاشتراكية التى تسرع فى شيخوختها ، تلك العناصر الشعبية الديمقراطية حزبيا التى تسيطر عليه مؤقتا . إن الشعور القوى الصامت للانجليز عام ١٩٠٠ ، والشوفينية السطحية المطنطنة للفرنسيين تلك التى تجلت صاخبة فى قضية دريفوس ـ كانا من هذا الطراز : فى الأول تتمثل عبادة

---

(١) كان يرفع قبعته على جذع شجرة ، ليرهب بها السويسريين ، وكان يرغمهم على تحيتها . وقصة « تل » تدور حول إصراره على عدم تحيتها .

الأسطول ، وفى الشوفينية تتضح عبادة الجيش . وليس فى امريكا من ذلك شيء . إن الأمريكانية الخالصة أى مائة فى المائة محض عبارة ترددها أمريكا إذا مالزم أن تبقى كأمة بعد الكارثة المقبلة بين الشيوعية الكامنة والمالية الكبرى التى أدركت نهاية تقوضها . إن الفكرة البروسية تتجه ضد الليبرالية المالية كما تتجه ضد الاشتراكية العالية . إنها تسيء الظن بكل ماهو جموع وأكثرية ، بكل ما هو يسار ، وتتجه فوق كل شيء ضد إضعاف الدولة وإساءة استخدام مصالحها الاقتصادية بطريقة مُسِفة محقرة . إنها محافظة « يمينية » ، وتنشأ من القوى العريقة فى القدم للحياة طالما كانت لا تزال باقية فى الأمم النورديكية : من غريزة القوة ، والملكية . الملكية كقوة . والميراث والخصب التناسلى والأسرة ـ فهما متلازمان ـ وتباين المرتبة والتنوع العضوى والاجتماعى . تلك القوى التى كانت الراسيونالية من ١٧٥٠ ـ ١٩٥٠ ـ ولا تزال ـ خصمها اللدود . إن وطنية الجيل الحاضر مصاحبة للنزعة الملكية التى تختفى فيها مرحلة انتقال : إنها التمهيد للقيصرية المقبلة مهما يظهر أوانها بعيدا . فيها يظهر التقزز بكل ألوان الحزبية الليبرالية والاشتراكية . بكل لون من الشعبية التى تتسامح فى موضوعها دون انقطاع ، وبكل مايظهر كجموع ترغب فى إسماع صوتها . إن لهذه الخصيصة مهما يكن عمق اختفائها تحت النزعات الأكثر ملاءمة للعصر ـ إن لها المستقبل وزعماء المستقبل . إن كل الزعماء الذين يؤمن التاريخ بعظمتهم يتجهون يمينا مهما يكن مبلغ انخفاض شأنهم . وفى ذلك ما يدل على السيد والحاكم الأصيلين . وإنه لينطبق على كرومويل وميرابو انطباقه على نابليون . كلما نضج الزمن اتسعت آفاق المستقبل . لقد قضت على سيبيو الكبير الخصومة بين تقاليد نشأته التى

حرمت عليه الدكتاتورية غير القانونية ، وبين المركز التاريخى الذى شغله على غير إرادة منه بإنقاذه روما من خطر قرطاجة ، قضت عليه فلق حتفه غريبا . وقد بدأت الحركة الثورية منذ ذلك الوقت فحسب تقوض بالتقاليد الصور الشائعة حتى أن سيبيو الصغير لم يقف من الجراكيين إلا موقفا ضعيفا . ولكن سولا اتخذ من ماريوس موقفا رائعا فى قوته . ثم أتى قيصر أخيرا ، وكان قد بدأ أمره ككاتيلينى ، ولهذا لم يلق أية مقاومة حزبية ، لأن البومبيين لم يكونوا حزبا بل أتباعا لفرد . إن الثورة العالمية ـ وإن تبدأ قوية ـ لاتنتهى بنصر أو هزيمة ، بل باستسلام من الجموع المرفوعة إلى الأمام . لن تقاوم مُثلهم ، ولكنها ستصبح مملة ، ولن تجذب فى النهاية أحدا ليتحمس لها . كل من يتحدث عن نهاية البورجوازية يدل على بروليتاريته ، وعلى أنه لايمت إلى المستقبل بأية صلة . إن المجتمع غير البورجوازى لايبقى الا بالإرهاب ، ولا يمتد لأكثر من بضع سنين فحسب ، ثم يمل ويسأم ، ودعك من أن زعماء العمال فى أثناء هذه الفترة يتحولون الى بورجوازيين جدد . وليس ذلك مما يوافق مزاج طبائع الزعامة الصافية .

ان الاشتراكية بألوانها قد شاخت اليوم شيخوخة الصور الليبرالية التى نشأت عنها ، هى ككل شىء يتصل بحزب أو برنامج . ان قرن عبادة العامل من ١٨٤٠ الى ١٩٤٠ ـ قد انتهى الى غير رجعة . كل من يتغنى اليوم باسم العامل لا يفهم العصر . ان الصانع اليدوى يرتد ثانية الى مجموع الأمة لا كطفلها بل كأدنى درجة فى مجتمع المدينة . ان ألوان التضاد التى تنشأ عن كفاح الطبقات ترتد ثانية الى ألوان التباين الثابته من أعلى وأدنى ، ولقد رُضى عنها . انه استسلام عصر الأباطرة فى روما ، الذى لم تعد فيه مشكلات اقتصادية من

هذا النوع . ولكن ماذا يتبقى فى العصور الأخيرة للفوضى العالمية الاشتراكية ليصيبه التدمير والتقصيب ؟ إن ما يتبقى يبلغ من القلة حدا لايسمح فى كثير من الشعوب البيضاء بأن يجد فيه قيصر ما « مادة يستطيع أن يصوغ منها البناء الذى يريد خلقه » : جيشه ـ وستجل الجيوش فى المستقبل محل الأحزاب ـ ودولته .

هل يوجد اليوم فيما يدعى فى غير وضوح كاف « بالشبيبة » « جيل الجبهة » فى كل الأقطار البيضاء التى شاركت فى الحرب ـ هل يوجد أساس راسخ يستطيع حمل أمثال هؤلاء الأشخاص والاضطلاع بالثقيل من المهام ؟ إن الارتجاج العميق الذى أحدثته الحرب العظمى ، والذى انتزع العالم أجمع من أحضان أوهام الأمن والتقدم كمعنى للتاريخ ـ لم يبلغ قط فى أى مكان الجلاء الذى بلغه فى الفوضى الروحية التى أعقبته . إن فقدان الشعور بهذه الفوضى ، والاعتقاد بأننا نحمل فى أحشائنا نظاما جديدا ـ يدلان على وجودها فعلا فى وضوح لايرتفع إليه أى دليل آخر . إن الرجال الذى ولدوا حول ١٨٩٠ لم يُرزقوا نظرة الزعيم العظيم الحقيق . لقد اختفت فى ضباب الأدب التاريخى شخصيتا بسمارك ومولتكة ، إذا صرفنا النظر عن غيرهما فى البلدان الأخرى ـ كان يصح أن يكونا مقياسا للعظمة الصافية ، ولكن ذلك لا يتأتى من دون الحاضر الحى . لم تظهر الحرب ملكا عظيما واحدا ، ولا سياسيا رائعا واحدا ، ولا قائدا واحدا يحكم الخطط الحربية فى موقف الحسم . ولن ينفى ذلك جميع التماثيل ، ولا ما أطلق على الشوارع من أعلام . ولقد حدث من جراء ذلك عوز فى الشعور بالسلطة أصاب الملايين من الجانبين ، أولئك الذين غادروا الخنادق إلى منازلهم . عوز تجلى فى النقد الذى لم يقف عند حد من جانب الشباب ،

لكل ما هو قائم : للرجال والأشياء . والذى لم يوجـــه ولو مرة واحدة إلى ذواتهم . لقد استهزىء بالأمس دون أن تستشف قوته المثابرة . تجلى فى هذا وبان فوق كل شىء فى الطريقة التى تصايح بها الناس فى كل مكان مطالبين بدكتاتوريات تجرى مع ميولهم الخاصة دون أن يعرفوا أو يقروا دكتاتورا واحدا بالطريقة التى بها ينتخبون اليوم الزعيم ويعبدونه ليلقوا به من غـــد جانبا ـ بريمو دى ريفيرا ، دانتزيو ، لودندروف ـ والتى بها فاقشوا الزعامة كمشكلة بدلا من أن يكونوا مستعدين للتسليم بها كأمر واقـــع حين يجب وجودها . لقد أصبحت للحذلقة السياسية الكلمة العليا . فأخـــذ كل إنسان يكتب شارحا لدكتاتوره المقبل ما يجب أن يريده ويتحراه ، كل إنسان عاجز عن تنظيم نفسه . ولهذا فهو ينشد النظام من الآخرين ، لقـد نسى الإنسان ثمن السياسى الحق الذى يعرف كيف يدير دفة الأمـور ، فانحط لهـذا إلى هستيريا البرابج والمثل العليا ، مأخوذا بأحلام جدباء ، وانغمس خطيبا ومتكلما فيما تجب إعادة تشكيله من دون قيد ولا شرط ، غير ملق بالا إلى تبين إمكانه أولا ، فلقد سُلم مقدما ببداهة ذلك الإمكان . إن الافتقار إلى احترام التاريخ لم يكن أعظم فى عصر من العصور منه فى هذه السنين . إن للتـاريخ منطقـه الخاص الذى تتحطم أمامه كل البرابج . تلك حقيقة لا يعرفها النـاس ولا يريدون ان يسلموا بهـا . ولكن بسمارك اصاب هـدفه لأنه فهم سـير تاريخ قرنه واندمج فيه ، وكان ذلك منـه سياسة عظمى باعتبارها فن الممكن .

وقد انبعث من هؤلاء الشباب فى جميع البلدان البيضاء الصراخ الثورى الخاص ضد الانفرادية فى المانيا ، فى إنجلترا ، فى اسبانيا ، فى كل مكان . اولئك الشباب الذين رغبوا فى ان ينهوا من ادنى على هيئة البلشفية ثورة عالميـة مداها قرنان

لأنهم لم يفهموها ، ولقد كان فيهم أنفسهم كثير من هذه البلشفية . لقد كانوا انفراديين ضئالا بل غاية فى الضآلة ، لأموهبة ، ولاعمق . ومن أجل ذلك عراهم مس من الحاجة التشنجية لأن يكونوا على صواب ، وأبغضوا تفوق الأعظمين الذين لم تكن غريبة عنهم على الأقل نفحة من الشكاكية تجاه أنفسهم. كل الثوريين فاقدو الفكاهة ، وهذا سبب سقوطهم جميعا . إن التعصب ليس إلا العناد الضئيل فى الرأى ، والعوز فى الفكاهة ، وذلك تعريفه . ولم يدخل هؤلاء الشبان أبدا فى وعيهم أن الزعامة والسلطة والاحترام فى واد ، والاشتراكية فى واد آخر . إن الخصومة للانفرادية هى البدعة النظرية بين الفكرين فى الوقت الراهن ، برغم إرادة جميع الأقطار البيضاء ـ كما كانت بالأمس ـ انفرادية لم تفترق عنها كثيرا . إن هذا اللون من الفكر مهما تكن ضآلته هو وحده كل مايستطيعه هؤلاء الفكريون ويملكونه ، إنه الحياة الأدبية للمدن الكبيرة ، وليس فيه شىء الجدة ، فلقد أعيت كثرة الكلام فيه اليعاقبة . ليس العوز فى الذكاء تغلبا على الراسيونالية .

مم تتكون اشتراكية هؤلاء الأبطال الذين ينازلون حرية الشخصية ؟ إنها التجمعية الأسيوية غير الشخصية للشرق ، روح السهل العظيم ، متحدة مع التفسير الغربى لعام ١٧٩٢ . من يثور هناك فى الواقع ؟ إنهم فاقدو القدر ، الذين كل قوتهم فى عددهم ، فيهم يكمن كثير من الصقلبى السفلى ، وفضلات الأجناس السابقة للتاريخ وفكرها البدائى ، هذا إلى الحسد للروح الروسية التى تحررها إرادتها التى لم يكتمل تطورها من آلام الضعة لذوى العقول الضئيلة حينما يريدون شيئا ولا يعرفون كونه ، ويلزمون برغبة شىء فلا يحسرون عليه . من لم يرتض فى

شجاعة دور المطرقة فسوف يقنع بدور السندان . وإن هذا الدور لا يخلو من ملطف . إن النزوع إلى التحرر من الإرادة الذاتية ، الانغماس في الأكثرية الخاملة الراكدة ، سعادة روح الخدم ببعدها عن حيازة هموم السيد . إن كل أولئك يتنكر في أزياء من عبارات ضخمة . إنها رومانتيكية التراجين ، تأليه شعور القطيع ، الوسيلة الأخيرة لتحويل الخوف الذاتي من التبعات إلى مثل أعلى . إن هذه الكراهية للانفرادية ، الكراهية الصادرة عن الجبن والخجل هي الصورة المزلية لعظماء الباطنيين في القرنين الرابع والخامس عشر في تخليهم عن صميم الذاتية . لقد كانت النفوس التي بلت وقتذ عزلة الأنا ، الجرمانية الصافية الهائلة في العالم نفوسا قوية . بلت هذه العزلة فأحست من أعماق آلامها اللهفة المتحرقة للفناء فيما أسمته الله ، أو في الكل ، أو في أي شيء آخر لم يكن غير أنفسهم من جديد . لقد كان مصيرها القدري إلى ، الأنا ، القوية التي لا تلين . وكل محاولة لتخطي حدودها لم تفد إلا أنها ليس لها حدود . واليوم يعرفها الناس على بساطة أكثر : الإنسان يصير اشتراكيا ، ويناصب بالكلام ، أنا ، الآخرين

إن ، الأنا ، الذاتية لا تثير لهم متعة ما ، إن تقصيب الأذهان قديم : يجتمع الإنسان في جموع ، يريد الإنسان في جموع ، يفكر في جموع : من يفكر لذاته ، ومن لا يفكر مع غيرهم يريان ويشعر بهما كخصمين . لقد حلت الجموع محل الألوهية . وذلك ما انحطت إليه ، أنا ، الخاملة الغبية المريضة بكل الوان الكبت : ذلك أيضا تخليص ، إنه باطني تقهقريا . ولقد عرف الناس ذلك عام ١٧٩٢ . إنها حاجة الدهماء للجبري معا والعمل معا . ولكن الطراز البروسي زهد بمحض الإرادة الذاتية ، إخضاع ، أنا ، القوية

لواجب عظيم ، ومهمة قوامها عمل من أعمال ضبط النفس ، وتمرين هيدك النظر از
أسمى انفرادية يتأتى للحاضر أن يأتى بها .

لـ ـ ان العنصر الكلى الجرماني أقلوى عنصر لآه العالم لوالدة ، ولكن هذه
أراد أريده ـ أريدها ـ التى تكتظ بها الروح الفاوستية إلى المثالية ، والتى تطوى
آخر معنى لكيانها ، وتسيطر على كل تعبير للحضارة الفاوستية فى الفكر والعقل
والتربية والسلوك ـ لكن أراد أريده هذه قد أيقظت الشعور بالعزلة الحامة
للأنا ، فى الفراغ اللانهائى ، والإرادة والعزلة شىء واحد فى صميمهما . وإلى
ذلك يعود صمت جولتكه ، وتعود الحاجة فى طبيعة جسوته الأكثر المؤمة
وأنثوية ـ إلى اعترافات لا تنقطع أمام علم تحويه ليفسد ، وهى حاجة لتغلغل
فى كل مؤلفاته ـ إنه التوقان الحاسدى بين الفراغ الكونى ، أم النفس مرهفة
من مناجاة كيانها ـ يستطيع الإنسان أن يشبع بعزلته أو يشقى بها ، ولكنه
لا يستطيع أن يهرب منها . إن المرء فى الدين الحقائق الأبدية ـ كلوشر ـ
يشتهى العفو والخلاص من المصير ، ويريد تحاريته ، ولكن لا تعد بالقوة ، ولكن
الرجل السيامى فى الشمال تطور منها مقاومة عنيدة هائلة ضد الواقع ، والقدماء فى
إحدى الأساطير (الساجا) الإيسلندية : إنك تأتى بسيفك أكثر مما تأتى بالنور (١) ،
فإن كان ثمة فى العالم انفرادية فهى هذا التحدى من الفرد للعالم أجمع ، هذا العلم
بالإرادة الذاتية التى لا تلين ، الفتوح بحواسم الأمور النهائية ، والمقدام بالمقدر
حتى فى لحظة الهلاك به ، البرومية تعنى الانحناء الاختيارى ، إن قيمة التضحية
فى طبيعتها ، من لا أنا ، لديه ليضحى بها فليس له أن يتحدث عن وفاء
الأتباع : إنه لا يجرى الا وراء من حمّله التبعة ، وإذا كان ثمة ما يدعو إلى

(١) إله إسكندنافى جرمانى

العجب فليس غير حقارة المثل الأعلى الاشتراكى الذى يراد به تخليص العالم. ذلك ليس تحريرا من قوى الماضى. انه استمرار فى أردإ ميوله، انه الجبن أمام الحياة.

ان الوفاء المطيع ـ الوفاء البروسى الصميم ـ هو ذلك الذى تشتد اليه حاجة العالم فى هذا العصر لما يعانيه من الكوارث العظمى. ان المرء لا يركن الا الى ما يبدى مقاومة. هذا محك الزعيم الحق. كل من ينشأ من الجموع يجب أن يكون على بينة من أن الجموع، الأكثريات، الأحزاب ـ ليست بأتباع. ان الفوائد هى كل ما يريدونه، انهم يتخلون عمن يتقدمهم فى السير حين يطلب اليهم تضحية. كل من يفكر أو يشعر كفرد بين جموع ـ فلن يترك وراءه فى صفحة التاريخ شيئا آخر غير شهرة الديماجوجى.

هنا تفترق الطرق يسارا ويمينا: الديماجوجى يعيش بين الجموع دائما كواحد بين أمثاله. أما من ولد للسيطرة فإنه يستطيع استخدام هذه الجموع على حين يختلج فى نفسه شعور الازدراء لها. انه لا يخوض أشد معاركه ضد العدو وانما يخوضها ضد أصدقائه الفانين فى الإخلاص له.

لذلك كانت الجيوش لا الأحزاب ـ الصورة المقبلة للسلطة، أعنى الجيوش من وفاء ايثارى كالذى فقده نابليون بعد معركة «فاجرام»: لقد كان جنوده القدماء ممن يوثق بهم. اما كبار الضباط فلا. وان قيمة الجيش لا تقاس الا بهؤلاء. لقد درجوا على الا يروا فيه «القائد» بل «الدائم العطاء». وحين ثقلت كفة التضحيات وشالت كفة المنافع انتهى وجود الجيش العظيم.

لقد آن الوقت لكى يتدبر العالم الأبيض ولاسيما المانيا هذه الأمور الواقعة، خلف الحروب العالمية والثورة العالمية البروليتارية التى لما تنته تظهر اعظم

الأخطار ، تظهر الثورة الملونة . تلك الثورة التى سوف يحتاج من أجل لقائها إلى كل ما فى الأمم البيضاء من « عنصر » . إن ألمانيا من بين سائر البلدان ليست بجزيرة كما يتخيل الساسة المثاليون الذين يميلون إلى تطبيق برامجهم عليها باعتبارها موضوعا وهدفا . إنها ليست إلا نقطة صغيرة فى عالم عظيم قائر . ولكنها نقطة فى موضع فاصل منه ، مافى ذلك شك . فيها وحدها تتمثل البروسية كحقيقة واقعة ، وبهذا الكنز من الكيان المثالى تستطيع أن تكون المربية للعالم الأبيض ، وقد تكون المنقذة له أيضا !

الثورة العالمية الملونة

- ١٩ -

لا يهدد المدنية الغربية فى هـذا القرن ثورة واحدة بل ثورتان عالميتـان واسعتا المدى . وكلتا الثورتين لم تعرفا حق المعرفة فى مداهما وعمقهما وفعلهما. إحـــداهما آتيـة من أدنى والأخـــرى من الخـارج : حرب الطبقات ، وحرب الأجناس . الأولى أصبحت معظمها خلفنا ، ولو أن ضرباتها الحاسمة التى قد تنزل بالمنطقـة الأنجلو أمريكانية ـ يحتمل أن يكون وقوعها موشكا . والأخرى لم تبدأ بصفة حاسمة إلا فى الحرب العالميـة الأولى ، وهى تتخـذ فى سرعة كبيرة نزعة وصورة ثابتتين . وفى عشرات السنين المقبلة سوف تقاتل الاثنتان جنبا إلى جنب ، وليس بمستبعد أن تكونا فى هـذا القتال حليفتين . ويومئذ سوف تكون أشد أزمة يجب على الشعوب البيضاء أن تجتازها جماعة ـ متحدة أو غير متحدة ـ إذا أرادت أن تكفل لها مستقبلا .

ولقد قامت « الثورة من الخارج » فى وجـــه كل من الحضارات الماضية أيضا . وما كان يبعثها دائمـا إلا البغض العنيد الذى أثاره التفوق المنيع لجماعة من أمم الحضارة ، المعتمدة على صورها ووسائلها السياسية والحربيـــة والاقتصادية والفكرية التى بلغت أوج نضجها ـ أثاره فى نفوس من يحيط بها من الشعوب الدنيا ، الفاقدة الأمل ، من المتوحشين ، أو البرابرة ، المستغلين بغير حق . ولم تنج أية حضارة عاليـة من هـذا الطراز الاستعمارى . ولم يكن

هذا البغض ليمنع قيام ازدراء خفى لهذه الصورة الأجنبية للحياة التى عرفتها الشعوب الدنيا شيئا فشيئا ، واخترقتها ساخرة واقتحمتها بأنظارها . ثم أقدمت أخيرا على تقديرها فى ضوء حدود فاعليتها . فأدركت أن فى استطاعتها تقليد الكثير من أعمالها ، وأن غيره يتأتى لها القضاء على أذاه ، أو ليست له تلك القوة التى نسبتها هى إليه أول الأمر مأخوذة بما سيطر عليها من رعب ودهش . لقد شهدت الحروب والثورات داخل هذه الأمم السائدة ودُفعت بحكم الحوادث إلى أسرار التسليح والاقتصاد والسياسة . فتولاها الشك أخيرا فى مدى المقدرة الحقيقية للأجانب . وما احست التراخى فى الحكم حتى اخذت تفكر فى الهجوم وتقدر ما يمكن ان يتهيأ لها من نصر . ذلك ماحدث فى الصين فى القرن الثالث قبل الميلاد حينما دُفع بالشعوب المتبربرة القاطنة شمالى وغربى الهوانج هو ، وجنوبى اليانج تسى كيانج فى المعارك الفاصلة بين الدول الصينية الكبرى . وقد تجلى ذلك فى العالم العربى فى عصر العباسيين حينما ظهرت جموع الأتراك المغول كجنود مأجورة ثم كسادة . وكذلك كانت الحال قبل كل شىء فى تاريخ الدولة القديمة ، إذ نجد به الحوادث المطابقة فى دقة لتلك التى دخلنا فى غمارها فى غير رجعة .

وقد بدأت حملات البرابرة على العالم الأنتيكى بالحركات الكلتية منذ عام ٣٠٠ ق. م. ولم تنقطع بعدها على إيطاليا . فقد ايدت القبائل الغاليةُ فى معركة «سنتنوم» الحاسمة الأترسكيين والسامنيين ضد روما عام ٢٩٥ق.م وحينما استعان بها هانيبال بنجاح . وفى عام ٢٨٠ ق.م. فتح كلتيون آخرون مكدونية وشمال اليونان حين لم يبق فى الوجود اية دولة صحيحة بسبب الحروب الداخلية . ولم يصدوا إلا امام ديلفى ، وقد اسسوا فى تراقية وآسيا الصغرى

إمبراطوريات برابرة بسكان : بعضهم هيليني وبعضهم مُسَهلين . ثم بدأ بعد ذلك فى الشرق وفى إمبراطورية الإسكندر الأكبر المنهارة ـ بدأ رد الفعل البربرى فى ثورات لاحصر لها على الحضارة الهيلينية فاضطرت إلى التراجع خطوة خطوة . حتى إن ميثريدات كان يأمل تدمير الدولة الرومانية الغارقة فى الفوضى التامة الناشئة عن حرب الطبقات التى تفشتها فى ذلك الأوان ـ كان يأمل ذلك حين تحالف مع « الهمج » الروس الجنوبيين ، الشيثيين ، الباستارنيين معتمدا على التوغل المطرد للبارثيين داخل سوريا من شرق إيران . ولم يصد ميثريدات إلا فى بلاد اليونان ، بعد أن انضمت إليه أثينا ومدن أخرى وبعض قبائل كلتية كانت تقيم فى مقدونية فى ذلك الوقت . لقد كانت الثورة السافرة تسود الجيوش الرومانية ، وكان كل جزء من هذه الأمبراطورية يحارب الجزء الآخر ، والزعماء يتصاولون ويقتل بعضهم بعضا حتى أمام العدو. وفى ذلك الوقت لم يعد الجيش الرومانى جيشا قوميا واستحال إلى أتباع شخصيين . إن الجنود الذين ساقهم هانيبال إلى روما عام ٢١٨ ق. م. لم يكونوا قرطاجيين حقيقيين بل أناسا من قبائل الأطلس وجنوبى أسبانيا المتوحشة . وبهم قامت روما بحروب مرعبة لم تنقطع منذ عام ١٤٦ ق. م ـ وإن خسائرها فى هذه الحروب لتعد المسئولة عن قيام الفلاحين الرومانيين فى اضطرابات الجراكيين ـ وبهم حاول سيرتوريوس الرومانى بعد ذلك تأسيس دولة مخاصمة لروما . وتلا ذلك منذ عام ١١٣ ق. م. الحملة الكلتية الجرمانية للكمبريين والتيتون ، تلك التى لم يستطع القائد الثورى ماريوس أن يردها إلا بعد ان افنت جيوشا رومانية كاملة ، وإلا بعد ان افرغ لها جهده إثر تمكنه من كسر يوجورتا الذى الب شمال افريقية على روما ، واحبط كل ردفعل

عـــدة سنين بما لجأ إليه من رشوة السياسة الرومانيين . وفى عام ٦٠ ق.م بدأت حركة ثانية كلتوجومانية من (سويفين وهلفيتيين) قام فى وجهها قيصر بفتحه بلاد الغال على حين هُـزم كراسوس أمام البارثيين المنتصرين وسقط صريعا فى حومـة الوغى . وبذلك انقضى عهـد المقاومة عن طريق الاتساع . وظلت خطة قيصر بإعادة إمبراطورية الإسكندر للقضاء على خطر البارثيين ـ ظلت من غير تنفيذ . ولقد اضطر تيبريوس إلى رد الحدود فى جرمانيـا إلى الوراء بعد أن أخفق فى تعويض الجيوش التى أبيدت فى معركة فاروس، وبعد أن شبت أول ثورة من كتائب الحدود فى موت أغسطس . ومنذ حينئذ ساد نظـام الدفاع ، وامتـلأ الجيش شيئا فشيئا بالبرابرة وأصبح قوة مستقلة وظهر فى قيادته الجرمان والأليريون والإفريقيون والعرب ، وانحدر سكان الإمبراطورية إلى « فلاحينية » « لسلام دائم » . وحين بدأت الحملات العظيمة من الشمال والشرق لم يكتف السكان المدنيون بأن يعقـدوا المعاهـدات مع الدخلاء بل استسلموا طواعيـة لتبعيتهم : وهـــذه هى السلبية المتأخرة لمدنية متعبـــة .

ومع ذلك قد أمكنت المحافظة لعدة قرون على هذا الوضع ، لأن الإمبراطورية الرومانية كانت رقعة متصلة يمكن الدفاع عن حـدودها . وإن موقف إمبراطورية الشعوب البيضاء الراهنـة التى تشمل سطح الأرض كلها ، وتضم الملونين ـ إن موقفها لأصعب من ذلك بكثير . لقد انتثرت فى جميـع الأصقاع البشرية البيضاء بنزعتها الشَّـموس إلى الابتعاد القاصى ، فى أمريكا الشمالية والجنوبية ، فى جنوب أفريقيـة ، فى استراليا ، وفى قواعد لا حصر لها بين هـذه الأصقاع . إن الخطر الأصفر والأسمر والأسود والأحمر يكمن

داخل منطقة سلطان البيض ، ويتوغل فى الاتفاقات والمخالفات الحربية والثورية بين الدول البيضاء ، ويسهم فيها ، وينذر بأنه سينتزع الحسم ليصبح رهن يده فى النهاية .

ما الذى يندرج فى مدلول « العالم الملون » وينضوى تحته ؟ إنه لا يشمل أفريقية فحسب ، بل يجمع إليها الهنود الأمريكيين ـ بجانب الزنوج والمختلطى الجنس ـ فى أمريكا كلها ، والشعوب الإسلامية ، والصين ، والهند إلى جاوة ويجمع فوق كل شىء آخر اليابان والروسيا ، تلك التى ارتدت ثانية دولة عظمى أسيوية « منغولية » . عند ما قهر اليابانيون الروس انبثق أمل غمر كل آسيا : لقد أرغمت دولة شابة أسيوية مستعينة بوسائل غربية ـ أكبر دولة فى الغرب على ن تجثو بين يديها ، وبذلك بددت هالة المناعة التى كانت تحيط « بأوربة » ولقد كان هذا النصر بمثابة بشير امعن فى الهند وتركيا بل فى منطقة الرأس والصحراء الكبرى الإفريقية معلنا : لقد اصبح فى الإمكان ان يُقتص من الأمم البيضاء لما جرعوا الملونين لقرن من الوان الإيلام والإذلال . ومنذ ذلك الوقت يفكر المكر العميق للأسيويين فى وسائل ليست فى متناول الفكر الغربى . وسائل لايستطيعها لتفوقها .

والآن وقد نزعت روسيا النقاب الأبيض واسترجعت ثانية اسيويتها بكامل روحها ، وبيغض مستعر لأوربة بعد ان اصابتها من الغرب عام ١٩١٦ الهزيمةُ الثانية الحاسمة على عين حليفتها إنكلترا الراضية الساخرة . لقد بلت فى دلك نواحى ضعفها العميق ورتبت اساليب جديدة خبيثة للمحاربة ، وادخلتها فى فكرة المقاومة المشتركة عند جميع الشعوب الملونة على سطح الأرض . وهذا هو الأثر الحقيق الثانى للحرب العظمى إلى جانب انتصار

الاشتراكية العالمية على المجتمع فى الأمم البيضاء ـ تلك الحرب التى لم تقرب إلى الأذهان ولم تفصل فى واحدة من المشكلات الخاصة بالسياسة العظمى . لقد كانت هذه الحرب هزيمة للأجناس البيضاء . كما كان صلح ١٩١٨ أول انتصار عظيم للعالم الملون : إنه لرمز أن يتمكن العالم الملون اليوم من المشاركة فى مناقشة ما شجر بين الشعوب البيضاء من ألوان الخلاف ـ فى جمعية الأمم فى جنيف ، تلك التى ليست إلا الرمز الحقير إلى أمور مخزية .

لم تكن المعاملة السيئة التى أصابت الألمان المغتربين فى البلاد الأجنبية بيد الملونين ممتثلين لأوامر الإنجليز والفرنسيين ـ لم تكن إجراء يثير الدهشة فى جدته . فلقد بدأ هذا الأسلوب بالثورة الليبرالية فى القرن الثامن عشر : فى عام ١٧٧٥ حين جند الإنجليز قبائل الهنود الحمر الذين بطشوا بالأمريكيين ومثلوا بهم حرقا ونزعا لشواة الرأس . ولا يجب أن تنسى الطريقة التى بها حرك اليعاقبة زنوج هايتى فى سبيل «حقوق الانسان» . لقد انقلبت رأسا على عقب نظرةُ الملونين إلى الاوضاع النسبية على سطح الأرض بعد أن استعان بهم البيض على البيض فاقتيدوا من كافة أنحاء المعمورة جموعا جموعا إلى الأرض الأوربية . ثم رجعوا إلى أوطانهم بعد أن تعلموا أسرار أحدث الوسائل الحربية وحدود فعلها ، وهم يطوون نفوسهم على اعتقاد راسخ بأنهم قهروا الدول البيضاء . لقد شعروا بقوتهم المشتركة وبضعف الآخرين . لقد أخذوا يزدرون البيض كما ازدرى يوجورتا من قبل روما العظيمة . إن الألمان لم تخسر الحرب العالمية ، وإنما خسرها الغرب حين فقد احترام الملونين .

لقد كانت موسكو أول من أدرك مدى هذا الانتقال لمركز الثقل السياسى . أما غرب أوربة فلم يدركه بعد . لقد نزلت الأمم السائدة البيضاء عن مرتبة

السيادة . إنها تساوم اليوم وقد كانت تأمر بالأمس ، وغدا ستُلزم بالقلق وتحمل عليه لتستطيع أن تساوم . لقد فقدت الشعور ببداهة قوتها ولكنها لا تلحظ ذلك قط . لقد تخلت لأمريكا عن اختيار الساعة فى « الثورة من الخارج » . ولآسيا فوق كل شىء ، تلك التى أصبحت حدودها اليوم على الفستولا والكاربات . لقد اضطرت ثانية لأول مرة بعد حصار الأتراك لفينا إلى التزام الدفاع ، وسوف تضطر إلى تعبئة قوى عظيمة روحية وحربية توضع فى يد رجال أوفوا على الغاية فى عظمتهم إذ أرادت أن تتغلب على الهجوم العاصف الجبار الذى لن تنتظر وقوعه وقتا طويلا .

لقد شبت فى روسيا منذ عام ١٩٢٧ كلتا الثورتين فى وقت واحد : البيضاء والملونة . الأولى سطحية حضرية ، اشتراكية للعمال ، ذات إيمان غربى بالحزب والمنهج ، مصنوعة من الأدباء والبروليتاريين الأكاديميين والمحرضين النيهلستيين من طراز باكونين باتحاد مع حثالة المدن الكبيرة ، كلهم أرباب بلاغة وأدب فى الصميم ، وقد أودت هذه الثورة بالمجتمع البطرسى ذى الأصل الغربى فى أكثره ، وأقامت على المسرح طقوس عبادة « العامل » الصاخبة ، لقد أصبحت صناعة الآلة الاجنبية البغيضة إلى الروح الروسية فجأة آلهة ومعنى للحياة . ومن تحت ذلك وفى بطء وإصرار وصمت وامتلاء بالآمال بدأت الثورة الاخرى ، ثورة الموشيك (١) ، ثورة القرية ، البولشفية الاسيوية الحقيقية . وكان تعبيرها الاول نهم الفلاح الابدى للأرض ، ذلك الذى دفع الجنود إلى ترك جبهة القتال لينالوا انصباءهم فى العملية الكبيرة لتوزيع الاراضين . ولقد ادركت الاشتراكية العالمية الخطر فى سرعة بالغة

(١) الفلاح الروسى

فأخذت بعد الحلف المبدئى تستخدم البغض الذى تعهدته كل الأحزاب الحضرية بألوانها الليبرالى منها والاشتراكى ، وانطوت عليه للفلاح ـ تستخدمه فى القيام بالحرب تشنها على هذا العنصر المحافظ ، الذى يثبت التاريخ بصفة ثابتة بقاءه بعد فناء جميع التشكيلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى المدن . انتزعت هذه الاشتراكية من الفلاح ملكيته ، وأعادت إدخال نظام الرق الواقعى والسخرة ، وقد رفعهما منذ ١٨٦٢ إسكندر الثانى وأدت بإدارتها العدائية البروقراطية للزراعة ـ وكل اشتراكية تنتقل من المحيط النظرى إلى التطبيق الفعلى تختنق فى سرعة متناهية فى بيروقراطية ـ أدت إلى إجداب الأراضى وإلى تضاؤل الثروة البهيمية فى كسر ضئيل بالنسبة لماضيها ، وإلى أن تصبح المجاعة من الطراز الأسيوى حالا دائمة لا يطيقها إلا جنس ضعيف العزيمة ، مطبوع على حياة العبودية .

ولكن البولشفية البيضاء تسرع هنا وثبا إلى الفناء ، ويحافظ على قناعها الماركسى من الخارج فحسب لإطلاق الثورة وتوجيهها فى جنوب آسيا وأفريقية وأمريكا ضد الدول البيضاء . لقد حلت طبقة جديدة أسيوية من الحكام محل الطبقة التى كانت نصف غربية ، وعاودت من جديد سكنى الجواسق (١) والقصور حول موسكو ، واتخاذ الخدم والحشم ، ولم تعد تخشى أن تظهر البذخ البربرى كعادة المغول المكتظين بالغنيمة فى القرن الرابع عشر . لقد أصبح هناك «غنى» فى صورة جديدة مدونة فى اصطلاحات بروليتارية !

وأيًّا ما كان الأمر فسوف يعود القوم إلى الملكية الزراعية والملكية الشخصية مما لا يجعل رق الأراضى مستحيلا . وذلك مستطاع لأن السلطة فى يد الجيش لا الحزب المدنى كما كانت . الجندى فى الروسيا هو الكائن الوحيد

---

(١) الفيلات

الذى لايجوع ، إنه يعلم السبب ويعلم مداه الزمنى . إنها منيعة من الخارج بسبب الاتساع الجغرافى للدولة ، ولكنها نفسها تهاجم . لها الجنود المأجورون ، والحلفاء فى كل انحاء الأرض ممن يلتزمون سجيتها فى التنكر . أقوى سلاح لديها الدبلوماسية الجديدة الثورية الأسيوية الحقة التى تعمل بدلا من أن تساوم . تعمل من تحت ومن خلف : بالدعاية والقتل والثورة . وبذلك تتفوق تفوقا واضحا على الدبلوماسية العظيمة للبلدان البيضاء التى لم تفقد بعد تماما طرازها الأرستقراطى القديم على الرغم من المحامين والصحفيين الذين يلعبون بالسياسة ، ذلك الطراز الذى نشأ فى الأسكوريال . والذى كان بسمارك آخر سيد عظيم له .

إن روسيا سيدة آسيا ، روسيا هى آسيا . واليابان تتبع آسيا جغرافيا فحسب . فهى من حيث الجنس أقرب فى غير شك إلى الملايو الشرقيين وسكان بولنسيا وكثير من شعوب الهنود الحمر فى غرب أمريكا . ولكنها على الماء فى مثل مركز روسيا على اليابسة : سيدة منطقة واسعة لم يعد فيها للدول الغربية نفوذ ما . إن سيادة إنجلترا فى إمبراطوريتها بل فى مستعمرات التاج الملونة لاتضارع فى قوتها سيادة اليابان فى تلك المنطقة . إن اليابان تمد نفوذها بعيدا فى الخارج ، إنها تملك نفوذا فى بيرو وقناة بناما . إن صلة الدم المفروضة بين اليابانيين والمكسيكيين يؤكدها الجانبان فى الظروف المناسبة ويحتفيان بها . ولقد نشأت فى المكسيك أول عام ١٩١٤ فى الدوائر العليا الهندية الحمراء «خطة سان دييجو» وبمقتضاها يهبط على تكساس وأريزونا جيش من الهنود الحمر والزنوج واليابانيين ، ويذبح السكان البيض ، وتستقل الولايات الزنجيه وتنشأ مكسيك كبرى لدولة من الجنس الهندى الأمريكى النقى . ولو تم

تنفيذهذه الخطة لبدأت الحرب العظمى بتوزيع مختلف كل الاختلاف ، وعلى أساس مشكلات أخرى ، ولقضى بذلك على مذهب مونرو الذى اتخذ صورة أمبريالية الدولار برأسها المصوب إلى أمريكا اللاتينية . إن روسيا واليابان اليوم هما الدولتان الفاعلتان الوحيدتان فى العالم ، لقدصارت بهما آسيا العنصر الحاسم فى حوادث العالم . والدول البيضاء تعمل فى ظل ضغطهما وهى لاتدرى . إن هذا الضغط قائم فى نشاط الثورة الملونة التى استخدمت حرب الطبقات كوسيلة . لقد تكلمنا عن الأسباب البعيدة للكارثة الاقتصادية . وبعد أن شقت الثورة من أدنى على هيئة اشتراكية العمال بوساطة الأجور السياسية طريقها ـ توغل الاقتصاد الملون متسلحا بالأجور المخفضة تقوده روسيا واليابان ، وهو اليوم يوشك أن يتم الإبادة ، ولا عجب فى ذلك إذا علم أن اليابان تبيع الدراجة فى جاوة . وتنضم إلى ذلك الدعاية السياسية الاجتماعية فى مدى هائل ، الدبلوماسية الأسيوية الحقيقية لهذه الأيام ، إنها تتوغل فى الهند والصين ، ولقد أدت إلى بناء جبهة عنصرية فى جاوة وسومطرة تقف تجاه الهولنديين ، إنها تتودد من شرق آسيا إلى الجنس الهندى الأمريكى المتفوق فى هباته ، القاطن بين المكسيك وشيلى ، وتؤهل الزنجى للمرة الأولى لشعور مشترك يناصب الشعوب البيض ذوات السيادة .

وقد أعدت الثورة البيضاء هنا أيضا منذ عام ١٧٧٠ الميدان للثورة الملونة . وقد مهّون الأدب الإنجليزى لميل وسبنسر باتجاهاته الفكرية التى تعود إلى القرن الثامن عشر ـ مهّون المعاهد العليا فى الهند بنظرتها العالمية . ومنها يجد شبان الهند المصلحون أنفسهم السبيل بعد ذلك إلى ماركس : لقد وجده زعيم الثورة الصينى سون يات سن فى أمريكا . وعنه نشأ أدب ثورى خاص

غطى فى راديكاليته ماركس وبرودين . إن الحركة الاستقلالية فى أمريكا الأسبانية منذ بوليفار ١٨١١ ، والثورة الأمريكية الشمالية على إنكلترا - لا يمكن تصورهما من دون الأدب الثورى الإنجليزى الفرنسى لعام ١٧٧٠ ، ومن نابليون . وقد كان ذلك العراك محصورا بين البيض : الارستقراطية الكريولية المالكة للأرض التى عاشت فى البلاد منذ أجيال ، والموظفين الأسبانيين الذين حافظوا على بقاء مبدأ السيادة الاستعمارية . كانت لبوليفار - الأبيض النقى كميراند وسان مارتين - خطة لتأسيس مملكة تدعمها أوليجاركية بيضاء صافية . وكذلك كان الدكتاتور روزاس الأرجنتينى - وهو شخصية قوية من الطراز « البروسى » - يمثل هذه الارستقراطية ضد اليعقوبية التى ظهرت فى سرعة شديدة ولستفاضت من المكسيك إلى أطراف الجنوب ، ووجدت فى نوادى الماسونية المناصبة للكنيسة عونا وعضدا . فطالبت بالمساواة العامة حتى للأحناس : وبذلك بدأت حركة الهنود الحمر الصافين ونصف الصافين ضد الدم الأبيض إطلاقا لا ضد أسبانيا فحسب . وقد تقدمت فى غير هوادة وهى تقف اليوم أمام هدفها . وقد رأى هامبولت هذا الاعتزاز بالأصل الأيبيرى النقى ، ولا يزال التقليد بالرجوع إلى الأصل الغوتى الغربى والبسكى - باقيا إلى اليوم فى الأسر العظيمة فى شيلى . ولكن معظم هذه الأرستقراطية قد هلك أو هاجر ثانية إلى أوربة فى الفوضى التى سادت منذ منتصف القرن التاسع عشر . ان « الكاودلس » وهم ديماجوجيون حربيون من السكان الملونين يسيطرون على السياسة ، وبينهم هنود حمر خاص ذوو مواهب رائعة من أمثال جوارد وبورفيريو دياز . واليوم تبلغ الطبقة العليا البيضاء أو التى تعتبر نفسها بيضاء - مع استثناء الأرجنتين - مابين ربع السكان

وعشرهم . وفى كثير من الدول والولايات يكاد يكون جميع الأطباء والمحامين والمعلمين ، والضباط أيضا من دون استثناء ـ هنودا حمرا ، وإنهم ليشعرون بارتباط مع البرولتيارية المختلطة فى المدن ـ الميخوبيلو ـ وببغض للملكية البيضاء ، سواء أكانت فى يد كريوليين أم إنجليز ، أم أمريكيين من الشمال . فى بيرو وبوليفيا وأوكوادور تقوم الأيمارا كاللغة الثانية فى الإدارة والتعليم. وتقام بتأييد من موسكو الطقوس لعبادة شيوعية الإنكا المدعاة . إن المثل العنصرى لسيادة الهنود الحمر يحتمل أن يتحقق وشيكا .

وفى أفريقية يُرى المبشرُ المسيحى ولا سيما المتودست الإنجليزى يُعد فى براءة وبتعاليم المساواة بين جميع البشر أمام الله ، وخطيئة الثروة ـ يعد التربة التى يبذر فيها الداعية البولشفيكى ويحصد . ثم يتلوه فى نجاح أعظم جدا المبشرُ الإسلامى آتيا من الشمال والشرق ، وبالغا اليوم منطقة الزامبيزى (نياسالاند) فحيثما تكن بالأمس مدرسة مسيحية فسيقوم غدا كوخ لمسجد إن روح هذا الدين ذات الرجولية الحربية أقرب إلى ذهن الزنجى من تعاليم الشفقة التى تمسح تقديره واحترامه للرجل الأبيض . إن القسيس المسيحى يصير مربيا فوق كل شىء لأنه يمثل أمة سيدة تتجه الدعاية الإسلامية إلى مقاومتها بحزم ماهر على أساس يتصل بالسياسة أكثرما يتصل بالعقيدة .

إن هذه الثورة الملونة الشاملة للأرض تزحف فى نزعات مختلفة إلى الأمام : قومية ، اقتصادية ، اجتماعية . إنها تتجه علانية حينا ضد حكومات بيضاء لإمبراطوريات استعمارية كما فى الهند ، أو ضد حكومات بيضاء فى بلادها نفسها كإقليم الرأس ، وحينا ضد طبقة عليا بيضاء كما فى شيلى ، وحينا ضد قوة الجنيه أو الدولار أى السلطة الأجنبية إطلاقا ، وحينا ضد عالمها

المـالى نفسه لأنه يعامل البيض كما فى الصين ، أو ضد أرستقراطيته أو عرشه الخاصين . وقـد تنضم إلى ذلك عوامل دينية : الـكراهية للمسيحية ، أولأى لون من الـكهانة ، والأرثوذكسية إطلاقا ، للعرف أو العادة أو النظرة العالمية أو للقانون الخلقى . وجوهر الأمر أننا نجد منـذ ثورة التايبنج (١) فى الصين والسيبوى فى الهند ، والمـكسيكيين على الإمبراطور مكسيمليان ، وفى كل مكان ـ نجد السبب نفسه : البغض للجنس الأبيض والإرادة الجازمة المنعقدة على إبادته ، وليس مما يهم أن تستطيع مدنيـة عريقـــة فى القدم كالهندية أو الصينية حفظ النظام من غير سيادة أجنبية . وإنمـا الذى يهم هو قدرتها على أن تلقى عن كاهلها النير الأبيض . أما من يكون السيد التالى من بين الدول الملونة ، آلروسيا ام اليابان ام مغامر عظيم عـــلى رأس جيش ضخم ـ مهما يكن نسبه واصله ـ اما من يكون السيد فذلك ما يفصل فيه بعد او مالا يفصل فيه ابدا . لقد توالى على المدنية المصرية القديمة منذ عام ١٠٠٠ ق.م كثير جـدا من السادة الليبيين ، والأشوريين ، والفرس ، والأغـريق والرومان فلم تعـــد قادرة على ان تنهض بثورة ناجحة . اما ان يتحقق او يستطاع تحقيق غرض واحد من بين الأغراض الأخرى الـكثيرة فإن ذلك امر ثانوى تمـاما . إن المسألة العظيمة التاريخية هى : هل ينجح انهيـار الدول البيضـاء ؟ لقد تكونت حول ذلك ومن اجله وحدة قوية كل القوة فى القرار ، وحـدة تدفـع الى التفكـير . فماذا يملك العالم من قوى المقاومـة المادية والروحيـة حيال هذا الخطر ؟

---

(١) ثورة شبت فى الصين فى منتصف القرن الماضى ، وانتهت بفتح الصين اقتصاديا للاوربيين .

- ٢٠ -

إن ما يملكه العالم الأبيض من قوى المقاومة لهذا الخطر قليل جدا على ما يظهر لأول نظرة . فالواقع أن شعوبه قد أصبحت متعبة من الحضارة. لقد استهلك الجوهر الروحى فى لهيب الصورة العليا ، وفى الصراع نحو الكمال الداخلى . كثيرا ما بقى هناك توهج ، ولكن لم يكن ثمة إلا رماد غالبا . على أن ذلك لم يكن الحال فى كل مكان . كلما قل دفع الشعب فى زوبعة التاريخ الماضى فى حال قيادة كثر احتفاظه بالفوضى التى تستطيع أن تتحول إلى صورة . فإذا هبت عليها عاصفة الحواسم العظمى كعام ١٩١٤ - اندلع الشرر المختفى فجأة وارتفعت منه ألسنة اللهيب إلى السماء ، وفى الجنس الجرمانى على التخصيص ، وله أقوى إرادة فى الوجود - لاتزال إمكانيات عظمى راقدة.

وإذا تكلمت هنا عن العنصر ، فلست أريد ما يعنيه اليوم خصوم السامية فى أوربة وأمريكا كبدعة داروينية أى مادية . إن نقاوة العنصر عبارة شاذة فى صورتها بالنظر إلى الأمر الواقع : فلقد اختلطت الأنواع والأجناس منذ آلاف السنين ، وكانت العشائر الحربية بالذات ، أى السليمة الجسوم ، المليئة بالمستقبل - ترحب منذ الأزل بضم الأجنبى إليها إذا كان (من عنصر) بغض النظر عن نوع العنصر الذى ينتسب إليه . كل من يسرف فى الكلام عن العنصر لم يعد لديه شىء فيه . إن الحاجة لأمس إلى العنصر القوى الذى تحتويه الأمة لا إلى العنصر النقى .

يتبين ذلك - قبل كل شىء - فى الخصوبة التناسلية الأولية البديهية فى الثروة النسلية التى تستطيع الحياة أن تستهلكها دون أن تستنفدها قط . إن الله -

كقول فردريك العظيم المشهور ـ مع أقوى الكتائب دائما . وإن ذلك ليتبين هنا بالذات . إن ملايين القتلى فى الحرب العالمية كانوا من حيث العنصر أفضل مالدى الأمم البيضاء . ولكن العنصر يدل على وجوده بتمكنه من تعويض ما يخسره بسرعة . قال لى مرة أحد الروسيين : « ما ضحينا به فى الثورة تعوضه المرأة الروسية فى عشرة أعوام » . هذه هى الغريزة الحق ، وإن مثل هذه العناصر لا يقاوم . إن نظرية مالتوس السخيفة التى تمتدح العقم وتعتده تقدما ، تلك النظرية التى يوعظ بها اليوم فى كل الأقطار البيضاء ـ ليست لها غير دلالة واحدة ، هى أن هؤلاء المفكرين لا عنصر فيهم . وعلينا أن نُـعدى عن الفكرة التى اتضحت بلاهتها ، تلك التى تقول : إن من المستطاع القضاء على الأزمات الاقتصادية بإقلال السكان ، فالواقع ضد ذلك : ان الكتائب القوية ـ وهى مُـنْـبَعث السياسة العظمى وعماد وجودها ـ تحمى الحياة الاقتصادية أيضا وتمنحها القوة والثروة الداخلية .

ان المرأة «ذات العنصر» لا ترضى ان تكون «رفيقة» او «حبيبة» بل اما لا ام طفل واحد يتخذ العوبة او مسلاة بل ام اطفال كثر . ان صوت الغريزة للعناصر القوية ليبين ويتضح فى الاعتزاز بكثرة الأطفال ، وفى الشعور بأن العقم هو اشد اللعنات التى يمكن ان تصيب المرأة ، وان تصاب بها العشيرة بالوساطة والتبعية . ومن هذه الغريزة تنشأ الغيرة الفطرية الأصيلة التى بها تنتزع امرأة من اخرى الرجل الذى تمتلكه كأب لأطفالها . ان الغيرة الفكرية للمدن الكبرى التى لا تزيد الا قليلا عل النزعة الشهوانية والتى تقدر الشطر الآخر كوسيله للذة ، وان محض التفكير فى عدد الأطفال المرغوب او المخوف ـ ان هذا وتلك يكشفان عن نزعة من العنصر للبقاء تنحدر آخذة

فى الهبوط ، نزعة لا يتأتى للقلم واللسان إيقاظها ثانية ، إن الزواج البدائى أو غيره من ألوان العرف الشعبى القديم ، وما يظهره من عادات متأصلة بعيدة العمق لتقديس الإنسال ـ ليس فيه من العاطفية شىء : فالرجل يريد أن يأتى بأولاد أقوياء يكفلون لاسمه واعماله الخلود والنباهة بعد مماته ، على النحو الذى يحسه هو وقد انتهى اليه بالوراثة اسم آبائه وأجداده وأفعالهم . هذه هى الفكرة النورديكية للخلود . ولم تعرف هذه الشعوب عن الخلود فكرة أخرى ، ولم تردها . وعلى هذه الفكرة تستند اللهفة إلى الشهرة ليستبق الميت الخالد الحياة بين الخلف فى عمل ما ، اللهفة إلى رؤية الاسم مخلدا على التماثيل ، أو ـ على الأقل ـ إلى المحافظة على ذكرى مشرفة . لذلك لا يمكن فصل فكرة الميراث عن الزواج الجرمانى . إذا ما سقطت فكرة الملكية ذات معنى الأسرة فى لاشىء . من يهاجم إحداهما فإنما يهاجم الأخرى . إن فكرة الميراث التى تلتصق بكيان كل ضيعة وكل مصنع ، وكل متجر قديم ، وبالمهن الوراثية كلها ، والتى وجدت أسمى تعبير رمزى عنها فى المملكة الوراثية ـ تكفل القوة لغريزة العنصر . إن الاشتراكية لاتقتصر على مهاجمتها ، فمحض وجودها كان ـ ولم يزل ـ علامة على انحطاطها .

ولكن سقوط الأسرة البيضاء وهو التعبير المحتوم للكيان فى المدينة الكبيرة ـ ينتشر اليوم بقوة ، ويستنفد « العنصر » فى الأمم . لقد ضاع معنى الرجل والمرأة وإرادة الاستمرار . لايعيش المرء لمستقبل العشائر بل لنفسه فحسب . الأمة كمجتمع ، وهى فى الأصل نسيج عضوى متضافر من الأسر ، ينذر عن طريق المدن بالانحلال إلى مجموعة ذرات فردية ، ينتزع كل منها من حياته الخاصة ، وحياة غيره أكبر ما يستطاع من تمتع : خبز ولهو ـ إن

تحرر المرأة لعصر إبسن لايعنى تحررها من الرجل وإنما من الطفل ، من حمله وتبعاته . كما يرمى تحرر الرجل المعاصر إلى تحرره من الواجبات نحو الأسرة، نحو الأمة والدولة ـ إن الأدب الليبرالى الاشتراكى المعالج للمشكلات ـ يدور كله حوله هذا الانتحار للعنصر الأبيض ، وكذلك كانت الحال نفسها فى جميع المرتبات الأخرى .

لقد أصبحت العواقب ماثلة لأعيننا . لقد كانت الأجناس الملونة فى العالم الى يومنا هذا ضعف عدد البيضاء . فى عام ١٩٣٠ كانت الزيادة السنوية للمواليد على الوفيات فى روسيا أربعة ملايين . وفى اليابان مليونين ، وفى عشر السنوات من ١٩٢١ الى ١٩٣١ زاد سكان الهند أربعة وثلاثين مليونا . وفى أفريقية يتكاثر الزنوج بخصبهم الهائل فى الإنسال بدرجة أكثر سحقا منذ اقتحمها الطب الأوربى وقضى على الانتخاب الطبيعى القوى عن طريق الأمراض . هذا هنالك أما فى ألمانيا وايطاليا فقد كانت الزيادة أقل من نصف مليون ، وكانت أقل من نصف ذلك المقدار فى انجترا بلد التأييد العلنى لفكرة تحديد النسل . وفى فرنسا وبين النزلاء الامريكيين القدماء فى الولايات المتحدة لم تكن شيئا . وهذا الشطر الجرمانى الاصل من الامريكيين فى طريقه المسرع الى الزوال منذ عشرات السنين . ان التكاثر فى السكان هناك قائم كله فى جانب الزنوج والاوربيين الشرقيين والجنوبيين الذين أخذوا فى النزوح الى البلاد منذ عام ١٩٠٠ . ولقد فقدت عدة أقاليم فى فرنسا فى الخمسين سنة الاخيرة أكثر من ثلث عدد سكانها ، وفى بعضها كانت المواليد نصف الوفيات ، وكادت بعض المدن وكثير من القرى تقفر من السكان . ويهاجر آتيا من الجنوب القطالونيون والإيطاليون كمزارعين ، والبولنديون والزنوج حيثما كانوا

فينهضون بغير عمل واحد ، وقد أمكنهم أن يبلغوا الطبقة الوسطى ، ويدركوا مستواها ويصبحوا من أهلها . ففى « فرنسا » اليوم قسس وضباط وقضاة من السود ، وإلى هؤلاء النازحين وحدهم - ويبلغ عددهم أكثر من عشر السكان. يعود الفضل فى المحافظة على مستوى عدد الفرنسيين على وجه التقريب لخصبهم الإنسانى وحده . إن الفرنسى الصافى لن يكون سيد فرنسا بعد قليل من الزمن . إن الزيادة الظاهرية لمجموع السكان البيض فى جميع الأرض على قلتها بالنسبة لزيادة الملونين تقوم على وهم عابر : إن عدد الأطفال آخذ فى النقصان أما الذى يزيد وحده فعدد الكبار ، لا لأنهم كثيرون ولكن لأن حياتهم تطول .

ولكن الجنس القوى لا يتطلب عددا لا ينفد من المواليد فحسب ، بل يتطلب كذلك انتخابا قاسيا على يد مقاومات الحياة : الشقاء ، والمرض ، والحرب . إن طب القرن التاسع عشر ، وهو محصول أصيل للراسيونالية - يعتبر إذا ما نظرنا إليه من هذه الناحية مظهرا من مظاهر الشيخوخة . إنه يطيل كل حياة بمفردها سواء أكانت حقيقة بالحياة أم لم تكن . إنه يطيل نفس الموت . إنه يعوض عدد الأطفال بعدد العجائز . إنه يرحب بموقف الخبز واللهو النفسى حين يقيس قيمة الحياة بمقدار عدد أيامها لا بجوهرها . إنه يعوق الانتخاب الطبيعى ، ويزيد بذلك سقوط العنصر : لقد ارتفع عدد حالات الأمراض العقلية الميئوس من شفائها فى إنكلترا وبلاد الغال فى العشرين عاما الأخيرة من ٦و٤ إلى ٦و٨ فى الألف . وفى ألمانيا يبلغ عدد ضعاف العقول نصف مليون تقريبا . وفى الولايات المتحدة أكثر جدا من مليون . وقد جاء بتقرير للرئيس هوفر . إن بين النشء فى أمريكا

١٫٣٦٠٠٠٠ مصاب بعجز عن الكلام والسمع ، ومليونا من المرضى بالقلب و٨٧٥٠٠٠ صعب تهذيبهم أو فيهم ميل إلى الإجرام ، ٤٥٠٠٠٠ بهم ضعف عقلي ، ٣٠٠٫٠٠٠ عاجز ، ٦٠٠٠٠ أعمى . وإلى هؤلاء يضاف عدد هائل من الشواذ نفسيا وبدنا من كل لون ، ومن الهستريين والمرضى العقليين ، ومرضى الأعصاب الذين يعجزون عن إنسال أو حمل أطفال أصحاء . إن عددهم لا يستطاع حصره ، ولكن يستطاع استخراجه من عدد الأطباء الذين يعيشون عليهم ، ومن أكداس الكتب التي كتبت عنهم . من هذا النسل تنمو الين ولتيارية الثورية بحقد المخفقين وبولشفيسة المقاصير (١) للفنانين والأدباء الذين ينعمون ويسرون بفتنة مثل هذه الأحوال النفسية ويعلنونها .

إنه لأمر واقع معروف : أن المشهورين يندر أن يكونوا أكبر الإخوة ، ويكادون يُفقدون بين من أوجدهم آباؤهم ، فالزواج الفقير في الأطفال لا يصيب الكم فحسب بل يصيب فوق كل شيء نوع الجنس . وإن حاجة الأمة الى الجنس السليم لتتناظر في قوتها وشدتها حاجتها الى وجود الصفوة من المتفوقين الذين يقودونها : ان صفوة كالتي بنتها الخدمة الاستعمارية الإنجليزية وهيئة الضباط البروسية ، والكنيسة الكاثوليكية أيضا ، بقصورها كل التقصير في قسوة وغير اكتراث للمال والأصل على السلوك المهذب والمقسوة على اجتياز المصاعب - ان صفوة كهذه لا يمكن أن تنشأ ان كان قولهم الموجود لا يعلو على المتوسط ، يجب أن يسبق أولا انتخاب الخلقة ، فلن يتأتى انتخاب الطبقة الا بعد ذلك . ان الجيل القوي يتطلب أمهات وآباء أقوياء . من الحتم أن يوجد في الدم أثارة من بربرية العصر العتيق ، وصرامة الصور للحضارة القديمة التي تنطلق في أوقات الشدة لتنقذ وتنتصر .

---

(١) الصالونات

هذه البربرية هى ما أدعوه بالعنصر القوى ، الروح الحربية الأبدية فى طراز الحيوان المفترس المسمى إنسانا . قد يبدو أنها لم تعدموجودة ، ولكنها على استعداد روحى للوثب . ليحدث أى تحدقوى لها لترينا العدوتحتها وشيكا إنها لاتموت إلا حيث تدير سلبية المدن طعْميها على الأجيال رغبة فى الدعة تنال بأى ثمن حاشا بذل الحياة الخاصة . وهذا هو نزع السلاح الروحى بعد السلاح الجسمانى عن طريق العقم . ما السبب الذى جعل الشعب الألمانى أقل الشعوب البيض استنفادا ، فصار من أجل هذا موطن أمل أقوى ؟ ذلك أن ماضيه السياسى لم يسنح بفرصة يبذر فيها من دمه الغالى ومواهبه العظيمة . وإنها للنعمة الوحيدة لتاريخنا المفعم بالشقاء منذ عام ١٥٠٠ . لقد استنفد التاريخ منا القليل . لقد جعل منا الحالمين والنظريين فى شئون السياسة العظمى على جهل بالعالم وعمى وضيق فى الأفق ، ومشاكسين ، وإقليميين ولكن ذلك مما يعالج ، ولم يكن ذلك خطأ عضويا ولا نقصا فطريا فى المواهب كما يظهره عصر القياصرة . إن الدم الثمين ـ وهو أساس كل ألوان التفوق الفكرى ـ كان ولا يزال محفوظا . إن التاريخ العظيم باهظ المطالب ، إنه يستنفد أحسن العناصر عنصرية . ولقد استنفد الرومانية فى بضعة قرون . حين استؤنفت فى طراز عظيم إثر كشف أمريكا هجرة الأقوام النورديكية عبر البحار ـ تلك الهجرة التى وقفت قبلها بألف سنة فى جنوب أوربة ـ حين استؤنفت نزحت إلى هنالك العشائر الأسبانية القوية ، وجلها من أصل نورديكى ، وقد استطاعت أن تحارب وتغامر وتسود . هنالك توطنت الأرستقراطية القيمة ذات الطابع الأسبانى حول عام ١٨٠٠ على حين انطفأت الحياة القوية فى أرض الأمومة وكذلك استنفدت فى السياسة العليا منذ عصر لويس الثالث عشر الطبقة العليا

الفرنسية المولودة للسيطرة ، ولم تستنفد فيها وحدها ، فالحضارة العليا تدفع ثمنها غاليا . وكانت الأرستقراطية الأنجلوسكسونية فى الإمبراطورية الإنجليزية أكثر منها استنفادا : من كانوا فيها من العشائر المتفوقة دفعوا بالرجال لا إلى المكاتب التجارية والوظائف الصغرى فى جزيرة الوطن بل إلى حياة الأخطار ، فاندفعوا فيها بنزعة الفيكنج ، وهلكوا فى كل أنحاء العالم فى مغامرات وحروب لا عد لها ، كما أتلفهم المناخ . ومنهم من ظلوا بعيدا حيث بنوا فى شمال أمريكا (مثلا) أساسا لطبقة سيدة . أما من بقى بعد ذلك فقد أصبح «محافظا» يعنى هنا : غير مبدع ، متعبا ، مليئا بالحقد العقيم على كل جديد ، وغير متوقع . وكذلك كانت الحال فى ألمانيا : فقد فقدت كثيرا جدا من أفضل دمائها فى الجيوش الأجنبية لتحقيق مصالح أمم أجنبية . ولقد نزلت إقليمية أحوالهم السياسية بطموح موهوبيهم إلى الخدمة فى البلاطات الصغيرة ، فى الجيوش والحكومات الصغرى ، وهنا بقوا كطبقة وسطى سليمة ومنسلة كما لزم جل النبلاء الفلاحة العليا . لم تكن هناك حياة عليا ولا غنية . لقد نام « العنصر » فى القومية ، وترقب إيقاظه على يد عصر عظيم . هنا يكمن على الرغم مما استنفدته عشرات السنين الأخيرة كنز من الدماء المستحصدة لا يملكه أى بلد آخر ، من المستطاع إيقاظها على انه يجب إشباعها روحيا لتكون متأهبة لحمل مهام المستقبل الهائلة ومقتدرة على الفاعلية فيها . ولكن هذه المهام قائمة اليوم . لقد بدأت الحرب للسيطرة على الأرض كلها ، فيجب التغلب على سلبية القرن الليبرالى إذا أردنا البقاء فى الحياة .

الى اى مدى بلغت خطا الشعوب البيضاء صوب هذه السلبية ؟ أهذه الصرخة المتناهضة للحرب حركة فكرية ام استسلام جدى امام التاريخ على

حساب الكرامة والشرف والحرية ؟ إن الحياة هى الحرب . فهل يمكن ترك معناها والمحافظة عليه فى وقت واحد ؟ يبدو أن الحاجة إلى الراحة الفلاحية والتأمين من كل ما يزعج خطا الزمن ، ومن القضاء بألوانه ـ تريد ذلك . إن كل أولئك لون من المحاكاة الهزلية تجاه التاريخ العالمى ، وتماوت الحشرات البشرية قبالة الخطر . إنها النهاية السعيدة لكيان خاو أتت سآمته بموسيقى الجاز ورقص الزنوج لعزف المارش الجنائزى لحضارة عظيمة .

ولكن ذلك لايمكن أن يكون ويجب ألايكون . قد يخدع الأرنب الثعلب. أما الإنسان فلا يستطيع خداع الإنسان . إن الملون يخترق الأبيض بنظرته ويصل إلى ما ينطوى عليه قلبه حين يتحدث عن « الإنسانية » والسلام الدائم. إنه يشم رائحة العجز وفقدان الإرادة للدفاع عن النفس. وهنا يتطلب الموقف تربية من ذلك النوع الذى سميته بروسيا ـ والذى لايعنينى أن سمى «اشتراكيا». فلا عبرة بتغاير الألفاظ مادام المدلول واحدا ، تربية توقظ القوة النائمة عن طريق المثل الحى لا المدرسة ولا المعرفة ولا التعليم ، فالتهذيب الروحى هو الذى يبحث عما فى الداخل ، ويظهره ويقويه ويدفع به إلى الازدهار ، إننا لانستطيع أن نرضى لأنفسنا أن نكون متعبين ، والخطر يقرع الباب : ليس الملونون سلميين ، إنهم لن يتشبثوا بحياة كل قيمتها فى طولها ، إنهم يمسكون بالسيف إذا ماطرحناه ، لقد خافوا الأبيض يوما ، ولكنهم اليوم يزدرونه. إن الحكم مدون فى أعينهم إذا ما استرسل البيض من الرجال والنساء فى مسلكهم الراهن فى أوطانهم أو فى بلاد الملونين أنفسها . لقد تولاهم من الرعب يوما أمام قوتنا ما تولى الجرمان أمام الكتائب الأولى الرومانية . واليوم ـ وقد أصبح الملونون أنفسهم قوة ـ تنتصب روحهم الخفية التى لم نفهمها قط ،

وترمق الأبيض من عل كما ترمق شيئا غابرا .

ولكن الخطر الأعظم لم يسمَّ بعد . فماذا يحدث إذا انضمت يوما حرب الطبقات إلى حرب الأجناس وثارتا معا كتفا إلى كتف لتأتيا على العالم الأبيض ؟ إن هذا ما تهدى اليه طبيعة الأمور . ولن تزدرى ثورة منهما مساعدة الأخرى لمحض احتقارها لحملة لوائها ، فالبغض المشترك يمسح الازدراء المتبادل . وماذا يحدث إن قام على رءوسهم مغامر أبيض كما حدث فى أحوال كثيرة ، مغامر تعجز روحه الوحشية عن التنفس فى حظيرة المدنية الدافئة ، فيحاول أن يرضى ظمأه الى الأخطار بمشروعات استعمارية جريئة بين متلصصة البحار والكتائب الأجنبية ، وذلك الى أن يستبين لعينيه فجاءة هدف عظيم — أى شيء يحدث حينئذ ؟ وان التاريخ ليعد مفاجآته العظيمة بمثل هذه الطبائع . ان تقزز ذوى العمق بأحوالنا ، وكراهية الذين سقط غطاء الخداع عن أعينهم قد يرتفعان الى ثورة ترغب فى الإبادة . وما كان ذلك غريبا على عصر قيصر . وأيّا ما كان الأمر فإنه اذا ما انطلقت البروليتارية البيضاء فى الولايات المتحدة فسيكون الزنجى فى الميدان ، ومن ورائه الهنود الحمر واليابانيون يترقبون الساعة الملائمة . ان فرنسا السوداء فى مثل هذه الحال لن تتردد فى أن تبذ المناظر الباريسية لعامى ١٧٩٢ و ١٨٧١ . هل يحار القادة البيض لحرب الطبقات اذا ما فتحت الاضطرابات الملونة الطريق امامهم ؟ انهم لم يكونوا ابدا فى اختيار وسائلهم مدققين . لن يتغير الموقف كثيرا اذا ما خمد صوت موسكو كمصدرة للأوامر . لقد انجزت عملها وتأتى للعمل نفسه ان يسلك طريقه وحده . لقد ادرنا رحى حروبنا وحروب طبقاتنا تحت ابصار الملونين واذل بعضنا بعضا وغدر به . وقد طالبناهم بالمشاركة فيها ، فهل يكون عجبا

أن يقوم الملونون فى النهاية بذلك لحسابهم أنفسهم ؟

هنا يرتفع التاريخ المقبل فوق المثل العليا الاقتصادية والسياسية الداخلية . هنا تتدخل قوى الحياة الأولية نفسها في المعركة التى تدور حول كل شيء أو لا شيء . إن الصورة السابقة للقيصرية توشك أن تظهر فى تحديد أتم ، ووعى أقوى ، وسفور أعظم .

سوف تسقط النقب كلها عن وجوه الحوادث البرلمانية . وستنسى سريعا جدا كل المحاولات فى سبيل إبقاء كيان المستقبل على هيئة أحزاب ، وستنتقل التشكيلات الفاشيستية لهذه العقود من السنين إلى صور جديدة غير مقدورة ، وستختفي كذلك وطنية هذه الأيام ، ولن يبقى كقوة مانحة للصورة إلا «الروح البروسية» الحربية . ستبقى كذلك في كل مكان لا فى ألمانيا وحدها . إن المصير الذي يتكشف يوما فى صور مشبعة بالأهمية وفي تقاليد عظيمة ـ سوف يصنع تاريخا « يقوم بحوادث فاصلة » على هيئة قوات فردية فاقدة الصورة . إن كتائب قيصر تستيقظ ثانية !

وهنا ، وقد يكون ذلك فى هذا القرن نفسه ـ تترقب الحواسم النهائية رجلها . ستذوب أمامها الأهداف والأفكار الصغار لسياسة اليوم . فمن ينتزع سيفه النصر هنا يكن سيد العالم .

هنا أزلام اللعبة الهائلة وقداحها ، فمن ذا الذى سيجرؤ على إجالتها ورميها ؟ !

انتهى بحمد الله وعونه

الفهرس

ص	
١	مقدمة المترجم
٥٥	مقدمة المؤلف
٦٣	الأفق السياسى
٨٢	الحروب والدول العالمية
١٣٨	الثورة البيضاء
٢٥٠	الثورة العالمية الملونة

obeikandi.com

تقدير

يسعدنى أن أسجل كل تقدير وثناء لما بذله حضرة الأستاذ **احمد عثمان عبد المجيد** المدرس بالمنصورة الثانوية للبنات من جهود صادقة فى سبيل مراجعة اللغة ثم الأصول فى الطبع .

كما لا أنسى فضل جمعية الطباعة بمدرسة المنصورة الثانوية التى قامت بالطبع وأنى لأرجو لها دوام التوفيق واطراد التقدم .

كما لا يفوتنى أن أسجل للكثيرين من الأصدقاء كريم تشجيعهم وتقديرهم ؟

على حسن الرباكع

obeikandl.com